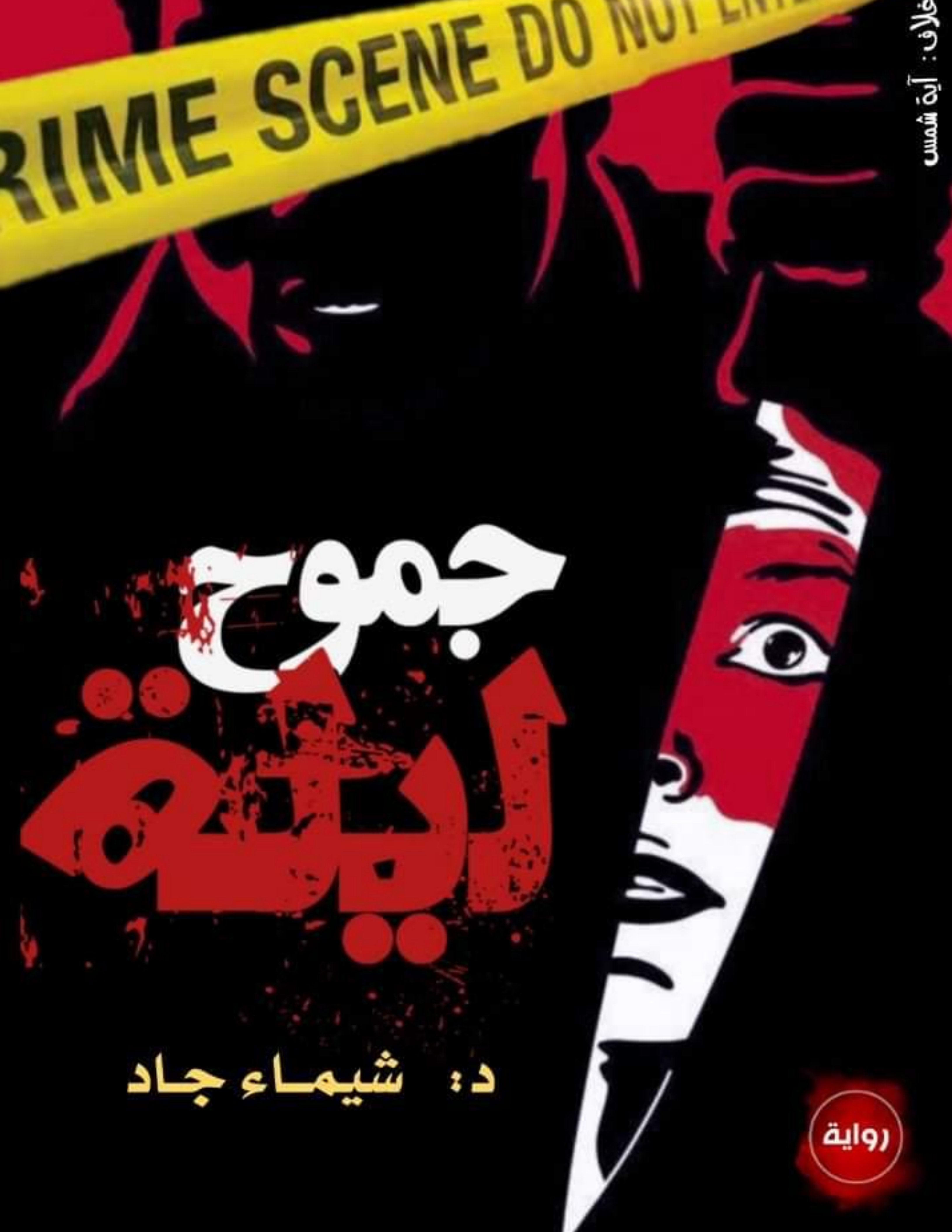

جموح
ليثة
د: شيماء جاد
رواية

جموح ليلة

شيماء جاد

غلاف خارجي: آية شمس

غلاف داخلي: شيماء جاد

جموح ليلة

مقدمة

الرجل المناسب لا يستطيع أن يصلح الكون كله بلحظة؛ فهناك أقدارٌ كتب عليه أن يمر بها،

أحيانًا يتعثر وأحيانًا تستقيم أموره،

وأحيانًا يناله الرضا بأكثر مما يتمنى فيفاجئه ويمنحه أكثر مما يريد.

أما أن يمضي حياته متعثرًا طوال الوقت فهاذا مستحيل..

ولأن المستحيل قد يحدث أحيانًا فلا بد أن يؤمن

بأن الطريق وعر ويحتاج لخطوات بعد حتى يستقيم..

وسوف يسير بخطواته حتى يصل للنهاية..

عل النهاية تسطر بدايات لم تكن بالحسبان..

ونهايات لجموح تلك الليلة والليالي التي سبقتها..

الفصل الأول

يحدث أن تمر بك فترة صمت،

لا مزيد من الكلام،

لا مزيد من الشعور،

لا مزيد من الأشخاص.

دستويفسكي

ترجلت من سيارة الأجرة في موقف سيارات بلدتها القريب من منزلها الكبير، عدة خطوات وكانت قد وصلت إلى المنزل المكون من طابقين والمحاط بسياج خشبي قصير، هذا هو إرثها المتبقي منه،

هذا ما آل إليها من كل أملاك عائلة زوجها بعد توزيع الإرث بين بقية الورثة الشرعيين.

دفعت الباب الحديدي القصير فأحدث ضجيجًا منفرًا دفعها لأن تصر على أسنانها وتفكر في وضع بضع قطرات من الزيت على المفصلات لتلاشي حدوث ذلك الضجيج فيما بعد.

تخطت الحديقة المهملة المليئة بأكياس فارغة وأوراقٍ ممزقة وكأن الستة أشهر التي تركت بها المنزل حولته إلى منطقة إلقاء للمهملات والأزبال.

وضعت مفتاحها في القفل فدار بعد جهد وبعد أن أنت عضلاتها من المحاولات، دلفت فوجدت خيوط العنكبوت الواهية تغلف المدخل الصغير المفضي إلى الدرج، مهجور منزلها وكأنه منزل الأشباح، ترتع

به الحشرات الصغيرة وتأمن به من بطش العالم الخارجي وكأنه ملاذًا للضعفاء.

حركت يدها بحركات عشوائية أمام عينيها تقطع تلك الخيوط الواهية التي التصقت بوجهها تخبرها بأن روحها تشبه تلك الخيوط في هشاشتها، وقد سبق وتمزقت أيضًا دونما تدخل خارجي ولا لوم على الأقدار!

تأففت هامسة لنفسها بتأنيب:

«كم أنت حمقاء؟ أما كان من الأفضل أن تستمعي لكلام "باسل"؟ ماذا سيضيرك لو انتظرت لعدة أيام إضافية ريثما ينهي أعماله المتراكمة عليه ويحضرك بنفسه!.»

لكنها عادت تهمس لنفسها وكأنها مصابة بفصام في شخصيتها، فتتحدث مرة إلى نفسها بالتأنيب ثم تبرر ما تفعله لتلك الأخرى المؤنبة:

«لكن كيف كنا سنحضر هنا جميعًا دون أن يتطوع أحدنا لتنظيف هذه الفوضى؟! التراب يغطي كل شيء ووجب حضوري قبلًا حتى أهيئ المنزل لحضور باقي الأسرة.»

وصلت إلى درج الدور الأول فرمقت الشقة المغلقة

بعينيها تتخيل حجم ذرات الغبار المتراكمة فوق الأثاث بالداخل، لكنها أرجأت تنظيف المكان إلى الغد لتصعد إلى الطابق العلوي تتنفس تنفسًا سريعًا علها تطرد الذرات العالقة بأنفها فتدغدغه دافعة إياها إلى العطس بقوة.

دخلت الشقة بالدور العلوي فوقفت في صالتها الصغيرة ترمق كل شيء بجمود، الأثاث المغطى المدفون تحت طبقة من التراب، الكريستالات المعلقة داخل أكياس لحفظها، الإطار الجداري الأنيق المسنود جوار الحائط وقد أنزلته من مكانه وغطته بالكامل بقطعة قماش كبيرة.

اقتربت منه بوجل وقد وخزها الألم بقلبها بقوة، تعرف هذه الصورة المؤطرة وتحفظها بأبعد من قلبها، بل تحفظها بذلك الدم الذي يضخ في عروقها فيبث في جسدها الحياة، حياتها الواهية وأوهى من خيوط ذلك العنكبوت الرابض بمدخل المنزل بالأسفل.

تشابهت أيامها ولياليها بعده، لا تعرف متى يجب أن تنام ومتى يجب أن تستيقظ! متى ما زارها النوم ترقد بمكانها تختلس بضع ساعات ثم تستفيق مجددًا لتواصل ليلها بنهارها بلا هوادة وكأن عزائها بفقدانه أن تحيل حياتها إلى ظل رمادي باهت خالٍ من الألوان.

ترددت أن تزيح قطعة القماش عن الصورة، لا تريد أن تنصهر بأحزانها في تلك اللحظة وما زال خلفها أطنان الغبار تلك، تحتاج أولًا أن تنظف الشقة ثم فلتفعل ما يحلو لها فيما بعد.

أرجأت مخططاتها للبكاء الليلة حتى تنهي التنظيف ثم فلتجعله مضاعفًا، مرة لأجل الحسرة ومرة لأجل

التعب. تبسمت بسخرية لنفسها وتلك الأفكار السخيفة تحاصر تفكيرها، فبرغم حزنها الدائم إلا إنها لا تستطيع أن تكف عن تلك العادة السخيفة وهي السخرية من كل شيء!

***

أنهت تنظيف الشقة العلوية وقد شارف الليل على الانتصاف، الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلًا، عضلات جسدها منقبضة وعظامها تؤلمها وكأن ألف مطرقة تدقها، الصداع اللعين يلف تلافيف مخها ويعتصره بين قبضتيه كالغول الموحش، بينما جيوبها الأنفية قد تحزمت وأطلقت دفوف

العطس احتفالًا بليلة بئيسة من الحساسية المزمنة.

لن تنعم بنوم هادئ الليلة، أخرجت حبة مسكن من حقيبتها اليدوية فتناولتها ثم استنشقت بعض الرذاذ المخصص لجيوبها الأنفية التعيسة.

خرجت من الحمام بعد حمام طويل دافئ عله يريح جسدها المنهك بعض الشيء، استلقت على فراشها مقررة أن تنال قسطًا من النوم لكن الهواجس المعتادة بدأت تدعو بعضها لزيارة مسائية متطفلة داخل ثنايا تفكيرها.

تقلبت لبعض الوقت وحين يئست من النوم نهضت بتكاسل تبحث عن هاتفها الصغير، وجدت أن البطارية فارغة فغضبت من نفسها لأنها نسيت

شحنه بعد مكالمتها مع باسل تطمئنه على وصولها بأمان.

وضعت الهاتف بالشاحن ثم اتجهت نحو المطبخ تعد لنفسها كوبًا من الحليب الدافئ بالعسل؛ حيلة طفولية تتذكرها منذ زمن بعيد حين كانت والدتها تحضره لها قبل النوم مقنعة إياها بأنه سيجعلها تحظى بنوم جيد وأحلامٍ سعيدة.

تنهدت مبتسمة وقد تذكرت تلك الطفلة ذات الضفائر السوداء والغمازتين الغائرتين بخدودها الممتلئة حين تلثمها والدتها كل ليلة منهما قائلة لها أن القمر هبط من السماء ليسقط على كل خد من خدودها فيحفر به تلك الغمازات الرقيقة.

ما زالت محتفظة بتلك الغمازات رغم نحول وجهها مؤخرًا، ضفائرها السوداء حلت للأبد وأصبحت كعكة متهدلة خلف رأسها تتناثر منها بعض الخصلات القصيرة بعد أن تهورت مرة فقصته لأن حليم كان يحبه طويلًا، وكأنها تعاند الحياة لفقدانها لذلك الحب فصممت أن تفقد كل ما يذكرها به.

حليم وآه من عمر معه لم يعد له بقية، رحل حليم ورحلت معه كل الأماني ولم يبق لها سوى ليالي ثقيلة مظلمة تمضي على روحها فتدهسها بكل الذكريات المتبقية منه ومعه.

استدارت فرمقت الصورة التي علقتها على الجدار بوجل، صخب تعالى داخلها وألم شق جدار بطنها فتأوهت ووضعت يدها تمسد موضعه.

خفضت ناظريها ثم مرت مسرعة من أمام الصورة وكأنها تخشى سؤاله لها عن أمانته كيف ضيعتها بعد

رحيله، قررت بلحظة اختناق حاصرتها أن تدخل الشرفة التي بغرفة نومها، الشرفة واسعة وقد وضعت بها طاولة ومقعدين من الخيزران حيث كان حليم يفضل الجلوس هناك مراقبًا الأفق الأخضر المحيط بالمنزل وقت العصاري.

دلفت بهدوء وكأنها تخشى تحريك خيوط الصمت التي تلف الأرجاء، وضعت كوب الحليب على المائدة ثم جلست دون أن تشعل الإضاءة، القمر

ينير بهالته الأرجاء ويغلف الموجودات بخيوطه الفضية اللامعة فكأنها هدايا مخصصة لليلة العيد.

نسمات الهواء الصيفية تلفح وجهها الحزين فتربت عليه بحنو مواسية، وهل تفيد المواساة حين يعشش الحزن بأعماقنا!

الليلة قمرية اكتمل بهاء قمرها استدارة فألقى بظلاله على الأرض مثيرًا لحنًا من الشجن ومكونًا لوحة بديعة مع نجوم السماء الصافية..

هذا لمن يحب تأمل الكون بصفاء ذهنه..

لكن عجيبة هي نفوس البشر، فما يستسيغه البعض يهابه البعض الآخر بل وربما يرتعب منه!

هكذا كانت حالة ليلة في جلستها المتجمدة ترقب الظلال المتمايلة حولها بخوف وتتطلع للأغصان المتشابكة لشجرة الكافور المجاورة للشرفة وكأنها أشباح تتجاذب العراك على من يخيفها أولًا.

خوفها كان المحرك الرئيسي لتركها منزلها بعد محنتها تلك والقبول بالعيش في منزل باسل، ولولا استحالة العيش مع سلمى لما فكرت بالعودة لمنزلها مرة أخرى.

الهدوء يغلف المكان إلا من نباح الكلاب الذي يصل لأسماعها بين الحين والآخر، الهواء يحرك أعواد الذرة الطويلة القريبة من سياج المنزل فيزيد الخوف بقلبها بتلك الهمسات الصادرة من حفيف أوراقها. تخيلت بأن هناك موسيقي مرعبة مما

تسمعها في أفلام الرعب التي أدمنها حليم يومًا تتمايل عليها تلك الأعواد الرشيقة في سيمفونية مظلمة.

اكتفت بهذا القدر من الرعب النفسي فقررت الانسحاب، تحركت لتدخل إلى الغرفة لكن صوتًا هامسًا سمرها مكانها، كان الصوت منبعثًا من أسفل الشرفة تمامًا.

***

_ هل أحضرت ما طلبته؟ صوت غليظ لرجل يهمس.

.. لست أفهم ما سر تلك الورقة؟ لقد تعبت حتى وجدتها، هل تهمك إلى هذا الحد؟ صوت فتاة صغيرة تبدو على أعتاب الأنوثة.

ضحكة صاخبة ثم عاد الصوت الغليظ يقول:

_ ليست مهمة لي لكن هناك من يحتاجها.

سألت الفتاة بوجل:

.. هل ستعيدها لي مرة أخرى؟ أخشى أن يفتقدها والدي فيعلم أنني من أخذتها.

قال الرجل بلهجة مستفزة:

_ بالطبع سأفعل، سأنسخها فقط يا حبيبتي.

تهدج صوت الفتاة تسأله بفرحة:

.. هل تحبني حقًا يا حامد؟ لا تعلم مدى شوقي إليك، لم أتخيل أنك سوف تساومني على تلك الورقة اللعينة كي تصالحني.

عند هذا الحد قررت ليلة الانسحاب في صمت، فيبدو بأن هاذين العاشقين لا يعلمان أن البيت لم يعد شاغرًا، وهي لا تحب أن تظهر كالمتلصصة رغم اعتراضها على ما يفعلان؛ فالحب مكانه الضياء وبين أعين البشر، أما ما كان في الخفاء متسترًا بسرابيل الظلام فهو الخطيئة بحد ذاتها!

لكن هاجسًا ألح عليها فاقتربت على أطراف أصابعها من سور الشرفة تبغي تكوين فكرة عن مكان توقفهما أو شكليهما، فالصوت رغم الهمس به إلا أنها شعرته قريبًا جدًا من أسماعها.

تطلعت من سور الشرفة القصير بحذر تخشى أن ينتبها إليها، لكن العاشقين المنهمكين بتبادل

النظرات لم ينتبها لها بوقفتهما أسفل الشرفة تمامًا، احتارت أتصدر صوتًا ينبههما أن هناك شخصًا بالجوار فتردعهما عن التمادي، أم تدخل غرفتها وتدع الخلق للخالق؟!

كادت تنسحب بهدوء حين سمعت الفتاة تقول برعب:

.. ابتعد ماذا تفعل؟

عادت مرة أخرى للسور بحذر ومالت برأسها تستطلع ما يحدث فوجدت ذلك الضخم يقترب من الفتاة قائلًا بصوته الغليظ:

_ أفعل ما دعوتني لفعله منذ أن وافقتِ على مقابلتي في هذه الساعة وبهذا المكان.

قالت الفتاة وقد بدأ صوتها يعلو بذعر:

.. ماذا تقصد؟ لقد تأخرت حتى أتأكد من نوم والدي، تعرف أنه يتأخر بالنوم حين يكون لديه سفر لبيع المحصول، وأنت من ألح على الحصول على تلك الورقة في هذه الليلة!

لكن الرجل قال وقد أعمته رغباته:

_ نعم حصلت على مبتغاي من والدك وضمنت قطعة الأرض، فما المانع من حصولي على بعض المتعة معك أيضًا؟

صرخت الفتاة بذعر قائلة:

.. ابتعد عني، سأملأ الدنيا صراخًا إن وضعت يدك علي.

لكن الضخم هجم على بنيتها الضئيلة مقيدًا إياها قائلًا من بين أنفاسه الحيوانية المرتفعة:

_ اصرخي ما بدا لك فلن يسمعك أحد، أصحاب المنزل رحلوا بلا رجعة كما ستفعلين.

قاومت الفتاة بعنف تتلوى وتطلق صرخات مرتفعة عل أحدهم يسمعها، وقفت ليلة متجمدة مكانها وكأنها تحولت لصنم من أصنام الجاهلية لا تصدر صوتًا ولا تقوى على الحراك، لا تنفع ولا تضر وكأنها

انفصلت عن الواقع وتنظر من خلال لوح زجاجي شفاف.

مؤشر الخوف ارتفع داخلها وتعالى بينما دماء عروقها متجمدة كتجمد قطرات الماء في ديسمبر على الطرقات.

لا تعلم كيف تطور الوضع سوى بعد أن عادت إليها نفسها وهي تطلق صرخات ملتاعة بينما تسقط الفتاة أرضًا تحت ناظريها جثة هامدة.

حقيقة لا تعرف ما جرى وكأنها كانت بغيبوبة ثم عادت إلى الوعي لترى الفتاة تسيل الدماء من صدرها وقد انكفأت على وجهها أرضًا.

ارتفعت إليها عينان ذاهلتان ترمقانها برعب وتشتت وكأنها أخذت على حين غرة، كانت عينا الضخم تنظر لها بذهول سرعان ما تحول لغضب صاحب ظهر بصوته الغليظ المغتاظ:

_ ماذا تفعلين هنا؟ يبدو أن تلك الليلة لن تمر بخير.

أخيرًا تحركت قدما ليلة لتندفع إلى داخل الشقة تنهمر من عينيها الدموع بلا توقف، رعب وذعر وتخبط شخص رأى بعينيه جريمة قتل دون أن يلم بتفاصيلها وكيفية حدوثها.

ماذا تفعل؟..

سؤال صارخ ما برح رأسها ولا رد لديها عليه! فقد كانت مشلولة الأفكار تترنح بمكانها وكأنها على وشك السقوط أرضًا أو الانهيار، لابد أن ذلك الضخم لن يدعها بسلام لذا بدأت تفكر ببعض المنطق فأغلقت باب الشرفة بإحكام ثم هرعت إلى الهاتف الأرضي ورفعت السماعة لتجد أن الحرارة مقطوعة، عادت لتجمدها تفكر كيف

تتصرف لولا أن أخرجتها الطرقات العنيفة على باب المنزل، صرخت بخوف وانتفض جسدها وقد غارت الدماء من عروقها لكنها تحركت برعب قاتل تبحث عن هاتفها الشخصي حتى وجدته، طلبت رقم الشرطة وداخلها يقين أنهم لن يردوا عليها ولكن خاب أملها وهي تسمع صوت محدثها على الطرف

الآخر، اندفعت تتحدث بعصبية وما زالت دموعها تحفر سبيلًا لها على خدودها، استلزم الأمر عدة دقائق حتى ترتب جملة استغاثة مفيدة مفادها أن هناك جريمة قتل حدثت تحت شرفتها والقاتل علم أنها رأته وحتمًا سيتخلص منها.

حين أنهت المكالمة كانت الطرقات قد توقفت وصار صدى الصمت هو المسموع.

خيالها الخصب هيأ لها أن هناك من يحاول فتح الشرفة من الخارج لذا هرعت إلى خارج الغرفة وأوصدت بابها من الخارج وتركت بثقبه المفتاح ثم

انطلقت كالمجنونة نحو الحمام فأغلقته عليها من الداخل.

تعلم أن الشرطة ستأتي بعد فوات الأوان وأنها ستكون قد شبعت موتًا حين وصولهم.

تفكيرها المتعثر هداها أن تتصل بباسل تبلغه ما حدث حتى تضعه بالصورة إن حدث لها مكروهُ، أمسكت هاتفها الذي كانت بطاريته على وشك الموت مرة أخرى فطلبت رقم أخيها الأكبر الذي ما إن سمعت صوته حتى قالت من بين نشيجها:

_ سوف يقتلني إن لم تصل الشرطة.

صوت باسل على الطرف الآخر من المكالمة وصلها مفزوعًا:

.. من هذا؟ وعم تتحدثين؟

كادت تفقد الوعي لشدة رعبها بينما تخبره بتقطع ونحيبها يكتم صوتها فلا يكاد يسمعه بوضوح:

_ المجرم، لقد رأيته يقتلها تحت الشرفة فصرخت وقد علم أنني رأيته.

بالطبع لم يفهم باسل عن أي مجرم تتحدث لكن طبيعته المرهفة نحوها دفعته لأن يقول بقلق عارم:

.. اهدئي وأفهميني ما حدث، هل رأيت جريمة قتل؟

الدموع تتساقط لغزارتها على الأرض وكأنها أمطارًا تهطل بليلة شتوية كئيبة، صوتها المتحشرج أجابه بخفوت: _ نعم تحت الشرفة، إنه يحاول اقتحام الشقة.

سأل بذعر:

.. وأين أنت الآن؟ هل أبلغت الشرطة؟

قالت وصوتها يخفت كأنها على مشارف أزمة قلبية:

_ نعم لكنهم سيصلون بعد أن يقتلني كالمعتاد، أشعر أنه دخل إلى المنزل.

لكن صوت باسل المفزوع قال بعصبية:

.. ستصل الشرطة، ظلي معي على الهاتف حتى أصل إليك.

قالت بوهن:

_ نعم سأفعل. ثم أردفت بسوداوية: حتى تكون شاهدًا على مقتلي.

عنفها بغضب:

.. اصمتي لن يقتلك، ستصلك الشرطة بالحال.

كادت تجيبه حين صدر صوت مرتفع من باب غرفة النوم المواجه لباب الحمام وكأن هناك من يحاول أن يكسره أو يخلعه من مكانه فهمست برعب قائلة:

_ إنه هنا إنه هنا.

سأل باسل برعب فاق رعبها:

.. أين؟

همست بشهقات متتالية:

_ بغرفة نومي، سيقتلني يا باسل حتمًا سيفعل.

تعالى صوت الخبطات على باب غرفتها، ومع كل خبطة تصلها يدب الوهن في جسدها وكأن تلك الطرقة تضرب قلبها لا الباب حتى لم تعد بقادرة على سحب أنفاسها فسقطت أرضًا مغشيًا عليها وارتفع صوت باسل الصارخ:

.. ليلة أين أنت؟ ليلة!

***

الفصل الثاني

ربما في هذا اليوم ستكون المرة الأخيرة التي ترى فيها أولئك الذين تحبهم،

فلا تنتظر أكثر،

تصرف بسرعة لأن الغد قد لا يأتي.

جابريل جارسيا ماركيز.

أفاقت ليلة بعد مضي وقت لم تعرف مقداره، كانت الخبطات المرتفعة على باب غرفة النوم قد توقفت ورنين جرس الباب يدق بإصرار.

انتفضت من مكانها تدلك رأسها التي تؤلمها مكان سقطتها أرضًا، تطلعت حولها تطرف بجفنيها عدة مرات حتى تستوعب حقيقة ما يحدث معها.

عادت إليها ذاكرتها دفعة واحدة فانقبض قلبها بقوة وتصاعدت موجة الخوف التي تموج بعمقها إلى الذروة.

ألصقت أذنها بالباب تستمع بقلق إلى ما يدور خارجه علها تعرف إن كان ذلك القاتل قد نجح بدخول الشقة أم لا، لكن رنين الجرس عاد يدق بإلحاح فغمغمت بتوتر شابه الارتياح: لا بد أن الشرطة قد وصلت.

فتحت الباب بحذر ثم مدت رأسها خارجه تسترق

النظر نحو غرفة النوم لتجد أن بابها ما زال مغلقًا لذا فتحت الباب سريعًا ثم انطلقت نحو جهاز الاستجابة الداخلي (الانتركوم) لتعرف هوية الطارق فلم يجبها أحد، هتفت بقلق:

_ هل هناك من يطرق الباب؟

أتاها صوت أحدهم يسأل بتأفف:

.. أأنتِ من قدم بلاغًا عن وجود جريمة قتل؟

تنفست الصعداء وأسرعت لتجيب:

_ حمدًا لله أنتم هنا أخيرًا.

أتاها صوتًا مختلفًا يتحدث بلهجة آمرة:

.. افتحي الباب، نريدك أن تخبرينا بما حدث.

ضغطت زر فتح الباب الإلكتروني وأجابت بخوف:

_ لقد حاول القاتل أن يقتحم شقتي، كان يحاول خلع باب غرفة نومي.

أسرعت لتلف غطاء رأسها المتصل بإسدال الصلاة الذي كانت ترتديه لحسن حظها حينما كانت بالشرفة كي تخفي شعرها بينما تفتح باب الشقة وفي غمضة عين وجدت أمامها ذلك الضخم يقف وكأنه كان يهم بفتح باب الشقة.

صرخت برعب وحاولت دفع الباب بكلتا يديها لكنه كان أقوى منها ليمد يده فيدفعه بينما يضرب

بالسكين الذي بيده الأخرى عشوائيًا من خلال فرجة الباب فيمزق كتفها وتتدفق الدماء منه بغزارة.

صرخاتها الفزعة وترت رجال الشرطة بالأسفل فاندفعوا إلى الأعلى بقوة وحين أحس بهم ذلك الضخم دفعها بقوة فارتطمت بالأرض لكنه لم يأبه لها وانطلق نحو أقرب غرفة تطل على حديقة المنزل الخلفية ليدخلها ثم يغلق بابها خلفه. أما ليلة فقد كانت تصرخ بهستيريا دون توقف حتى بعد أن اندفع الرجال إلى شقتها وأكبرهم رتبة يسألها بغضب:

.. أين ذهب؟

أشارت بيدها برعب نحو الغرفة المغلقة ليقتحمها الرجال فيجدوا شرفتها مفتوحة على مصراعيها ولا أثر له بداخلها.

صرخ ضابط الشرطة برجاله أن يهرعوا للأسفل وينتشروا بحثًا عن الجاني ثم تقدم من ليلة الغارقة بالدماء التي تتدفق من ذراعها بغزارة، لا يعرف حجم جرحها لكنه تصرف بسرعة مهنية كي يوقف دفق الدماء فشق كم إسدالها ليربطه بعقدة قوية على ذراعها ثم يمسك هاتفه ليتصل بالإسعاف كي تحضر لتنقلها للمستشفى، فمن كمية الدماء علم أن الجرح نافذ وعميق رغم عدم خبرته الطبية.

طمأنها بأنها ستكون بخير وأنه سيهبط لمتابعة عمل الرجال بالأسفل حتى تحضر الاسعاف، استشعر ذعرها وخوفها المتدفق من روحها فتنقله له عيناها الواسعتان لذا أكد عليها بثقة أنها ستكون بأمان لأنه لن يرحل مع رجاله إلا بعد أن يمسك القاتل، ساعدها على التمدد على الأريكة الوثيرة بغرفة المعيشة ثم انسحب بقلق ليهبط للأسفل تاركًا تلك الغصة بقلبه تتسع لتحكم الخناق عليه.

هبط الرائد همام إلى الأسفل تاركًا ليلة المستلقية على فراشها بوهن تنتحب وقد شعرت بأنها حتمًا

ستموت، الخوف والفزع كفيلان بالقضاء عليها دون الحاجة لقاتل فعلي.

رن هاتفها الملقى بالردهة حيث سقط منها عند هجوم ذلك الضخم عليها لقتلها فتحاملت على نفسها ناهضة رغم ألمها لأنها خمنت أن المتصل باسل وحتمًا سيموت قلقًا عليها.

خرجت متتبعة صوت هاتفها حتى وجدته فمالت تلتقطه وقد آلمها جرح ذراعها بشكل مبالغ، علمت أنها تحتاج لمسكن يخفف ألمها فتناولت الهاتف تجيب الاتصال أثناء اتجاهها نحو الغرفة التي دخلها القاتل منذ قليل، فقد كانت تحتفظ بصيدليتها الطبية داخلها.

مررت إصبعها على الشاشة تجيب الاتصال الملح من أخيها باسل بصوت متألم، أجابت:

_ نعم أنا بخير.

تجمعت العبرات بعينيها منذرة بالسقوط وقد أتاها صوته الغاضب:

.. أين ذهبت؟ لقد أقلقتني عليك!

أجابت بتعب تتمالك نفسها كي لا تظهره كله:

_ لقد حضرت الشرطة فلا تقلق.

هدر بها بكل ما يعتمل بصدره من خوف عليها تحول إلى هياج:

.. كيف لا أقلق وأختي الوحيدة تخبرني أن هناك قاتلًا بشقتها ثم تختفي دونما مبرر؟!

كلمة وحيدة التي قالها مزقت قلبها إلى أشلاء، ذكرتها بما تحاول أن تنساه وأنها قد أصبحت الوحيدة بحياة باسل، فقد ذهب بلال بلا رجعة وأصبح مصابها جسيمًا، فقدت كل أمانها دفعة واحدة، رحل حب حياتها بنفس وقت رحيل كنفها الذي كانت تحتمي به من نوائب الحياة الغادرة، تقلصت بطنها على إثر تلك الذكرى التي طالما حاولت وأدها في ركن الذاكرة المهجورة لكن الزمن يأبى عليها النسيان، فلا يفتأ أن يتحد مع جسدها كي يذكراها بالألم القاتل الذي وخز قلبها وانتزع منها أغلى من تملك.

مسدت بطنها وقد عادت من شرودها على صوت باسل القلق مرة أخرى تغض النظر فلا تتطلع لمحتوى الغرفة التي كانت قد جهزتها بكل حب لقاطنها الذي رحل قبل أن يأتي:

.. أين أنت؟ هل أنت بخير؟

اتجهت نحو الشرفة بخطوات بطيئة مثقلة تجيبه بما يعتمل بنفسها من ألم:

_ لست بخير، أبدًا لن أكون.

قال بخوف بات جليًا في نبرات صوته:

.. أنا بطريقي إليك، كم أنت غبية وعنيدة! أخبرتك ألا تذهبي فصممت على الذهاب، ماذا أفعل معك؟

تنهدت بتعب، قالت من بين أسنانها وقد تنبهت لألم ذراعها الملح وبقعة الدماء التي تفترش الرباط الضاغط على مكان الجرح منذرةً بالنزف مجددًا:

_ حسنًا سأنتظرك، أعدك أن أسمع كلامك بالمرات المقبلة.

كانت قد دخلت الشرفة فدارت بعينيها بقلق تتابع بحث رجال الشرطة على إضاءة هواتفهم بين أعواد الذرة القريبة، يبدو أن نتيجة بحثهم صفر؛ فقد كان صوت ذلك الرائد الذي لا تعرف اسمه بعد مرتفعًا ينهرهم وقد تملك الغضب من صوته طالبًا منهم البحث مجددًا في الأرجاء، فلا بد أن الجثة بمكان ما.

سألها باسل وقد وصله صوت الرجال البعيد نسبيًا:

.. هل هم رجال الشرطة؟

أجابته بتوتر:

_ نعم، لا يبدو أن الوضع بخير، فلم يجدوا القاتل أو الجثة.

صمتت ثم تابعت بخوف:

_ لا أعلم أين اختفى ذلك الوغد!

صوته المنبعث من خلفها جمد الدماء بعروقها وهو يهمس في أذنها بصوته الأجش:

«كان بالغرفة طوال الوقت والأغبياء ابتلعوا خدعته فتركوكِ لمصابك؛ فسوف أتخلص منك للأبد، لا شهود على قيد الحياة هكذا قالت القاعدة.»

صرخة ضعيفة انطلقت مصحوبة بشهقة ذعر وقبل أن تستدير كان قد حملها إلى الأعلى بسرعة شديدة لتطلق صرخة مكتومة من فمها الذي كممته يده القوية قبل أن يلقيها خارج سور الشرفة فتسقط على الأرض بالأسفل بقوة.

ارتفع صراخ باسل مرة أخرى من الهاتف يناديها لكن هاتفها الذي سقط على أرض الشرفة أثناء صدمتها تم سحقه بقدم القاتل قبل أن يفر تحت أعين رجال الشرطة الغافلين.

***

«سيدي الرائد، لقد لمحت شيئًا يسقط من الشرفة.»

قالها الصول وليد متجهًا نحو المكان الذي لمح الجسم يسقط منه فتبعه الرائد همام قائلًا بقلق: لم أر شيئًا، دعنا نستطلع ماهيته.

اتجه الرائد ورجاله نحو أسفل الشرفة بخطوات مهرولة وحين وصولهم شهق الجميع بقوة، فقد كان أمامهم جسد ليلة متكومًا على الأرض في وضع يصعب التكهن بحياتها منه، صرخ الرائد بغيظ في رجاله: ذلك الحقير هنا، ابحثوا عنه أريده حيًا أو ميتًا.

ثم هرول تجاه ليلة متحسسًا نبضها ليصرخ برجاله مرة أخرى:

_ ما زالت على قيد الحياة، أحضروا الإسعاف سريعًا.

ما إن أمسك أحد رجاله هاتفه ليتصل بالإسعاف حتى لمح أضواء السيارة قادمة من بعيد، فقد أتت استجابة لاتصال الرائد بالمرة الأولى وكأن القدر يخط كلماته فيأبى أن ترحل مغبونة دون تدخل منه، أرسلت العناية الإلهية سيارة الإسعاف في تلك اللحظة الحرجة ليهرع نحوها رائد الشرطة وقد شعر بالذنب يتآكله ويحرق داخله كونه كان مسؤولًا عن تلك البريئة فتركها ليد ذلك القاتل يتخلص منها تحت أسماعهم وأبصارهم.

توقفت السيارة فترجل منها المسعفون على عجالة مهرولين نحو الجسد المسجي أمامهم أرضًا، فحصها الطبيب ليسأل بلهجة منذرة بالخطر:

.. هل سقطت من الأعلى؟

قالها رافعًا بصره يقيم المسافة بين الشرفة والأرض التي سقطت عليها ليلة والتي يبدو أن صدمة سقوطها قد خُففت بوجود كومة من الحطب اليابس تحت الشرفة التي سقطت عليها أولًا ثم تدحرجت على الأرض بعدها.

سؤاله كان عارضًا فلم ينتظر إجابة فعليه بل أشرف على نقل جسدها بحرص ليوضع على الحمالة وقد

بدا أن ظهرها قد تضرر من السقطة ثم اتجه المسعفون نحو المستشفى المركزي القريب.

أما رائد الشرطة فقد اتجه نحو رجاله ينتفض من شدة الغضب وقد اربد وجهه وتحولت ملامحه للوحة قاسية فارتفع صوته يطلب من رجاله تفتيش المكان شبرًا بشبر.

بعد ساعة من البحث المضني في أرجاء المنزل وداخله ثم خارجه ارتفع صراخ أحدهم قائلًا:

_ هلموا، لقد وجدت الجثة؟

اتجه الجميع نحوه بسرعة ليجدوا جسد الفتاة التي تم قتلها مخبأ أسفل كومة الحطب التي سقطت

عليها ليلة منذ قليل، إذ يبدو أن تلك الكومة كانت مقصد أجساد الضحايا في هذه الليلة الجامحة التي لن تنتهي على ما يبدو،

وكأنها ليلة من الجحيم.

***

في المستشفى هرع الأطباء لمعاينة ليلة على أسرع وجه فقد كانت حالتها لا تبشر بخير، عند معرفة ملابسات الواقعة ومعاينة حالتها الصحية وعلاماتها الحيوية طلب الأطباء من المسعفين نقلها لمستشفى أكبر من المستشفى المركزي، فقد كانت تعاني ارتجاجًا بالمخ وكسرًا بعظمة الفخذ ربما يؤدي لبتر رجلها لو ساء الوضع، فقد اخترقت العظمة البارزة وريدها الصافي وأدت إلى

تجمع دموي كبير بالداخل يحتاج لتدخل الأطباء تحت تجهيزات طبية لا تتوافر بالمستشفى الصغير.

ولأن الرائد همام أعطى رقم هاتفه للمسعفين بصفته قريبها لأن لا أحدًا من أهل ليلة كان بالجوار، فقد اضطر المسعف استجابة لأوامره المشددة أن يتصل به ليخبره أن المصابة سيتم تحويلها للمستشفى الرئيسي بالمحافظة.

تحركت الإسعاف سريعًا نحو المستشفى التي تقع على مسافة الساعة..

وهناك تم استقبال حالتها لإحالتها إلى غرفة عمليات الطوارئ تحت إشراف أطباء المخ والأعصاب، فحالتها لم تكن تبشر بالخير أبدًا.

***

في موقع الجريمة.

عج المكان بالحركة بين وجود وكيل النيابة ورجال الشرطة وانتظار الفريق الجنائي والطبيب الشرعي القادمين من المحافظة.

كان الرائد همام متوترًا لأقصى حد، فلا يعرف كيف يصل لأهل تلك المصابة التي ربما تفقد حياتها بسبب تقصيره، وها هي الضحية التي شهدت على

مقتلها تختبأ تحت كومة الحطب بعناية.

ذلك القاتل اهتم بإخفائها حتى يستطيع كسب الوقت لقتل ضحيته الأخرى، كان ذكاءً منه أن يفعل؛ فقد وصل لغايته بسهولة، وها هو قد فر تحت سمعهم وأبصارهم دون دليل على وجوده، حتى أنهم لم يأخذوا مواصفاته من السيدة التي شهدت الجريمة، دعا الله أن تنجو مما أصابها فضميره المهني والإنساني يؤلمه بشدة بسببها.

الفريق الجنائي القادم من المحافظة على وشك الوصول، اقتربت أضواء سيارة غريبة من موقع الأحداث فاعترض الصول وليد طريقها ظانًا منه أنها

تابعة للفريق الذي ينتظرونه لكنها كانت تقل سائقًا واحدًا فقط أشار له بيده ليترجل من السيارة، أما سائقها فلم يكن لينتظر أمرًا كهذا إذ أنه ترجل من السيارة بطريقة مفزعة وكأنه على وشك الانفجار.

قبل أن يسأله الصول وليد عن هويته سارع بتقديم نفسه قائلًا بتوتر: أنا الدكتور باسل أخو السيدة ليلة التي تقطن هنا، هل هي بخير؟

كان الرائد همام قد لمحه فتقدم منه بخطوات سريعة وقد التقطت أذنيه آخر جملة قالها، اقترب شاعرًا بالغضب المتزايد وقد وجد أن عليه إخبار ذلك الأخ بوجود أخته في المستشفى وقد لا تنجو لأن الشرطة لم تستطع حمايتها.

تجاوز الشرح قائلًا باقتضاب: الرائد همام المسؤول عن القضية.

مد باسل رأسه متجاوزًا إياه يبحث بعينيه بالخلفية عله يرى أخته أو ما يطمئنه عليها وحين فشلت مساعيه عاد يتطلع للرائد بتوتر متسائلًا: أين ليلة؟

سأله الرائد مستفهمًا للتأكيد: السيدة التي اتصلت بنا؟

أجابه باسل: نعم أختي التي تقطن هنا؟

تطلع الصول بالرائد في توتر قبل أن يتطوع قائلًا: في المستشفى.

فزع باسل فسأل بتوتر متزايد وقد شعر أن أذنيه تطنان: ماذا حدث لها؟ هل هي بخير؟

تنحنح الرائد ليجيب بقلق: لقد سقطت من الشرفة على الأرض، لا أعلم حالتها الطبية بدقة لكن يبدو أنها ليست بخير، فلقد تم تحويلها بالإسعاف إلى المستشفى الرئيسي بالمحافظة و..

قاطعه باسل بحركة فجائية من جذعه وكأنها انتفاضة شديدة وقد التمعت عيناه بغضب: كيف سقطت؟

رد الصول سريعًا: لقد ألقاها المجرم حين كنا نبحث عنه.

لم ينبس الرائد ببنت شفة بينما وجم باسل يدير عينيه بينهما بذعر قبل أن يقول بغضب: إذًا كنتم هنا ولم تستطيعوا حمايتها؟! لن أسامحكم أبدًا، حسبي الله فيكم، الشرطة عديمة المسؤولية دائمًا.

شعر الصول بالغضب فتقدم من باسل ليردعه عن قول المزيد لكن الرائد مد يده ممسكًا إياه بينما يغمز له ليتراجع، ففي قرارة نفسه التي تشعر بالذنب علم أن تلك الكلمات خرجت من قلب أخ محترق بالخوف من فقدان أخته، فليقل ما يشاء؛ ففي لحظات الفقد لا يملك المرء مشاعره أو ما يتلفظ به وعلينا أن نتحمل المتضرر بل ونغفر له،

وهو العليم بذلك أكثر من أي شخص؛ فذات يوم مر بموقف مشابه وقد كان مصابه عظيمًا.

أما باسل فقد استدار على عقبيه سريعًا يركب سيارته لينطلق بها مطلقًا زوبعة من التراب خلفه في طريقه إلى المستشفى، قلبه لم يكن يضرب بانتظام بل كان يقرع بضربات عنيفة تكاد تخلعه من صدره، فلن يحتمل رحيل فرد آخر بالعائلة، وإن حدث فسوف يكون هذا هو الرحيل الأخير وسينكسر بسببه للأبد.

***

في المستشفى الرئيسي.

(المريضة ما زالت تنزف يا دكتور)

هتف بها الطبيب الأصغر سنًا بغرفة العمليات بينما يحاول إيقاف النزيف المتدفق من قطع بالشريان الفخذي بفخذ المريضة، العرق يتصبب على جبينه بكثافة تشي بتوتره وقلقه أثناء محاولته إيقاف النزيف بانتظار الطبيب حسن الاستشاري ليشرف على العملية بنفسه.

كان الدكتور حسن قد أنهى اجراءات تعقيمه ليهرع إلى طاولة العمليات التي ترقد عليها المريضة الشاحبة التي تبدو بحالة سيئة جدًا.

صرخ بالطاقم المحيط أن يطلبوا تجهيز كيسين من الدم ثم أسرع للسيطرة على دفق الدم النازف، فحالة المريضة التي أمامه تخبره أنها تحتاج لجهد أكبر من المعتاد، حيث يقف طبيب العظام بانتظار طبيب الأوعية الدموية لإصلاح الشريان أولًا حتى يستطيع التدخل لإصلاح عظمة الفخذ المكسورة.

(ستحتاج لوقت طويل حتى تستطيع العودة لممارسة حياتها الطبيعة، وليعلم الله عدد الأشهر التي تحتاجها المريضة كي تعود لطبيعتها، هذا إن نجت الليلة!) هذا ما كان يفكر به الدكتور حسن وقد نجح أخيرًا في إيقاف النزيف لكن فرحته لم تكتمل، فما إن توقف النزيف حتى انطلقت صافرة جهاز

مراقبة العلامات الحيوية للمريضة معلنًا اختلالًا بضربات القلب، الجلبة التي حدثت بالغرفة وترت الجميع، فبين صراخ طبيب التخدير وحركة التمريض المتوترة أفسح الدكتور حسن مكانه ليستطيع الطبيب الأخر إنقاذ المريضة التي يبدو أن قلبها بطريقه إلى التوقف، فلم يستجب لمحاولة الانقاذ اليدوية التي يجريها طبيب التخدير!

ارتفع صياحه قائلًا بتوتر: ليحضر أحدكم جهاز الصدمات، سنفقد المريضة الآن!

أصبحت غرفة العمليات أشبه بخلية النحل وقد تحرك كل في مهمته الموكلة إليه، تفصد جبين طبيب التخدير عرقًا محاولًا بكل جهده إعادة المريضة إلى الحياة.

لكن قلبها على ما يبدو قد ناء بأحماله حتى استلذ الرحيل.

***

الفصل الثالث

يعيش الإنسان كاتمًا بقلبه ثلاثة أرباع خيباته،

حزنه ويأسه وبؤسه..

وينفجر إذا وقعت قهوته من يده.

مقتبس.

بعد مرور ما يربو عن الساعتين كان الفريق القادم من المحافظة إلى موقع الجريمة قد وصل أخيرًا وباشروا بعملهم، تأفف الرائد همام بضيق وقد شعر أن طاقته قد استنزفت، فالفجر قد اقترب ولا يريد أن يطلع النهار فيتجمهر الناس حول الموقع بلا داع.

أخذ يحث الرجال على رفع البصمات عن كل الأماكن المحتملة بأن القاتل قد لمسها، مقابض الأبواب وسور الشرفة الحديدي والهاتف المسحوق أرضًا بالشرفة.

المكان يعج بالحركة وجثة الفتاة المطعونة بقلبها تم لفها استعدادًا لترحيلها إلى المشرحة، أراد الانتهاء من كل تلك المهمات قبل أن يعود إلى مركز الشرطة مرة أخرى فربما حينها يجد بلاغًا يخبره بهوية الفتاة القتيلة.

اقترب منه أحد رجال البحث الجنائي قائلًا وعلى وجهه ارتسمت معالم حيرة دفعت الرائد همام للانتباه: كما تعلم فقد وجدنا سلاح الجريمة بالأعلى

حيث سقطت السيدة أرضًا بردهة شقتها ولا بد أنه فقده أثناء فراره، أما البصمات المرفوعة من المنزل فتتبع غالبًا نفس الشخص حامل السلاح وليست بالكثيرة، بالكاد هناك بصمة أو اثنتان، لكن..

قالها ثم صمت فاستحثه الرائد همام باهتمام: لكن ماذا؟

تابع الرجل متعجبًا: هناك شيء محير، فالتربة بخلفية المنزل تبدو وكأنها نبشت حديثًا ثم أعيد فرشها.

لم يفهم الرائد تلميحه فسأل: ما المغزى؟

تنحنح الرجل قائلًا: وكأن أحدهم حفرها لسبب ما ثم ردمها مرة أخرى بعدة أماكن متفرقة ومتجاورة.

عقد الرائد حاجبيه متسائلًا: تقصد أن هناك من حفرها بغرض دفن شيءٍ بها؟

لكن الرجل هز رأسه سلبًا ليكمل: أو ربما دفن أجسادٍ أخرى، المنطقة مهجورة ويمكن استخدامها بحرية كبيرة لأي شخص.

توتر الرائد "همام" قائلًا: هل تظن أن هناك جثثًا أخرى بالمكان؟!

لوح الرجل قائلًا بخبرة: كل شيء جائز، سآمر الرجال بالحفر في تلك الأماكن التي تم حفرها وردمها علنّا نجد إجابات.

أشار الرائد همام له معطيًا إياه الإذن بالحفر واتجه نحو المكان ليباشر عملية الحفر بنفسه، إذ يبدو أن الليلة تصر على ابتلاع ما تبقى من جهدهم في تتبع خيوط خفية.

***

وصل باسل المستشفى بعد أن كاد يتسبب لنفسه بحادث على الطريق بسبب قيادته المتهورة، فالغضب والقلق يعميانه عن القيادة السليمة.

دخل بسرعة إلى استقبال المستشفى ليسأل عن ليلة لكن لم يفده أحد، صرخ بغضب بأحد العاملين كي يخبره أين المريضة التي قدمت مع سيارة الاسعاف لكن العامل لم يستطع اخباره سوى بأن

يتجه إلى قسم الطوارئ، فهناك حيث يتم استقبال الحالات القادمة مع سيارات الاسعاف.

لم يتأخر باسل فهرع نحو المكان، سأل الممرضة المسؤولة فأخبرته بلا مبالاة أن المريضة تم تحويلها لغرفة العمليات وكأنها معتادة على إجابة ذلك السؤال دائمًا حتى أصابها السأم والركود.

أبرز باسل هويته الطبية مخبرًا إياها بأنه طبيب جراحة ويحتاج أن يطمئن على حالها. أبدت اهتمامًا مرحبًا ثم أخبرته بأن يصعد لغرفة العمليات بالدور الثاني حيث يمكنه الاستفسار عن حالتها، فقد حضرت منذ فترة ليست بالطويلة.

لم يكذب خبرًا بينما يندفع في أروقة المستشفى خافتة الإضاءة قديمة الهيكلة يتملكه شعوران،

شعور بالغضب إزاء ما حدث لها وشعور بالمسؤولية والخوف أن يفقدها.

ما إن وصل إلى الباب المؤدي إلى غرفة العمليات حتى اعترضته الممرضة مخبرة إياه بأن دخوله غير مسموح به، لكنه اعترض بقلق مخبرًا إياها بأنه طبيب ويحتاج إلى الاطمئنان على حالة المريضة لأنها أخته الوحيدة.

رغم تعاطف الممرضة معه إلا أنها قالت بأسى: لو أستطيع المساعدة ما كنت سأتأخر عن تقديمها، لكن قوانين المستشفى تمنع دخول الغرباء إلى غرفة العمليات، لذا يمكنك الراحة والانتظار ها هنا (قالتها مشيرة نحو مقاعد الانتظار خارج غرفة العمليات) وسأخبرك بوضعها الآن.

ابتلع ريقه بتوتر ثم هز رأسه كالطفل الذي يتلقى أمرًا من والديه بالاطمئنان، كان يحتاج أن يتخلى عن مهنته كطبيب يتوقع الأسوأ، يحتاج لمن يمسك بيده ويهزها مخبرًا إياه أنها ستكون بخير، لم يعد ذلك الطبيب الذي يتعامل برباطة جأش مع حالاته ومرضاه، بل هو الآن باسل الأخ المكلوم الذي فقد أخيه الأوسط بيوم فقدت فيه أخته زوجها، ضربتان مؤلمتان لقلبيهما بآن واحد أوجعتهما بالصميم، الفرق بينه وبين ليلة أنها ما زالت لم تتعاف من وجع الضربة التي نالتها، بالأخص حين نالت الضربة القاتلة بعد موت حليم وبلال بعدة أشهر قليلة، فقد كانت تلك القشة التي قسمت ظهر البعير.

أخرجه من شروده ظهور الممرضة ممتقعة الوجه، ورغم ذلك أخبرته بتأكيد أن ليلة بخير لكنها ستتأخر حتى تخرج فحالتها تبدو صعبة المعالجة.

سألها وقد استنفرت كل عروقه من فرط الخوف: أخبريني عن وضعها؟

ابتلعت ريقها ثم مالت تهمس وكأنه من غير المسموح لها إخباره حقيقة وضعها: حقيقة وضعها لا يبشر بخير، هناك كسر أعلى عظمة الفخذ بالناحية اليسرى نتج عنه جرح بالشريان الفخذي مما أدى لنزيف شديد وتكوين تجمع دموي كبير ثم..

همست بصوت أكثر انخفاضًا: كان قلبها قد توقف لكن الطبيب نجح بإعادتها للحياة، واحتاجت لنقل دمٍ لأنها نزفت كثيرًا.

عادت ليعلو صوتها بمستواه الطبيعي قائلة: الطبيب يطلب منك أن تتوجه لبنك الدم لترى إن كانت فصيلة دمك على قائمة الاحتياج أم لا.

لكنه كان لاهيًا عما تقوله وقد توقف عقله عند كلمة واحدة لا غير (قد توقف قلبها) هل سيفقدها؟ هل ستموت كما مات بلال؟

همس بذعر وقد تغضن جبينه وتهدلت كتفاه وكأنه يحمل أطنانًا وأثقالًا من الهم والبؤس: لا ليست هي، لن تموت، أخبريني بأنها لن تموت!

أشفقت الممرضة عليه من ملامح الذعر التي حفرت بصماتها على وجهه، قالت بتعاطف: لن تموت بإذن الله، فالطبيب حسن يتولى حالتها بنفسه وهو من أكفأ الأطباء لدينا، عليك بالدعاء لها حتى تخرج إليك مرة أخرى بخير.

بدأت العبرات تتجمع بمقلتيه لشدة صدمته، فلم يكن يتخيل بأنه سيفقد أخويه الاثنين بنفس العام، أخفض بصره إلى الأرض وهو يتمتم بصوت خافت مداريًا انهزامه: يارب نجها مما أصابها فأنا أحتاجها جواري، لا تفقدني إياها يا إلهي فلن تبق لي حياة.

***

وقف حامد أمام شخص نحيل البنية أصلع الرأس يرتدي روبًا فوق منامته وقال بصوته الغليظ بثقة:

_ لا تقلق يا رئيس، صدقني لا دليل يشير إليك، لقد تصاعد الموقف لكني تكفلت به.

لكن الرجل النحيل نهض من خلف مقعده قائلًا بغضب:

.. أخبرني مرة أخرى ما حدث، فليس من المنطقي أن تؤرق نومي بهذه الساعة المتأخرة لتخبرني بتلك الثقة الزائفة أن كل الأمور بخير!

توتر الضخم وقد علم أنه إن أخبر رئيسه بأنه حاول اغتصاب الفتاة فسوف ينتهي الأمر بمقتله، قال بمواربة:

_ تعرف المجهود الذي بذلته لإمالة الفتاة نحوي وجعلها تثق بي؟ خاصمتها منذ عدة أيام رافضًا محادثتها وحين شعرت بقرب انهيارها أقنعتها أن تقابلني بذلك المكان الذي تعرفه بجوار المنزل المهجور، أتت بسذاجتها تريد حبًا لكنها تراجعت عن إعطائي ورقة حيازة الأرض التي نحتاجها مخبرة إياي بأن والدها سيقتلها إن علم ما فعلته، وعندما حاولت انتزاعها منها مهددًا لها بسكيني اندفعت نحوي تهاجمني فقتلتها بطريق الخطأ، وما إن فعلت حتى ارتفع صراخ صاحبة البيت والتي لم أكن أعلم بوجودها؛ فأنت تعلم أن البيت صار مهجورًا منذ أشهر بعيدة بعد موت صاحبه.

صرخ به هذا الذي يدعوه بالرئيس بغضب:

.. أنت أحمق، لطالما كنت أتوقع أن تفسد الأمر بسبب تهورك وشغفك المزري بالقتل، أخبرتك ألا مزيد من الدماء، لا نريد وجود الشرطة خلفنا، كان يمكنك أخذ الورقة من الفتاة دون قتلها.

قاطعه حامد بتوتر:

_ كانت ستشي بي على أية حال، فلقد هددتني بذلك.

هدر به رئيسه بغضب:

.. كان بإمكانك الاختفاء لبعض الوقت ولم تكن ستجرؤ على إخبار أحد عن علاقتها بك، لكنك

كالعادة تفسد الأمور بتهورك وتبجحك، لقد سئمت منك.

خاف حامد حين فهم معنى العبارة الأخيرة التي نطقها النحيل فتوسل قائلًا:

_ لقد حصلت لك على الورقة التي تحاول امتلاكها منذ أمد ولن يستطيع ذلك الوالد المأفون أن يقترب منها مرة أخرى، تعرف أنني أستطيع تنفيذ كل ما يصعب تنفيذه وكل هذا لأجل العمل، لا تغضب أرجوك وأعدك ألا أتصرف دون الرجوع إليك مرة أخرى، سامحني فسوف أختفي لبعض الوقت حتى تهدأ الأمور.

أشار له الرجل الأصلع النحيل بيده قائلًا بغضب:

.. إذًا فلتغرب عن وجهي الآن، لا أريد رؤيتك مرة أخرى حتى أرسل إليك، اختف عن الأنظار ولا تتواصل معي أبدًا.

اندفع للخارج دون إبطاء لا يصدق أن رئيسه سامحه بتلك البساطة، أما الرئيس فقد رفع هاتفه إلى أذنه بعد أن طلب رقمًا ما، ما إن سمع صوت محدثه حتى قال بنبرة محترمة يشوبها الغضب الذي يعصف به:

.. لا بد أن يخرج حامد من الصفوف فلقد أفسد الأمر.

استمع لمحدثه للحظات وقد برقت عيناه ثم أومأ برأسه مؤكدًا:

.. نعم سأفعل سيدي وهو كذلك.

أنهى المكالمة وقد التمعت عيناه بشر هامسًا لنفسه:

.. وها قد انتهى أمر آخر، يبدو أن الأمور بطريقها إلى الأسوأ مرة أخرى.

قالها متذكرًا ذلك الحادث المدبر منذ عدة أشهر حين خرجت الأمور عن السيطرة فاضطروا للتخلص من ذلك المبتز والذي أوشك أن يكون الشوكة التي تخز ظهورهم، وعلى ما يبدو أن وقت التخلص من حامد قد آن.

زفر متضايقًا قبل أن يرفع هاتفه مرة أخرى إلى أذنه طالبًا رقمًا لا تتم مكالمته إلا في المواقف المتأزمة، وبكلمات مقتضبة تحدث: "حامد مهمات" _لقبه الذي يطلق عليه من قبل زملاء عمله_ هو هدفك

الآن، لا أثر كالمعتاد، حادثٌ قضاءٌ وقدرٌ سيكون كفيلًا بإصلاح كل الأمور.

أنهى المكالمة وعاد لاسترخائه يعيد حساباته مرة أخرى بما جد من

أمور، يبدو أن تلك المهنة صارت خطرًا داهمًا يهدد بالنهايات.

***

وقف الرائد همام يتطلع إلى الحفر التي تم نبشها بصدمة، فقد كانت هناك ثلاثة أماكن تحوي رفاتًا بشرية ملفوفة بأقمشة بيضاء من هيئتها وحجمها تبين أنها جثثًا لأطفال.

صدمة قاتلة تلبسته وقبضة موجعة التفت حول قلبه لتصيبه في مقتل.

من فعل ذلك؟

لماذا هؤلاء الأطفال هنا؟

هل صاحبة المنزل متورطة في مقتل هؤلاء الأطفال؟

وما هو السبب؟

كلها أسئلة دارت بعقله دون أن يحصل على إجابات شافية تريح قلبه وتشفي تلك الغصة العالقة به، فمرأى هؤلاء الملائكة ذكره بذلك الملاك الذي كان يومًا ابنه.

نفس قطعة القماش البيضاء التي احتوت جسده وأشفقت عليه من صراعه مع الحياة البائسة التي عاشها في عامه الأخير.

الفارق كان وجود ابنه بمكان يعلمه الجميع، مقابر العائلة.

أما هؤلاء! فمن هم؟ أين ذويهم؟

« حضرة الرائد أحدثك منذ قليل ولا تجيبني، هل أنت بخير؟»

أخرجه من دائرة جموده وصدمة مشاعره سؤال الفني له، نظر له بغضب يفتك بداخله، ذلك الغضب الذي لم يبرأ منه بعد بل صار أعنف من ذي قبل، سأل بجفاء: ماذا تريد؟

أجابه الرجل بإحراج: كنت أسأل ما هي الخطوة القادمة؟

نظر الرائد حوله وقد انتابه العجز لثوانٍ بسيطة قبل أن يستعيد تركيزه، خرج صوته حازمًا آمرًا: المعتاد، صوروا الموقع والأكفان، ابحثوا عن أي شيء يشير لهوية هؤلاء الأطفال، أريد من مصلحة الطب الشرعي أن تستعجل النتائج بأي طريقة، فأمامنا ثلاثة أطفال مع الفتاة المقتولة يشكلون لغزًا عصيًا على الفهم، أريد أن أقبض على ذلك الحقير الذي فر تحت أسماعنا وأبصارنا بأي ثمن.

أسرع الرجل لتنفيذ ما قاله الرائد الذي سمح لنفسه الآن أن يجلس على مقدمة السيارة وقد احتوى وجهه بكفيه في مشهد يبكي القلب، إذ يبدو

أن أعصابه المرهقة لم تعد تحتمل منظر رفع الجثث لمعاينتها قبل إرسالها لمكتب الطب الشرعي، لا لن يفعل ذلك أبدًا، ليس الآن ولا فيما بعد، فالموت أصبح عدوًا له

منذ أن انتزع منه أغلى من يملك، وهل يملك الإنسان أغلى من فلذة كبده؟!

***

الفصل الرابع

كيف أشفق على الذي يبدد ألمه في الشكاية والتظلم

فلا يبقى منه ما يستدعي الشفقة؟

كل شفقتي تتجه إليك أنت،

الذي لا تشكو مع أن ألمك صامت لا حد له ولا نهاية.

مي زيادة.

بعد مرور عدة ساعات ظل فيهم باسل يدور كالأسد الحبيس رأى جسد أخته يخرج على سرير نقل المرضى المتحرك يدفعها ممرضان ويلحقها الطبيب بملامح منقبضة، انتابه الهلع واتجه نحوهم

بخطوات أقرب للعدو، سأل بخوف وقد اعتصر الألم قلبه: أين تذهبون بها، هل هي بخير؟

أجابه الطبيب باقتضاب: سيتم وضعها بالعناية المركزة حتى تستقر حالتها.

ثم صمت وتطلع بباسل وكأنه يستفهم عن علاقته بالمريضة فمد باسل يده مصافحًا بتوتر: أنا دكتور باسل أخوها، أريد معرفة وضعها الطبي بدقة.

كان الطبيب متجهم الوجه منعقد الحاجبين وكأنه يهم بإسماع "باسل" ما لا يروق له، لكنه عاد واكتفى بالقول باقتضاب: سأطلعك على حالتها ما إن تستقر بالعناية المركزة.

قالها ثم استأنف السير غير مكترث بوضع أخيها الخائف حد الموت، هو الآن أخ يخاف أن يفقد أخته الوحيدة لا طبيب يتعامل بحيادية مع مرضاه، ما أقساه من شعور حين يوضع المرء بموضع طالما رأه رأي العين لكنه لم يمس شغاف قلبه أو تتمحور حوله حياته، شتان بين هذا الشعور وذاك!

سار يبتهل بوجل وعيناه متعلقتان بوجهها المكدوم أما قلبه فيحوم فوق سريرها بقلق وكأنه يتمنى انتهاء تلك اللحظات العصيبة على خير.

ما إن وصلوا إلى غرفة العناية المركزة حتى أشار له الطبيب بالانتظار خارجها بينما تحرك على عجل نحو الداخل، يعلم "باسل" أن الوضع يبدو على غير ما يرام، ظل يراقب الحركة السريعة بالداخل من

خلف زجاج الغرفة العريض، يراهم ينقلونها بحرص على سرير بأقصى ركن الغرفة ثم يوصلون الأجهزة بها، علم أن هناك مشكلة بالتنفس من وجود ذلك الجهاز القابع جوارها وكل الخراطيم التي تدخل وتخرج من جسدها، فقط لو يطمئنونه على حالها، يبدو كالعاجز التائه الذي لا حول له ولا قوة.

أسند رأسه على الزجاج البارد كأنه يستمد منه بعض البرودة كي تهدأ روحه المشتعلة، يتابعها وقلبه ينتفض كالمحموم في ليلة باردة، لن يتحمل فقدها، يكفيه فقد بلال في ظروف وملابسات غير واضحة، قفز إلى ذاكرته تلك الأيام العصيبة حين أتاه خطاب القنصلية بإيطاليا تخبره بأن هناك

متوفي يحمل اسم بلال محمد النجار، حينها لم يصدق، بلال أخيه الأوسط مات! كيف حدث هذا؟

أتاه الرد بكل أسف أنه تعرض لحادث بالسيارة التي كان يؤجرها مع صديق آخر باسم عبد الحليم نادر عبد الإله، همس لنفسه بعدم تصديق: وأيضًا "حليم"، يارب رحمتك.

أخبرته القنصلية أن السيارة تدمرت كليًا براكبيها ولم يعد من الممكن التعرف عليهما سوى من أوراقهما الثبوتية التي كانا يحملاها، وانتهت الحكاية بدفنهما كشخصين بلا وطن بأرض غريبة.

وجع ما بعده وجع وفراق ليس بعده لقاء! حتى حين ماتا لم يتركا ما يبقي ذكراهما في الوطن سوى تلك الذكريات القابعة بذاكرة أحبائهما، تنهد بحرقة قائلًا: يارب ليس لي سواها، لا تقتل ما تبقى بقلبي من حياة بفقدانها، أرجوك لن أتحمل رحيلها فهي كل عائلتي المتبقية.

ظل يهمس ويبتهل حتى رأى الطبيب الذي كان يصاحبها حين خروجها من غرفة العمليات يتجه للخروج من غرفة العناية المركزة، هرع نحوه وقد تعلقت عيناه به كطفل ينتظر أن تطمئنه أمه، أشفق الطبيب عليه وهو يرى ملامح الهلع والعجز ترسم ملامحه فتنهد بقلق ثم قال:

_ ستظل هنا حتى تتحسن حالتها، تعاني من كسر بعظمة الفخذ التي اخترقت وريدها وأدت إلى نزيف داخلي فاحتاجت نقل كيسين من الدم إليها، هناك أيضًا شرخ بسيط بالعمود الفقري لحسن الحظ، تعرضت لتوقف عضلة القلب أثناء الجراحة وبحمد الله تم استردادها مرة أخرى، هناك مضاعفات بالتنفس لذا ستظل على جهاز التنفس الصناعي ربما لليلة أو ليلتين، لذا نبقيها بغيبوبة اصطناعية حتى تتحسن حالتها، أنت طبيب كما أخبرتني وبالطبع تعرف تلك الإجراءات.

أومأ "باسل" بصعوبة مبتلعًا ريقه بأسى، للأسف هو طبيب ويعلم أفضل من غيره أنه قد يفقدها بأي

لحظة، لم يجد ما ينطق به فقد خانه الكلام ورحل وترك له الحسرة وخفقان القلب باضطراب. هز رأسه وقد تكسرت الكلمات على شفتيه فتفهم الطبيب خوفه وربت على كتفه مؤازرًا قائلًا:

_ ادع لها فقط، لا شيء بأيدينا سوى الانتظار والدعاء.

تحرك نحو أقرب مقعد فجلس عليه هاتفًا من داخل أعماقه بحرقة: يارب.

***

في منزلها بالعاصمة جلست "سلمى" على الأريكة الوثيرة بغرفة المعيشة تمسك هاتفها بين كفيها وتضمهما إلى صدرها الذي يخفق بعنف، فقد أنهت منذ قليل مكالمة مع زوجها باسل الذي أخبرها

بوضع أخته الجديد، ورغم قسوتها ومعاملتها السخيفة لليلة إلا أنها توجعت داخليًا مما حدث، فهي بالأخير إنسانة تشعر ولها قلب لم يغطه السواد بعد. نعم لم تحب "ليلة" أبدًا بتلك الطريقة التي يحبها "باسل" لأخته لكن لا مجال هنا للشماتة، ربما شعورها بالغيرة من "ليلة" كان السبب خلف تصرفاتها السخيفة التي حاوطتها بها، فهي مدللة العائلة جميعها أو ما كانت العائلة بيوم من الأيام، شردت بذهنها وقد انقبض قلبها، فحين تزوجت باسل منذ عشرة أعوام كانت والدته متوفية ووالده يعيش بمنزل العائلة في تلك المدينة الصغيرة بالمحافظة، أما باسل فقد كان

يقضي وقته بالترحال بين مدينته والعاصمة حيث يدرس الماجيستير ويعمل، ثم استقر به الأمر بالزواج والإقامة بالعاصمة، وحين توفي والده منذ خمس سنوات كان يريد العودة للإقامة بمدينته كي يظل قرب أخته وأخيه، أخته المدللة التي تصغره بدستة كاملة من الأعوام، كانت بالثالثة والعشرين من عمرها بينما بلال بالسادسة والعشرين، أما هو فكان قد تخطى لتوه الخامسة والثلاثين، قامت الحرب بينها وبين "باسل" لرفضها العودة إلى مدينته الإقليمية وترك العاصمة، ومنذ ذلك الوقت وقلبها يحمل بعض الضغائن تجاه ليلة، فغريزتها الأنثوية أشعرتها أن موقع "ليلة" من قلب أخيها يسبق موضعها بقلبه،

ولا توجد أنثى بالدنيا تحب أن تكون بالمركز الثاني، لم تحسبها من منظور آخر غير ذلك رغم أنه لا وجه للمقارنة؛ فمكانتها كزوجة بقلب زوجها حتمًا تختلف عن مقام أخته. لم يزحزح "باسل" عن موقفه من العودة إلى بلدته إلا خطبة ليلة لحليم وتنقلها طوال فترة الخطبة بين بيت والدها حيث تقيم مع بلال ومنزل أخيها بالعاصمة للتسوق لتحضيرات الزفاف، لكن "سلمى" لم تفهم أن "ليلة" كانت تعلم بنية باسل للعودة إلى منزل العائلة والمشاكل التي ترتبت على قراره ذاك بينه وبين زوجته، تغافلت وتحاملت على روحها وقلبها واتخذت قرارها بالتنقل بين المكانين بسبيل ألا تخرب علاقة أخيها بزوجته وتشتيت طفليهما جود

ذات الخامسة وجواد ذي العام الواحد من عمرهما حينها.

منذ ذلك الوقت وهي لا تحب ليلة بل تتعمد معاملتها بقسوة واستفزاز ورغم ذلك لم تشتكي منها أبدًا لأخيها، حتى بعدما حدث لها قبيل عدة أشهر حين فقدت كل من تملك، زوجها وأخيها بنفس اليوم. وعندما حاولت أن تبرأ من مصابها وتهون على نفسها بأن تهتم بجنينها حتى موعد مجيئه إلى الدنيا فقدته، لا لم يكن جنينها فقط بالنسبة إليها، بل كان ذلك الأمل الذي تتشبث به كي تكمل ما تبقى لها من العمر وهي التي ذاقت الأمرين كي تحصل عليه.

كانت تسمعها تحدثه كل ليلة في خلوتها، تبكيه رحيل والده وتبثه آلام روحها التي لم تجرؤ على التحدث بها لأحد، فأمامهم جميعًا كانت صامدة تكتفي بالصمت وكأنها إن تحدثت ستفقد سلطانها على نفسها فتنهار، ثم أتاها المخاض بيوم لم تكن تتوقعه، كانت بأواخر شهرها الثامن من الحمل حين قرر الجنين المسكين أن يتخلص من عبء الحياة في الدنيا يتيمًا دون سند أو ظهر، لم يستطع الأطباء إنقاذ جنينها حتى بعد أن أدخلوها الطوارئ لعملية قيصرية، فالجنين قد ابتلع ماء رحمها وكأنه نوى الخلاص دون أن يثنيه أحد عن قرار رحيله، وباءت محاولات الأطباء لإنقاذه بالفشل، فشل في إنقاذ الجنين وإنقاذ الأمل في قلب "ليلة" المفتت

إلى حطام نجم عنه انهيارها وبقائها بالمستشفى ليالٍ عدة تعاني انهيارًا نفسيًا حادًا.

ثم خرجت إلى منزل أخيها تعاني متلازمة الفقد، فقد الشغف بكل شيء وأي شيء.

أولاها "باسل" جُل اهتمامه ورعايته حتى أنه ترك العمل لأسبوع كامل وظل يواليها بالمنزل طوال تلك الفترة، لم يشفع ذلك كله عند سلمى لليلة، فهي تغار منها ومن تدليل "باسل" لها، نعم زوجها لم يتأخر عنها يومًا لكنه كان مشغولًا على الدوام، أما مع ليلة فقد كان يستطيع خلق الوقت حتى لو على حساب راحته لإسعادها.

زفرت في ضيق من أفكارها تلك واستغفرت الله، فالوقت ليس مناسبًا لتتذكر كل أحقادها على أخت

زوجها التي تصغرها بثمانية أعوام كاملة، أنبت نفسها أن "ليلة" تحتاج أن تترك الغيرة منها وأن تدعو لها عل الله ينجيها مما هي فيه، نهضت بخجل من نفسها ومن أفكارها الغير منطقية بالغيرة من طفلة مثل "ليلة" فتوضأت ثم توجهت نحو المصلى الخاص الذي أنشأته "ليلة" لنفسها بغرفة النوم الصغيرة التي كانت تقيم بها أثناء وجودها معهم، صلت ركعتين ابتهالًا لله أن ينجيها مما هي فيه، وهناك شعرت بالسكينة والاطمئنان، فقد كان كل ما تستطيع فعله لأجل الصغيرة أن تصلي في محرابها علها تبرأ مما ألم بها.

***

في مركز الشرطة

قرب الظهيرة جلس الرائد "همام" على مقعده يحتسي فنجان قهوته العشرين بتوتر بينما يتصفح بتأنٍ بلاغات الفقد التي وصلته من المراكز المجاورة عله يجد ما يفيد بحثه عن هوية الأطفال وهوية الفتاة.

أما الأطفال فقد كان من الصعب أن يصل لملامح اثنين منهما بينما الثالثة فيبدو أنها قد تم دفنها حديثًا إذ كانت ملامح وجهها ما تزال واضحة، الاثنان الآخر ان تآكل جلدهما ولحمهما وبرزت عظامهما دليلًا على مرور زمن منذ دفنهما، لذا فلا أمل يرجى بتعرف هوياتهما وبات الأمل معقودًا على جسد الصغيرة التي جاورتهما بوقت قريب، الصداع يقتله

لكنه لا يستطيع التراجع، تلك القضية أصابت أعماقه برجفة مخيفة جعلته يتمنى كشف سرها سريعًا حتى يرتاح، وأي راحة تأتي بعد رؤية هؤلاء الصغار وقد دفنوا فيما يشبه المقابر الجماعية!

كان قد رفع الأمر للقيادة يبلغهم بما وجده وما إن هل الصباح إلا وقد وصل الأمر لسكان البلدة فأصبحت الاشاعات تلوكها ألسنتهم بطريقة فجة متهمين السيدة صاحبة البيت بأن لها يدًا فيما حدث، لكن الرائد همام كان يعلم بعضًا من الحقيقة، فتحرياته أثبتت أن المنزل كان مهجورًا لما يقرب الستة أشهر، أخبره حدسه أن تلك السيدة نحيلة القامة غير قادرة على التورط بمثل تلك الفعلة الشنعاء وأنها بريئة مما تلوكه الألسنة،

فالمعطيات وإبلاغها للشرطة بأنها رأت جريمة قتل كل ذلك يشير إلى جهلها بما يحدث في باحة منزلها الخلفية، ربما كانت ضحية مثلها مثل تلك الفتاة القتيلة وهؤلاء الأطفال المغدورين.

اقتحم وكيل النيابة "مروان" المكلف بالقضية مكتب الرائد على عجلة دون استئذان قائلًا بغيظ: لم يصلنا بلاغًا بشأن الفتاة بعد، الفحص الأولي للمشرحة يوضح أن الثلاثة جثث للأطفال تشير إلى كونهم فتاتين وصبي.

ثم مال نحوه متابعًا بغضب جم: لقد ذبحوا.

اتسعت عينا الرائد "همام" بصدمة مرددًا: ذبحوا؟!

أكد عليه "مروان" بالقول الصادم:

نعم من الأذن للأذن.

كتم "همام" أنفاسه وقد علا صدره واحتقن وجهه، سأل بغضب وتشوش: من الحقير الذي قد يرتكب فعلة مشينة كتلك؟

قلب "مروان" كفيه دلالة العجز وانقبضت ملامحه بغيظ، أكمل كلامه: المدينة بأكملها لا حديث لها سوى تلك المجزرة التي اكتشفت فجرًا عند ذلك البيت، للتو سمعتهم يقولون أن صاحب البيت متورط بتلك الجريمة، هل تعلم شيئًا عن مالك ذلك العقار؟

أجابه الرائد "همام" بامتعاض:

الطبيب الشرعي أخبرني أن تلك الجثث المدفونة لم يمض على دفنها سوى ثلاثة أو أربعة أشهر على

أكثر تقدير، مالك العقار مات منذ ما يقرب الستة أشهر وقد خلى منزله من زوجته منذ ذلك الحين لأنها كانت مقيمة مع أخيها، بالطبع تعرف أنها بالمستشفى وحالتها حرجة لأننا لم نستطع إنقاذها.

قالها وقد انقبض قلبه وذكرى ملامحها المشوشة تمر بذاكرته حينما كان يطمئنها بما لم يستطع تنفيذه لها أبدًا، فابتسم بسخرية مردفًا: بعد أن وعدتها أنها بأمان.

تطلع "مروان" بوجه "همام" بتعاطف، لم يكونا صديقين مقربين ولكن بينهما تلك الألفة التي تنشئها ليالي العمل المزدحمة وقضايا الموت التي تجمعهما سويًا منذ ما يزيد عن العام، واساه قائلًا:

لا عليك، لقد فعلت واجبك وزيادة، يكفي كشفك لتلك المجزرة.

تنهد "همام" بأسى وقد عادت عيناه تتطلع لشاشة جهاز الكمبيوتر خاصته قائلًا بغصة حزينة: والتي لا أعرف سببها بعد أو كيف أمسك طرف خيط لها!

اتجه وكيل النيابة للخارج بينما يقول بثقة: سنمسك طرف الخيط لا تقلق، ما هي إلا مسألة وقت لا أكثر.

نظر "همام" نحو الباب المغلق بعد رحيل وكيل النيابة مغمغمًا بضيق: أتعشم أن يحدث قبل أن يظهر لنا ضحايا آخرين.

عاد ليتابع عمله على شاشة حاسوبه دون أن يعلم أن عشمه لن يحدث أبدًا، فما كانت تلك سوى البداية.

***

على طرف فراشها جلست "ياسمين" تطالع صورة مؤطرة كانت تخفيها بين طيات ملابسها بخزانتها ولا تخرجها إلا حين يشتد الحنين بقلبها لصاحبها، نظرت له تناجيه بشوق يبعثر وجيب قلبها: لم أنسك بعد! كيف أستطيع فعلها وأنت قد رحلت دون وداع! رحلت ورحل قلبي معك فلم أستطع استرداده! دفن هناك بالغربة يواسي وحشة قبرك ويؤازرك بالليالي الحالكة التي تمر عليك! وآه لو أني استطعت العودة بجثمانك فأدفنه بين طيات قلبي

للأبد! أخبرني كيف أبرأ من حبك وأنا المريضة به منذ الأزل!

سمعت صوت والدتها يقترب من غرفتها منادية إياها فأجفلت ووضعت الصورة تحت الوسادة تخفيها، دموعها التي خانتها مسحتها بقوة فلا تريد لوالدتها أن تؤنبها مرة أخرى على البكاء على الأطلال كما تعودت أن تسمعها مؤخرًا، رحيل "بلال" عنها لم يترك لها سوى وحشة بقلبها وفراغًا هائلًا كثقب أسود كبير يبتلع مجرات القلب وأفلاك روحها فلا يبقي لها سوى الهشاشة والحطام، وبرغم ذلك لا تجرؤ على البوح بما يعتريها؛ فوالدتها قوية الشخصية ووالدها العصبي لن يسمحا لها بإهدار سنوات عمرها تبكي حبيبًا قد رحل ولا أمل

بعودته يومًا ما، لكن والدتها لم تنتبه لعينيها الحمراوتين وقد دخلت بتوتر قائلة لابنتها:

ألم تسمعي ما حدث؟

سألت "ياسمين" بقلق عما حدث فاندفعت والدتها تقول بخوف:

رحمتك يا رب، هناك عدة جثث بباحة المنزل الخلفية لأخت خطيبك. ثم استدركت بالقول: أقصد رحمه الله.

شهقت ياسمين بفزع لكن والدتها لم تترك لها الفرصة وقد استطردت مؤكدة بصوتها الهامس كأنها تخشى أن يسمعها أحد:

يقولون أن هناك مقبرة جماعية للجثث في ساحة المنزل الخلفية، كما يؤكد البعض أن هناك فتاة أخرى قد تم قتلها لكن لم يرها أحد حتى يعرف هويتها.

لم تنبس ياسمين ببنت شفة، غلف الصمت الأرجاء وقد تجمد تفكيرها وشل، مقبرة جماعية في مدينتهم الصغيرة! ما السبب؟ ولم توجد تلك المقبرة هنا وبمنزل "ليلة" دونًا عن غيرها؟

قفز برأسها اسم "ليلة"، لم تكن قد تحدثت معها منذ تلك الليلة قبل ثلاثة أشهر، فقد رفضت "ليلة" مقابلتها أو التحدث معها عندما ذهبت للمستشفى للاطمئنان عليها بعد احتجازها إثر

فقدها جنينها. سألت والدتها بجزع: هل علمت "ليلة" تلك الأخبار؟

اكتفت الأم بهز كتفيها قائلة بضيق:

لا أعلم، يقولون أنها متورطة بهذا.

صدمت ياسمين فقالت بغضب:

لا، ليست "ليلة" من تفعل ذلك فأنا أعرفها جيدًا.

أنبتها الأم قائلة بقوة:

وأنا لا أتهمها، أخبرك فقط بما يقال حتى لا تصدمي إن سمعتيه.

زفرت "ياسمين" بحنق قائلة:

خسئوا من اتهموها بما ليس من شيمها، "ليلة" لا تفعل مثل هذا، سأهاتفها لأطمئن عليها.

أمسكت هاتفها تتصل بها دون أن تعلم أن "ليلة" لن تجيبها أيضًا هذه المرة، فقد كانت بعالم آخر تصارع لأجل عمرها الذي لم ينقضي بعد.

***

همست بخوف: حليم ماذا تفعل هنا؟

لم يجبها، اكتفى بالوقوف حيث هو يرمقها بحزن وأسى، ظل لبعض الوقت لا تعلم كم طال فالوقت لا يشغل عقلها الآن، ربما الأشهر مثل السنين وربما الأيام تفوقهم طولًا! الظلام يحاوطها وروحها تهيم بلا انقطاع، ترى دوامات من ذكرياتها المختزنة أو ربما كانت أحلامًا تشتاقها ومنعها الواقع من الخوض بها.

أعادت الهمس لكن هذه المرة غلبها الشوق: حليم لماذا أتيت؟ هل اشتقت لي؟

الحنين بعينيه أسرها؛ فقد تعلمت على يديه أبجدية العشق، وتربت بمدرسته الأولى في أهازيج الغزل والاشتياق. كان أول من أسرها بكلامه الحنون وأشعاره التي كان يرتجلها لأجلها بكل مناسبة، كانت الحياة معه مفرحة بكل طريقة، فمنذ أن رأته حين ذهبت إلى الشركة الصغيرة التي يديرها بلال بشراكة مع صديقه حليم حتى سقطت في هواه، كتمت حبها خجلًا ولكنه أعلنه جهارًا للجميع وطلب ودها والأنس قربها، ولأن بلال يثق به فقد زكاه عند والدهما وتمت الخطبة التي طالت بعض الشيء بسبب وفاة والدها، ثم جمعهما

سقف واحد وفراش واحد وانصهر قلبيهما بقلب واحد، ولم يفرقهما سوى اغتيال الموت لأحلامهما سويًا.

تابعت بشوق غامر: أنا أيضًا أشتاقك، أريد أن أذهب معك، أرجوك لا تتركني هذه المرة! لم يعد لي ما أبقى لأجله، حتى ابننا ذهب، لم يحتمل رحيلك فأبى البقاء معي يؤنسني ورحل إثرك، أتعلم! لقد اسميته كما كنت تريد له، اسميته "ثائر" حتى بعد أن تركني، ربما لأنني أردت له حين يلقاك أن يكن له اسمًا أحببته.

لم ينطق، كانت تراه ينظر لها فقط دون أن يتحدث، أخذت تثرثر بما يعتمل في قلبها من حنين له حتى بدأت صورته تتشوش أمام عينيها فصرخت بغضب

منادية عليه ألا يرحل، التفت لها بحزن قبل أن يرحل بالفعل فأطلقت صرخة ملتاعة بثتها كل أوجاعها المكبوتة داخل فؤادها المذبوح.

صرخت الممرضة لاستدعاء الطبيب إثر ارتفاع صفير الأجهزة المرتبطة بجسد "ليلة" وكأنها شرايين الحياة، فهرع الطبيب لها محاولًا إنقاذها للمرة الثانية. وكأنها تصر على الرحيل دون هوادة، وكأن الطبيب كتب عليه أن يعيدها كل مرة، فهدأت واستكان قلبها وعاد ينبض بانكسار ما يكفيه كي يبقيها على قيد الحياة، غير عابئ بكونها جسدًا يحيا بلا روح أو حياة منذ بعض الوقت.

***

الفصل الخامس

ما أقسى أن يعيش الإنسان

فقط مع ما يعرف ويتذكر،

محرومًا مما يرجو ويتأمل!

ألبيير كامو

خلف الزجاج الشفاف وقف "باسل" يرقب بعينيه الجزعتين الحركة المتوترة داخل الغرفة دون أن يستطيع التكهن بما يحدث، لكن قلبه أنبأه أن وضع "ليلة" يتدهور مجددًا، فالطبيب يهرع نحوها والطاقم الطبي بالداخل التف حول سريرها قبل أن تقترب ممرضة فتسدل الستار على النافذة تمنعه من متابعة ما يحدث، ظل واقفًا جوار النافذة

ملتصقًا بها علّه يعرف ما يحدث بالداخل أو يرى بصيصًا يستكين قلبه به، لكن لا جدوى..

مضت نصف ساعة أو يزيد عندما عاد الستار ليرفع مرة أخرى ومن خلفه يرى الجميع وقد عادوا إلى أعمالهم المعتادة، طرق بعنف على النافذة يستجدي كلمة، كلمة واحدة فقط تسكن ضربات قلبه المتقافزة، رمقته الممرضة بنظرات متعاطفة ثم اتجهت للطبيب تتحدث معه بصوت لم يصله بالطبع من خلف النافذة ولم يستطع تفسير حركة شفاهها فرفع الطبيب رأسه ونظر نحو "باسل" الذي أشار بيده بمعنى أنه يريد الحديث معه.

تأفف الطبيب رغمًا عنه رغم معرفته أن ذلك المرابط ببسالة على نافذة الغرفة منذ وقت طويل طبيب رفض الرحيل دون الاطمئنان على أخته، شعر بالأسى تجاهه فتحرك ببطء نحو الباب وهرع "باسل" لملاقاته بلهفة، ما إن رأى الطبيب يقف أمامه حتى سأله بذعر عن حالة أخته المستكينة في ذلك الركن ترفض العودة لوعيها، لكن الطبيب لم يجد ما يطمئنه به، أجابه باقتضاب أن المريضة حالتها مستقرة الآن، عندما ألح عليه "باسل" بالسؤال أجابه الطبيب على مضض: المريضة تعرضت لتوقف آخر بعضلة القلب دونما سبب واضح، أتمنى أن يتحسن وضعها وأن تعود لوعيها مرة أخرى.

امتقع وجه "باسل" واصفر، شعر الطبيب المعالج بالأسى لحاله فقال مؤازرًا:

_ لا شيء بيدك لتفعله لها سوى الدعاء، وثق بأننا لن نألو جهدًا حتى تعود إليك.

لم يستطع "باسل" الكلام، اكتفى بهز رأسه في صمت واستسلام، عقب الطبيب الذي كان يراقب تعابير وجهه بتعاطف جم:

_ تحتاج لبعض الراحة، لن يفيدها وجودك بالوقت الراهن، يمكنك أن تذهب لمنزلك لتنال قسطًا من الراحة وتترك لي رقم هاتفك وسوف أحدثك إن جد جديد؛ فالوقت متأخر ولن تراها إلا بالصباح.

استدار باسل في صمت حتى عاد للمقعد فجلس عليه ثم وضع رأسه بين كفيه يدفنها فيهما بأسى، عقله متوقف وذهنه مشتت وكأنه سافر خلفها بلا عودة، رمقه الطبيب ثم عاد للغرفة مرة أخرى ليتابع عمله تاركًا إياه لوحدته وقسوة الواقع عليه، فليس بيده ما يؤازر به الأخ سوى الاهتمام بالمريضة علها تنجو.

جلس "باسل" دون أن يكف عقله عن الصراخ، كلام الطبيب معه يحمل كل المنطق، لكن قلبه يحثه على عدم الاستجابة، لا يريد الرحيل لمنزله رغم حاجته الملحة لذلك خوفًا أن تستيقظ بغيابه أو

على أسوأ تقدير أن ترحل بعدم وجوده، وحينها لا يعلم كيف سيكون حاله.

ثم حسم قراره، سيذهب إلى المنزل يبدل ملابسه ويعود، لن يتغيب سوى مقدار ما يطلبه الطريق منه، احتاج الابتعاد قليلًا عن المستشفى ليستعيد تركيزه وإيمانه بأنها ستعود له، ما إن تحرك بالسيارة بعد أن ترك رقم هاتفه للطبيب ليطمئن منه على أحوالها بغيابه حتى تصاعد رنين هاتفه، تناول هاتفه بصدمة يطالع الرقم الغير مسجل لديه، أجاب بخوف متسائلًا عن هوية المتصل فأتاه صوتًا خافتًا يخبره بأنه الرائد "همام"، التقط أنفاسه بوجل وقد هدأ وجيب قلبه أن الاتصال لا علاقة له بالمستشفى، أجاب بتوتر خلفته لحظات القلق

السابقة وأنساه أنه قد أعطى رقمه للرائد حين قابله لأول مرة عند منزل ليلة قبيل رحيله خلفها إلى المستشفى:

_ مرحبًا، كيف أستطيع خدمتك؟

تنحنح الرائد ليجلو صوته فقد شعر بالإحراج لاتصاله، قال بهدوء يغالب به إحراجه:

.. أردت الإطمئنان على صحة السيدة أختك.

تصاعد الغضب داخل "باسل" ليجيبه بحدة دفعته لها قسوة الساعات التي أمضاها في مراقبة أخته من خلف زجاج النافذة دون أن يستطيع الاقتراب منها أو البقاء جوارها:

_ أختي التي كادت أن تموت تحت سمعكم وأبصاركم، حالتها ليست بخير وأتمنى ألا ينالها أذىً وإلا سأقاضيكم جميعًا.

رد الرائد بصوت جهوري مبررًا:

.. كان قضاءً وقدرًا، فالقاتل قد خدع الجميع بهروبه ولا نعلم كيف عاد إلى الداخل مرة أخرى، كنت أريد أن أطمئن على حالتها وإن كانت تستطيع الإدلاء بأقوالها حتى نعرف شكل القاتل فنبحث عنه ونعيد لها حقها.

تنهد باسل بأسى قبل أن يجيب بقلب موجوع:

_ حالتها!! ادع لها أن تنجو مما هي به، فحالتها لا تبشر بالخير أبدًا.

ضاق صدر الرائد فأجاب بحزن:

.. أعدك أن أبذل كل جهدي كي ألقي القبض على ذلك الحقير، لك وعدي بذلك، تمنياتي لها بالشفاء العاجل، سوف أبقى على اتصال بك حتى أطمئن على حالتها.

انتهت المكالمة فاكتفى باسل بالقول بأسى لنفسه أنه يود أن يطمئن عليها قبلًا، ثم حينها فليطمئن الجميع بما فيهم ذلك الضابط.

***

حين انتهت المكالمة وضع الرائد همام هاتفه على المكتب مكتفيًا بالتحديق أمامه في شرود، تلك السيدة التي سقطت أمام عينيه أوجعت قلبه

للغاية وذكرته بتلك الليلة منذ عامين، التقط أنفاسه بصعوبة وقد طافت مشاهدها بذاكرته وكأنه لم ينسها قط، وكأنها حدثت منذ ليلة أو ليلتين وخلفت بداخله وجعًا لا يزول ومرارة باقية في حلقه لا تنتهي.

تذكر القضية التي تم تكليفه بها بالسعي خلف تاجر مخدرات حامت حوله الشبهات حتى استطاع إحكام قبضته عليه، لتنتهي القضية بفرار ذلك التاجر خارج البلاد قبل إصدار مذكرة تمنعه من السفر، وكأنه كان على علم مسبق بكل خطواتهم، فلاذ بالفرار في اللحظات الأخيرة تاركًا خلفه الشحنة التي كان من المفترض أن يستلمها لتسقط بأيدي رجال الشرطة،

لكن لم تنتهي القضية عند ذلك الحد بالنسبة لهمام، فحين أتته المكالمة أثناء تواجده في مكتبه مساءً تحمل صوت زوجته تصرخ بألا يؤذوا ابنه حتى خرج يعدو بكل قوته من المكتب وهو يصرخ متوعدًا إياهم بالويل والثبور إن طالت أظافرهم شعرة من رأسيهما، قفز بسيارته لينهب بها الطريق نهبًا إلى منزله البعيد نسبيًا عن مقر عمله، لم يكن بيده سوى التضرع بالوصول في الوقت المناسب لكن لا تأتي أمانينا دومًا كما نشتهي، فأمامه كان باب الشقة في البناية السكنية الجديدة التي انتقل إليها مؤخرًا مفتوحًا على مصراعيه، وبداخل غرفة نومه وعلى فراشه ترقد زوجته مضرجة بالدماء التي

تفترش الفراش حولها وكأنها إطار يحاوط جسدها النازف، اقترب منها صارخًا بفزع يهزها فوجد أن الروح لم تفارقها بعد، همست من بين أنفاسها المنقطعة بضعف:

.. أنقذ حازم، لقد رحلوا به.

هرع خارج الغرفة يفحص الشقة ليتأكد من كلام زوجته لكنه لم يجد أثرًا لابنه، الصغير كان قد اختفى دون أثر، فقط تلك الرسالة التي تركت بغرفته مكتوبة بخط غير يدوي «ستجد ابنك حين نريد لك إيجاده، لا تبحث عنه كثيرًا، استمتع بشحنة المخدرات التي حصلت عليها فربما تعوضك غيابهما من حياتك.»

انقلبت الداخلية بحثًا عن الصغير الذي لم يتعد

السادسة من عمره، كاد أن يفقد الأمل بالعثور عليه بعد مضي ليلتين على اختفائه ورحيل زوجته التي لم يستطع إنقاذها بعد أن فاضت روحها إلى بارئها متأثرة بجرحها الغائر في بطنها، أما الصغير فقد وجدوه بأحد المستشفيات محتجزًا بعناية الأطفال بعد أن دخل بغيبوبة سكر جراء عدم حصوله على جرعته المطلوبة من الأنسولين خلال اليومين الذين تم خطفه بهما. ولم يعد الصغير من غيبوبته قط، رحل في صمت مستكينًا دون أن يعلمهم هوية الخاطفين أو ماذا كانوا يريدون من خطفه تحديدًا، ارتحل بعذاباته وآلامه وكسرة نفسه بعد أن اكتشفوا احتياجه للأنسولين كي يحيا مثل الأطفال

الآخرين لكن دون أن يستطيع تناول الحلوى والأطعمة التي يعشقها الأطفال، ولم يعرفوا أبدًا من الذي أحضره للمستشفى، فقد وجده الأطباء في استقبال الطوارئ على سرير الكشف دون وجود مرافق معه، إذ يبدو أن الخاطفين استغلوا ازدحام أسرة الطوارئ في تلك المستشفى الكبيرة كي يضعوه بهدوء ويرحلوا خفية.

ومنذ ذلك اليوم لم يبرأ همام أبدًا من وجعه، طلب نقله من المركز الذي كان يعمل به بالعاصمة ليأتي إلى تلك المنطقة الهادئة والتي كان يتوقع أن أكبر ما سيواجهه بها مجرد سرقات صغيرة يقوم بها بعض الأغبياء، أو فض مشاحنات ملاك الأراضي كالمعتاد، لم يتخيل قط أن تلاحقه جريمة قتل

وخطف الأطفال في تلك المنطقة البعيدة عن العاصمة، لذا فقد كان عليه أن يجمع شتات نفسه حتى يستعيد حقهم؛ هؤلاء الأطفال الصغار الذين كانوا ضحية لشيء مجهول لا يعلمه، وربما ما زال آباؤهم يمنون أنفسهم بعودتهم إلى أحضانهم لأنهم لم يعلموا بعد أن فلذات أكبادهم تم جز عنقهم بوحشية ثم دفنهم بمكان مجهول.

أغمض عينيه بقوة ثم استنشق أنفاسه عميقًا ليخرجها زفيرًا لاهبًا محرقًا محملًا بكل الكبوات التي نالها بحياته، وعاد ليستأنف عمله من جديد رغم تأخر الوقت، فهناك قضية غامضة بانتظار من يفك أحجيتها وألغازها.

***

صبيحة اليوم التالي وقفت السيدة "كاميليا" ترغي وتزبد في حنق بينما تعيد الاتصال للمرة الخامسة بهاتف "ورد" _الفتاة التي تأتي لتعاونها على تنظيف المنزل_ دون مجيب، تأففت بسخط منادية ابنتها "ياسمين" لتخبرها بأن تذهب لمنزل الحاج "علي" لتسأل عن تلك المراوغة الصغيرة وسبب تغيبها لأنها لا تجيب اتصالها منذ الصباح الباكر، قالت لها "ياسمين" المتأخرة على عملها بأحد الهيئات الإدارية المسؤولة عن تسجيل الوثائق "الشهر العقاري": اتصلي بوالدها يا أمي، ربما هاتفها معطل.

لكن الوالدة المتذمرة قالت بصرامة: بل مري على والدها حتى تخاف بعد ذلك فلا تكرر فعلتها، لو

كانت رجلي لا تؤلمني لذهبت إليه بنفسي ولأخبرته بأن فتاته الصغيرة تتهرب من عملها.

عقدت "ياسمين" حاجبيها بسخط مما تفعله والدتها، فالفتاة ليست مجبرة للعمل عندهم وإنما تأتي لملأ وقت فراغها ولتعين والدها على أمور حياته بعد وفاة والدتها وطلاقه لزوجته الثانية.

تنهدت "ياسمين" بيأس أن تقنع والدتها بعكس ما تطلبه منها، ولأنها متأخرة فقد قررت أن تمر عليه بطريقها كي تسكت والدتها الملحة ولكي تجنب الرجل زيارة والدتها المتسلطة له، تحركت لتلتقط حقيبتها اليدوية على عجالة فتعلقها على ذراعها وتلتقط كوب شايها الذي برد قليلًا فجرعته دفعة

واحدة ثم تحركت نحو الباب قائلة بسرعة: حسنًا يا أمي سأمر عليه، هل تحتاجين شيئًا آخر؟

أكدت الوالدة بتذمر ألا تتأخر عليها بالعودة فهزت "ياسمين" رأسها وهي تقذف قبلة بالهواء إليها ثم تخرج لتغلق الباب خلفها سريعًا.

منزل الحاج "علي" يقع بنهاية الطريق الذي تسلكه نحو عملها على أطراف المدينة الصغيرة ثم تليه المساحات الزراعية الشاسعة ومن الجهة الأخرى المقابر، لذا كان لابد لكي تذهب للحاج علي أن تمر على العمل أولًا لأن عملها يقع قبل نهاية الطريق، تأففت من تعنت والدتها التي تجبرها على قطع مسافة مضاعفة من الطريق سيرًا على الأقدام، ولأنها متأخرة على موعدها فقد خافت أن تتأخر

أكثر إن مرت عليه أولًا، قررت أن تصعد لمكتبها كي تثبت حضورها أولًا ثم تستأذن لتذهب لذلك المشوار الثقيل على قلبها، ما إن دلفت إلى العمل وأكدت حضورها حتى استأذنت سريعًا من رئيسها السيد "جلال" أنها سوف تحضر طلبًا من الأسفل وتعود سريعًا، ولأن السيد "جلال" كان يحترم "ياسمين" ويعتبرها موظفة مثالية فقد سمح لها بطيبة قلبه على شرط ألا تتأخر.

وصلت لبيت الحاج "علي" البسيط المكون من طابق واحد فوجدت الباب مغلقًا، طرقته عدة طرقات قبل أن يستجيب الحاج فيفتح الباب، لاحظت "ياسمين"

احمرار جفنيه وتغضن جبينه واللهفة المتقدة في عينيه والتي انطفأت ما إن رأى وجهها وكأنه كان يتوقع رؤية شخص آخر لا هي، تنحنحت بإحراج ثم قالت: مرحبًا عم "علي"، جئت إليك لأن والدتي أرسلتني كي أسأل عن "ورد"، فموعدها مع والدتي اليوم.

اصفر وجه الرجل وارتجفت شفته السفلى للحظة قبل أن يقول بصوت باهت ضعيف: أعتذر يا ابنتي فهي لن تستطيع الذهاب لكم اليوم.

قلقت "ياسمين" وخشيت أن تكون الفتاة مريضة فسألت بقلق: هل هي مريضة؟

اكتفى الرجل بطأطأة رأسه للأسفل قائلًا بأسى: نعم مريضة للغاية ولن تستطيع العمل هذه الأيام.

جزعت "ياسمين" فهتفت: أخبرني ما بها.

لكن الرجل أجابها بانكسار وكأنه لا يريد إخبارها بحقيقة مرض ابنته: لا أعلم سبب مرضها لكنها طريحة الفراش.

قالت له بتعاطف: دعني أراها وأطمئن عليها.

ردة فعل الرجل أصابتها بالحيرة إذ أنه اندفع بالقول الرافض بعنف: لا.

ثم وكأنه أحس بالخوف من ردة فعله المبالغ فيها فعاد يقول بهدوء يغلفه التوتر: أقصد أنها نائمة الآن.

انقبض قلب "ياسمين" لردة فعل الحاج "علي" لكنها آثرت الانسحاب بأدب فاعتذرت ورحلت عن بابه بإحراج، ما إن قطعت عدة خطوات حتى رأت إحدى الجارات تقف في فضول تراقب رحيلها، وما إن نظرت لها "ياسمين" بترقب حتى بادرتها السيدة قائلة بصوت خافت: معذرة يا ابنتي، لكن هل أخبرك الحاج "علي" مكان ابنته؟ فقد رأيتها راحلة بوقت متأخر أول الأمس.

هزت "ياسمين" رأسها نافية بوجل قبل أن تجيب تلك السيدة الفضولية باستفهام: أين رحلت؟

استطردت السيدة قائلة: لا أدري، كانت تتسلل

للخارج بعد عودة والدها بوقت طويل، ربما انتظرت نومه لتخرج، لا أعلم ما تفعله تلك الفتاة تحديدًا سوى إصرارها على إصابة والدها بالجنون.

ثم استدركت نفسها وقد تذكرت أنها تحدث فتاة غريبة لا تعرفها: المعذرة منك، لا أدري لماذا أحببت الثرثرة معك! ربما لأني قلقت عليها بالفعل، فالفتاة تعاني عدم الاتزان النفسي بسبب وجودها لوحدها لفترات طويلة، صدقيني أنا لا أحب التدخل فيما لا يعنيني ولولا أنني كنت فوق سطح منزلي أنشر الملابس لما رأيتها أثناء خروجها.

لوحت لها "ياسمين" بلطف قائلة: لا عليك يا سيدتي أنا أعرفها جيدًا، هي فتاة طيبة كسرتها

الدنيا منذ صغرها، شفاها الله وعافاها مما أصابها؛ فهي مريضة كما أخبرني والدها.

نظرة عين السيدة أخبرت "ياسمين" أنها لم تصدق قول الوالد لكنها اكتفت بالقول المبهم: هذا إن كانت بالمنزل، ربما يخفي عدم وجودها.

رمقتها "ياسمين" بامتعاض خفي ثم استأذنت منها واستدارت راحلة بطريقها إلى عملها مرة أخرى تفكر رغمًا عنها أن السيدة ربما كانت محقة وأن والدها يخفي أمر رحيلها لذا كانت ردة فعله مبالغًا بها، لكن إن رحلت الفتاة فأين ستذهب؟ علاقتها بأقاربها ليست على ما يرام كما كانت تشكو لها بعض الأوقات.

سطعت بذاكرتها إحدى المرات حين فاجأت الفتاة تتحدث هامسة بهاتفها داخل شرفة غرفتها أثناء وجودها بمنزلهم لتنظيفه مستغلة عدم وجود من يراقبها، وحين تفاجأت بوجود "ياسمين" تلعثمت وارتبكت قبل أن تقول بتوتر:

.. كنت أحدث أبي.

رمقتها "ياسمين" متظاهرة بتصديقها قبل أن توجه لها عدة ملاحظات بأسلوب لطيف عن أهمية أن تعتز الفتاة بنفسها وكرامتها دون إهدارها مع من لا يهتم بها حقًا، ولأن الفتاة كانت ساذجة أو بريئة فقد اندفعت مبررة دون أن تدرك أنها بذلك تفشي سرها:

لكن "حامد" يهتم بي حقًا، لقد وعدني أنه سوف يأتي لوالدي ما إن تتحسن ظروفه، فهو سمسار ويجني مبلغًا جيدًا بعمله.

اكتفت "ياسمين" بتوبيخها وإخبارها أن من يهتم بها حقًا فلن يكتفي بوعوده أو يدفعها لفعل ما لا يليق، بل سيطرق بابها ويفعل المستحيل ليظل قربها تمامًا كما فعل معها بلال.

تنهدت بحسرة مع تذكرها لبلال قبل أن يسطع اسم "حامد" الذي كانت تحدثه ورد بذاكرتها مشوشًا حسرتها ورغمًا عنها يجرها باتجاه تفكير تلك السيدة التي أخبرتها منذ قليل أن الفتاة هربت، عقدت حاجبيها بضيق موبخة نفسها على

ظنها السوء وأنبت حالها بالخفاء هامسة: ليتني سمعت منها ذلك اليوم، ربما لكنت ساعدتها بوقت تحتاج فيه لمن يستمع لها!

لم تكن تعلم أنها لو استمعت لها ذلك اليوم لجنبتها كارثة ستصيبها فيما بعد، ولكننا نضن بوقتنا عمن يحتاجه، ونصم آذاننا عن شكواهم، وتعمى أعيننا عن البؤس الذي يحيط بهم ثم نندم بعد فوات الآوان ونلوم أنفسنا ألو كنا نعلم الغيب لما تركناهم في العذاب الأليم!

***

الفصل السادس

الصبي الحساس الذي يشعر كثيرًا

ويعرف قليلًا هو أتعس المخلوقات

أمام وجه الشمس.

جبران خليل جبران.

عادت "ياسمين" إلى مقر العمل بذهن شارد تشعر بثقل في قلبها أكثر من المعتاد، فمنذ زيارتها لمنزل الحاج "علي" وهي تشعر بغصة في قلبها، وكأنها تلك القبضة المزعجة التي امتلكتها طوال اليوم المشؤوم قبل أن يصلها خبر رحيل "بلال" مساءً منذ عدة أشهر، اليوم تشتم تلك الرائحة مرة أخرى دون أن تدرك سببها، ربما حديث تلك السيدة الغريبة التي قابلتها صباحًا هو ما أشعرها بذلك، ربما عاد إلى ذهنها صورة "ورد" الصغيرة المتخبطة بمشاعر مراهقتها البريئة، سمعت صوت جارتها بالمكتب "حسناء" تتحدث مع الأخرى "ندى"

بصوت خافت ورغم ذلك اخترق أذنيها: لا أعلم ما حدث تحديدًا لكن أنت تعلمين، أخي "بدر" أخبرني للتو بعض الأمور الغريبة بخصوص ما حدث بالأمس، لقد وجدوا ثلاثة جثث مدفونة بالأرض الخلاء الواقعة خلف ذلك المنزل، وهذا بعد أن وجدوا جثة فتاة مجهولة الهوية، أخبرني أن الفتاة لم يصلهم بيانات بشأنها وأنها لم تكن تحمل هويتها أو ما يشير إلى نسبها، لكنها تبدو فتاة بسيطة في السابعة عشرة من عمرها، سوف يعممون نشرة بمواصفاتها اليوم حتى يعلمون من هي.

وجدت "ياسمين" نفسها مشدودة إلى الحوار فتدخلت دون إرادة منها متسائلة بلهفة: ألا تعلمين بعضًا من مواصفاتها المعممة؟

رفعت الفتاة كتفها دلالة عدم التركيز قائلة: لا لم يخبرني بها، ربما سأعرف إن سألته.

وجدت "ياسمين" نفسها مدفوعة بلهفة مستعطفة: هل يمكنك سؤاله؟

عقدت "ندى" حاجبيها بدهشة بينما سألت "حسناء" بحيرة: لم تريدين السؤال؟

أصاب الإحراج "ياسمين" فردت بخجل: لا أعرف سببًا، ربما هو الفضول فقط.

أمسكت "حسناء" هاتفها قائلة بثقة: يمكنني سؤاله، لا أجد ما يمنع هذا.

عم الصمت المكان ريثما تتصل بأخيها الذي ما إن سألته حتى بادر بإخبارها تفاصيل لا تهمها بشيء، أنهت المكالمة ثم رددت ما قاله لها بلا اكتراث: فتاة في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمرها، ترتدي ملابس سوداء، لها شامة (خال) كبيرة على خدها الأيمن، عسلية العينين وذات بشرة بيضاء.

أنهت الكلام ثم نظرت نحو "ياسمين" شاحبة المحيا بصدمة، سألتها بقلق: ياسمين ما بك؟

لكن "ياسمين" محتقنة الوجه اكتفت بالتلويح بيدها وحشرجة مخيفة تعتمل بصدرها وخافقها يضرب بعنف داخلها، نهضت مسرعة نحو الحمام لتستند بكفيها من الداخل على الباب المغلق تحاول التقاط أنفاسها المذبوحة، هذه المواصفات

لا شك بأنها تعرفها حق المعرفة وتعرف حاملتها بصفة شخصية لكن ما الحل؟ ما الذي يجب عليها فعله الآن؟ هل تذهب للشرطة لتخبرهم أنها تعرفها؟ هل ستتسبب بالأذى لنفسها إن ذهبت إلى مقر الشرطة بقدميها؟

وجدت أنها تدور وتدور بدوامات تسحبها إلى الأعماق ولم تكد تنتبه للوقت الذي مر حتى سمعت طرقات على باب الحمام تبعها صوت "ندى" القلق: "ياسمين" هل أنت بخير؟

التقطت "ياسمين" أنفاسها بصعوبة قبل أن تقول برباطة جأش: نعم نعم، سأخرج بالحال.

رشت بعض قطرات من الماء على وجهها تستعيد بعضًا من أنفاسها الذاهبة ثم خرجت قائلة بهدوء

مصطنع: معذرة، ما زالت سيرة الموت تضايقني كثيرًا.

ربتت "ندى" على كتفها بتعاطف قائلة : قلبي معك، أعتذر أننا لم ننتبه لهذا الموقف قبل أن نتحدث أنا وحسناء.

اكتفت "ياسمين" بتمتمة عدة عبارات لا معنى لها

ثم انسحبت عائدة إلى مكتبها مرة أخرى بين نظرات ندى وحسناء القلقتين متظاهرة بالهدوء، لكن داخلها كان يحترق بالتفكير والتوتر كبركان كان خاملًا واشتعل على حين غرة، فما سمعته منذ قليل أحرق أعصابها وأتلفها، وقرارها المتخذ بناءً على ذلك لا بد وأنه سيجلب لها المتاعب، لكن «ما

باليد حيلة.» هذا ما رددته بداخلها وقد بدأت ترتاح لما استقرت عليه.

***

قرب الظهيرة اقتحم الصول "وليد" مكتب الرائد "همام" قائلًا بسرعة: سيدي الرائد، لقد أتت نتيجة المعمل الجنائي الخاصة بالبصمات منذ قليل.

قالها مناولًا الرائد ورقة مطبوعة تطلع لها الرائد بتدقيق قبل أن يقول ووميض عينيه يزداد التماعًا: نعم هناك سجل بصمات لذلك الوغد، أريد أن تقلبوا الدنيا حتى تجدوه، وحينها لن يرحمه مني سوى أن أعرف منه كل الحقائق.

كانت البصمات التي تم رفعها من المنزل تتطابق مع بصمة لرجل يدعى "حامد شعبان" مسجل

خطر وله سجل جنائي يسيل له اللعاب، فبين حيازة السلاح والمشاجرات العديدة والاحتجاز بين أقسام الشرطة والسجون المركزية كان قد تردد اسمه مرارًا وتكرارًا ثم اختفى فجأة دون سابق إنذار منذ ما يقرب العامين، وكأنه اعتزل وتاب عن طريقه المشين وسلوكه المخزي، لكن قد كان للقدر رأيًا آخر في كشف الحقائق المستورة، إذ يبدو بأنه قد صعد مستوى أعماله لأكبر من تلك التفاهات التي ارتكبها في ماضيه، تبقى فقط أن يجده ثم يعرف منه كل ما خفي عنه.

رفع عينيه نحو "وليد" قائلًا بحزم: ابحثوا عنه بكل العناوين المحتملة التي نعرفها له، عمموا نشرة

بأوصافه بكل الأماكن، نريده الليلة هنا على أكثر تقدير.

صك الصول قدميه ببعضهما قائلًا بصوته الغليظ: أمرك يا سيدي.

ثم غادر الغرفة على عجل لتنفيذ أوامر الرائد الذي ضيق عينيه مغمغمًا بجزل: وها قد اقتربت قليلًا من ذلك الوغد، تبقى فقط أن أعرف الفتاة التي لم يخبرنا أحد بهويتها بعد.

قالها دون أن يعلم أن معرفة هويتها لن تفيده بالكثير، فهي مجرد ضحية سقطت تحت الأقدام الخاطئة في دوامة سعار الدنيا ونزيف الدم الذي يلتهي به الجميع.

***

تقدمت "ياسمين" بخطوات مترددة من مركز الشرطة، قدماها الرخويتان تكادان لا تحملاها من شدة الخوف، لكنها رغم ذلك استمرت بشجاعة وإقدام تحسدان عليهما، خاطبت العسكري على الباب قائلة بتوتر: أريد أن أبلغ عن شخص مفقود.

تأملها العسكري قائلًا باهتمام: هل هو قريبك؟

هزت رأسها سلبًا بتوتر: لا لكني أعرفها بصفة شخصية.

قال العسكري بتحذير: المركز بحالة انقلاب ولا يحتمل بلاغات وهمية يا آنستي.

لكنها قاطعته على عجلة: أظن.. أعتقد أنها ذات الفتاة المقتولة.

التمعت عينا العسكري قبل أن يترك مكانه لزميله قائلًا بقوة: ربما يمكنك مقابلة الرائد "همام" قبل رحيله، فهو المعني بتلك القضية.

سارت خلفه ودقات قلبها تعلو وترتفع حتى كادت أن تبلغ عنان السماء، النبض يطن في أذنيها فلا تعلم هل هذه الدقات الرتيبة من إيقاعه أم مجرد صوت يدور في خلفية المشهد الذي تراه أمامها والمركز يموج بحركة مجنونة لا تهدأ، وكأن هناك استنفارًا أمنيًا لا تعلم سببه يجري بالكواليس!

وصلت لمكتب الرائد فدخلت خلف العسكري بعد استئذانه لتقابل ذلك الشاب الذي يبدو أنه يمر بأحلك مواقف عمره، بدا متوترًا غاضبًا ولمعة عينيه

تشي بالقلق والتوتر، طالعها بنظراته الصامتة ينتظر أن تدلو بدلوها فتنحنحت بتوتر قائلة: هناك تلك

الفتاة التي تعمل أحيانًا معنا بالمنزل، لقد اختفت اليوم ولم تأت.

ظل على صمته يطالعها باهتمام فعلمت أنه شخص قليل الكلام يجيد الاستماع، وقد بدا هذا غريبًا لها عن فكرتها التي تحملها عن ضباط الشرطة لكنه أضفى عليها بعضًا من الهدوء كي تتحدث دون خوف: لقد علمت أن هناك فتاة تم قتلها بالأمس لها نفس مواصفات الفتاة التي أعرفها.

قاطعها الرائد بهدوء: من أين عرفتِ مواصفاتها؟

تلعثمت وارتبكت وكأنها لم تحسب حسابًا لذلك السؤال الذي ربما يورط أخ زميلتها فقالت باهتزاز: لا أعلم تحديدًا لكنهم أخبروني بعضًا من مواصفاتها فوجدت أنها قد تكون تلك الفتاة التي أعرفها لذا جئت على الفور دون إبطاء.

كانت تتفصد عرقًا وقد ازداد احتقان وجهها فبدت بشرتها القمحية مثل حبة الطماطم الحمراء التي أوشكت على الانفجار، خمن الرائد أنها تخفي هوية من أخبرها ولكنه كان يريد أي بصيص من الضوء على تلك الأحداث المعقدة فتظاهر بتصديقها هازًا رأسه باهتمام حاثًا إياها على الكلام: أخبريني من هي وكيف تعرفينها؟استجمعت نفسها والتقطت

أنفاسها المنسحبة بصعوبة قبل أن تعود للقول:

إنها تدعى "ورد" فتاة بالثامنة عشرة من عمرها، لم تأت اليوم لتنظيف الشقة مع الدتي فاضطررت للذهاب لمنزلهم حتى أسأل عنها لكن والدها أخبرني أنها مريضة وتلزم فراشها، لكن..

صمتت تبتلع ريقها قبل أن تكمل:

هناك من أخبرني بأنها رحلت مساء اليوم الذي تم قتل الفتاة الأخرى عند منزل ليلة وألمحت أنها قد هربت، لذا ربطت بين الفتاتين بالأخص ما إن علمت بعضًا من مواصفاتها التي ستعمم فتأكدت أنها ستكون نفس الفتاة، لذا سوف أخبركم بمكان منزل والدها، لكن رجاءً..

رفع الرائد عينيه نحوها يتابعها بصمت دقيق وقد خمن رجائها، أكملت بإحراج وقلق وقد خفضت عينيها البندقيتين للأسفل تبحث عن نقطة وهمية تركز عليها أبصارها هروبًا من نظرات الرائد المدققة: لا تخبروا أحدًا أنني من أخبرتكم، فسوف أتعرض للعديد من المشاكل إن حدث ذلك.

كان الرائد لا يهتم برجائها بقدر اهتمامه بمعرفة عنوان ذلك الأب الذي لم يبلغ عن اختفاء فتاته رغم مرور ليلتين، وقد حيره هذا بشدة وأصابه بالتشوش، لذا قاطعها بلهفة: العنوان لو سمحتِ.

أملته العنوان بسرعة وكانت على وشك الاستدارة والهرب من أمامه لكنه قال بحزم: وعنوانك أيضًا

ورقم هاتفك، لا تقلقي فلن أتسبب لك بالمتاعب ما لم تضطرني الظروف لذلك.

ارتبكت وازدادت حدة توترها لكنها خنعت وأعطتهم عنوانها ورقم هاتفها قبل أن تلوذ بالفرار، وكل ما يؤرقها هو معرفة والدتها أنها ذهبت لمركز الشرطة بمحض إرادتها، فستحيل حياتها جحيمًا لذلك السبب تحديدًا دون اكتراث أو اعتبار لأي سبب آخر.

خرجت بقلب مثقل وحزن طاغٍ يلفها ولكن ضميرها كان هادئًا حيال ما فعلته، فكل ما كان يهمها الآن أن تظهر الحقيقة وأن تنال تلك المسكينة حقها، فقسوة

الموت تجعل الأحياء يموتون ألف مرة وهم على قيد الحياة، وكأن الموت يختزل من أعمارهم ومساحات قلوبهم إلى النصف أو أقل من ذلك قليلًا.

*****

«المريضة استجابت جيدًا لفصل أجهزة التنفس»

قالها الطبيب الشاب مطمئنًا "باسل" الذي كان يبدو عليه الإرهاق أمام غرفة العناية المركزية بالمستشفى رغم أنه لم يعد إلا بوقت مبكر فجر اليوم فقد غلبه إرهاقه ونام نومًا متقطعًا بمنزله حين رحل بالمساء، ورغم ذلك كان يقف بكل انتباه وكأن حياته عادت إليه، شعر باختلاج قلبه بين جوانحه، أغمض عينيه ابتهالًا وتضرعًا ورهبة، عاد

ليفتحهما قائلًا بصوت خرج مهتزًا: هل عادت علاماتها الحيوية إلى طبيعتها؟

قال الطبيب الذي يبدو على عجلة من أمره: نعم كل أمورها بخير، سوف أدعك تراها لكن سريعًا، أنت تعلم أنه من غير المسموح بتواجدك بالداخل كثيرًا.

شكره "باسل" ثم هرع من فوره للدخول إلى الغرفة برهبة وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة، فصغيرته التي صلى من أجلها كثيرًا يبدو أن الله قد استجاب له وسوف تنجو، لا يعلم ما يجب عليه فعله كي يحتفظ بها بعيدًا عن أيدي الموت، يعلم أنه مهما فعل فلن يدرأ عنها ما كتب منذ الأزل وأنه لا يملك أن يدفع عنها قدرها الذي قدره الله لها، لكنه

بطبيعته المحبة لحمايتها لم يتخيل كيف يتحمل فقدها؛ تلك التي رباها وحملها بين ذراعيه وعلى ظهره في صغرها لن ترحل قبله، لن يحتملها أبدًا.

اتجه نحو فراشها المنعزل بأقصى ركن الغرفة بخطوات واهنة، مال يتطلع لوجنتها الشاحبة بخوف، مد يده يتلمسها بحزن واجم، همس بقلق لها جوار أذنها علها تسمعه: اسمعيني يا حبيبة القلب، لا ترحلي أبدًا، إياك أن تفعليها، فوالله لن أسامحك أو أسامح نفسي لأنني لم أنتبه لك أو أرعاك.

غلبه وجعه فغص بريقه وصمت وقد أطرق برأسه يستجمع شتات نفسه، أجفل حين حركت أصابعها تضغط كفه الموضوع عليها، رفع عينيه بذهول

يطالعها فوجدها ترفرف بجفنيها كأجنحة الفراشة قبل أن تفتحهما بوهن، ما إن رأته حتى ابتسمت وضغطت كفه مرة أخرى ثم همست بصوت خافت: عمر الشقي بقى، لن أتركك بمثل هذه السهولة.

لم يتمالك نفسه بينما الدموع تتراقص بعينيه ويلهج لسانه بالدعاء: حمدًا لله، حمدًا لله.

تنهدت ثم أغمضت عينيها بإعياء تشفق عليه بأكثر مما تشفق على حالها؛ فباسل" الذي تعرفه شاخ بالعمر عشرة أعوام إضافية حين رأته الآن، ولم يرضها هذا أبدًا. أشعرها بالحزن والألم وزادها سقمًا، ذكرها كم هي عبئًا عليه بهذه الأيام، فحياتها أصبحت ثقلًا على كاهله وموتها ربما لن يبرأ منه أبدًا.

لم تنتبه لتلك الدموع التي تنساب على وجنتيها بصمت إلا بعد أن وجدت راحته تمسحها بمحبة هامسًا في أذنها: لا تبكي يا حبيبتي! ستكون كل الأمور بخير، أعدك بذلك.

فتحت عينيها مرة أخرى تتأمل وجهه الحبيب قبل أن تهمس بارتياح: ما دمت جانبي فستكون بخير، أثق بك.

قالتها بألق وسعادة بالغة وكأنها أخيرًا حصلت على بعضٍ من سلامها النفسي المفقود.

***

تجمهر الناس حول الجسر الذي سقطت من عليه الدراجة النارية منذ قليل غائصة بأعماق المياه، تطوع أحدهم بالقفز خلفها منذ خمس دقائق كاملة

بحثًا عن راكبها الذي اختفى مع دراجته وكأن المياه شُقت أعماقها وابتلعته، عاد يظهر على السطح مرة أخرى قائلًا أنه يحتاج لمتطوعين آخرين معه فرفض الجمع قائلين أنهم لا يعرفون الغوص، عاد الرجل ليغوص مجددًا مرة أخرى ثم حين عاود الظهور هذه المرة كان يحمل جسدًا ضخمًا ولا يقو على السباحة به، مد البعض أيديهم لمساعدته على السباحة به نحو شاطئ النهر وفي هذه الأثناء كانت الشرطة قد وصلت نحو الجمع المتجمهر وتابعت محاولات إنقاذ ذلك الغريق.

حين حضرت الإسعاف بعد قليل لحمل الجثمان الذي يبدو بأنه فقد الحياة واتجهت نحو المستشفى، كان المتطوعون يدلون بأقوالهم

لضابط الشرطة عما حدث تحديدًا منذ ما يقرب الثلث ساعة.

كان الرجل صاحب الدراجة البخارية واقفًا قرب الجسر يستند على دراجته وكأنه بانتظار أحدهم وقد أخذ يعبث بهاتفه دون اكتراث في وقفته الخاملة، ثم ظهرت شاحنة كبيرة على نحو مفاجئ قرب الجسر لتنحرف بشكل عشوائي وكأن سائقها فقد السيطرة على مكابحها فتنزلق وتصطدم بالرجل الغافل ودراجته دافعة إياهما تجاه المياه، ثم سرعان ما سيطر السائق على سيارته فاعتدل بها وسارع بالفرار قبل أن يستطيع أحدٌ إيقافه؛ فقد هرع الجميع نحو الذي سقط بالماء ولم يحسبوا حسابًا لفرار المصطدم.

لكنهم جميعًا اتفقوا على مواصفات الشاحنة الحمراء التي تحمل اسمًا لشركة ما خاصة بالتجارة والاستيراد.

بعد استماع الشرطة لكل أقوال الشهود وتسجيل إفادتهم رحلت نحو المستشفى القريب لمتابعة حالة الغريق، وكما المتوقع كان قد فارق الحياة نتيجة دخول المياه لجهازه التنفسي فيما يعرف ب "اسفكسيا الغرق" لكن تقرير الطبيب الأولى أشار إلى وجود كسر بأضلع صدره أيضًا نتيجة اصطدام السيارة به وقد يكون هذا سبب عدم مقدرته على السباحة بعد سقوطه بالمياه، الحادث المأسوي كان مروعًا وخاصة أن القتيل من خارج المدينة، فأوراقه الثبوتية تثبت انتمائه لمحافظة بعيدة عن

مكان الحادث، ولا أحد يعرفه من الشهود أو رآه من قبل.

تبقى فقط تلك المهمة الثقيلة على قلب أي فرد يعمل بالشرطة، ألا وهي إخبار ذوي الموتى بخسارتهم، لكن مع ذلك القتيل تحديدًا فقد كانت خسارة ذويه رحمة لهم وسببًا آخر لشقاء من يبحث عن العدالة عن طريق إيجاده، فدومًا هناك من يصر على عرقلتها حين تخطط للسير بطريق مستقيم!

***

تلعثم الحاج "علي" ناظرًا للرائد "همام" قائلًا بتوتر:

نعم أنا الحاج علي الصياد!

أشار الرائد له بهدوء قائلًا: هل ابنتك تدعى ورد؟

توتر الرجل وتصبب العرق من جبينه قائلًا: نعم يا حضرة الرائد.

سأله الرائد بغتة: أين هي الآن؟

تهدج صوته وتفصد العرق من جبينه قبل أن يخفض بصره أرضًا ويسأل بخوف: هل عادت؟

تقدم الرائد سائلًا بصرامة: أين هي؟

تلفت الرجل حوله وكأنه يخشى أن يخبرهم بمصابه، تطلع خارج المنزل فوجد بعض الجيران يبدأون بالتجمهر ومتابعة ما يحدث فأشار للرائد أن يدخل المنزل مع رجاله قبل أن يسارع لإغلاق الباب قائلًا بلهفة: هل وصلتم إلى مكانها؟

احتار الرائد في قواه العقلية، فكيف يسألهم عن مكانها وهو لم يبلغهم باختفائها من الأساس، لذا نهره بسخط قائلًا: هل كانت مختفية؟

تلجلج الرجل ثم قال وقد احتقن وجهه: نعم، تركتني ورحلت دون أن تراعي مشاعري.

ثم على حين غرة انهار وسقط أرضًا يبكي ويولول مثل النساء في مشهد يجلب الحسرة إلى القلب، لم يفهم الرائد ما يحدث أمامه ولا أي من رجاله، تابعوه بعدم فهم وصدمة ثم اقترب منه الرائد بتعاطف

متسائلًا: لا نفهم حقيقة ما يحدث، هلا أخبرتنا حتى نفهم.

ظل الرجل يبكي قبل أن يتمالك نفسه بعد مرور عدة دقائق، قال من بين دموعه ونحيبه: لا أستحق منها ذلك، لم أكن استحق ذلك منها، فرفضي لزواجها منه كان لمصلحتها، أنا أحبها وأخاف عليها.

تطلع الرائد ورجاله لبعضهم البعض دون بصيص فهم واحد لكن الرجل استمر بالكلام وكأنه يهذي: لا أستحق أن تهرب وتتركني وكل ما تذكرت أن تخبرني إياه أنها لا تود مني البحث عنها، فقد تزوجت حبيبها رغمًا عني، هل هذا ما يستحقه أب وهب حياته لابنته الوحيدة بعد وفاة والدتها؟! هل

هذا ما يجب علي أن أعيش عمري ملاحقًا به؟ الخزي والعار؟! لماذا علي أن أعيش في العار؟

أنهضه الرائد "همام" بالقوة ناهرًا إياه بقوة: اهدأ يا حاج ودعنا نفهم المشكلة، فما زلت لا أفهم ما حدث.

كفكف الرجل دموعه بصعوبة قبل أن يشرع بالكلام قائلًا: ابنتي هربت لأني رفضت زواجها من ذلك الحقير الذي ملأ عقلها بالتفاهات، هربت وتزوجته رغمًا عني.

سأل الرائد باهتمام: وكيف تأكدت من هروبها؟

أمال الرجل رأسه أرضًا قبل أن يقول بصوت خافت: أرسلت لي رسالة على الهاتف قبل أن تغلق هاتفها منذ ليلتين.

فكر الرائد بقلق" هل يعقل ألا تكون هي نفس الفتاة؟" ثم ترجم سؤاله خارج نطاق تفكيره ليقول: هل تأكدت من هروبها؟ ألا يحتمل أن يكون هناك لبس بالأمر؟

لكن الرجل رفع هاتفه ففتحه ثم بحث لعدة ثواني قبل أن يناوله للرائد قائلًا بخزي: هذه رسالتها لي.

تناول الرائد الهاتف فقرأ الرسالة التي كانت بتاريخ ليلة قبل الأمس وبساعة متأخرة بعد منتصف الليل بوقت طويل «أعتذر منك يا أبي، لكنك وقفت بوجه سعادتي لذا اضطررت للهرب مع من اختاره القلب، وبحلول الصباح سنكون قد تزوجنا، لذا لا

تبحث عني حتى لا تجلب لنفسك الخزي، آسفة يا أبي.»

قرأ الرائد الرسالة مرتين قبل أن يرفع عينه نحو الأب المكلوم سائلًا إياه: من هو ذلك الشخص الذي هربت معه؟

أجاب الأب وقد عصف به الغضب إثر تذكره لذلك الحقير الذي حاول إمالة عقل ابنته: إنه سمسار أراضي يدعى "حامد" لا أعرف عنه سوى أنه نصاب.

قاطعه الرائد: هل تقدم لخطبتها؟

نفى الرجل قائلًا بغيظ: لم يفعل، ذلك الثعبان التف من خلف ظهري مستغلًا سذاجة ابنتي

وصغر عمرها، لقد اكتشفت ذلك بالصدفة حين سمعتها ذات ليلة تحادثه بوقت متأخر وحين حاصرتها أخبرتني أنه ينتظر الوقت المناسب كي يتقدم لخطبتها، بالطبع نهرتها وعاقبتها فوعدتني بأنها لن تحدثه مرة أخرى، لم أتخيل بأنها ما زالت متعلقة به فقد مر أكثر من شهر على تلك الحكاية.

كان الاسم قد مر بذاكرة الرائد محركًا حدسه البوليسي أنه نفس الشخص الذي يبحث عنه بضراوة سأل الرجل: هل تعرف ذلك المدعو "حامد"؟

هز الرجل رأسه إيجابًا بحسرة: نعم أعرفه، ذلك الحقير كان يريد مني بيعه قطعة أرض تخصني باستماتة مدعيًا أنها تلزم أحد الرجال الأثرياء كي

يقيم بها مزرعة للدواجن، وحين رفضت رفع السعر المعروض علي،

لكن كما تعلم يا سيدي الأرض غالية وهي كنز تعبت كثيرًا حتى أجمعه لذا لا أفرط بها بسهولة، ثم اكتشفت بعد ذلك بأن ابنتي تحبه وتريد الزواج منه، لا أعلم لماذا أنا دونًا عن أهل البلدة ما تحدث لي تلك المصائب؟!

«صفه لي.»

قالها الرائد فاندفع الرجل يصف السمسار بتلك الصورة التي رآها الرائد بملف المجرم ليتيقن أنه رجله المنشود وأن الفتاة ما هي إلا ضحية بريئة لم تهرب كما خيل لوالدها، علم الآن أنها ليست ضحية عشوائية وأن هناك لعبة من نوع ما تحاك لكن لا

جموح ليلة
شيماء جاد

سببها ولا أبعادها معروفتين له، اكتفى بأن ربت على كتف الحاج قبل أن يقول له بمواربة: ابنتك لم تهرب يا حاج، ابنتك راحت ضحية لذلك السمسار.

لم يفهم الرجل مغزى تلك العبارة فسأل بحيرة: أي ضحية؟!

لكن الرائد قال بمواساة: سنحتاج وجودك بالمركز يا حاج، وهناك سنطلب منك معاينة صور تلك الفتاة المقتولة منذ أول الأمس.

شهق الرجل ولطم رأسه صارخًا: هل قتلت ابنتي! كيف حدث هذا ولماذا؟! ليتها تصدق بالهرب ولا أراها ميتة أبدًا.

ظل يلطم بقوة على صدره ودموعه تغرق وجهه وسط نظرات التعاطف وعبارات الرثاء، فبرغم كونه رجلًا ضخم البنية إلا أن مصابه أفظع من كل العبارات التي تطلب تحليه بالجلد والصبر، وانسحب الرائد يحمل نفس الغصة بقلبه، فقد سبقه من قبل بذلك الإحساس الذي له طعم العلقم ولا يزول.

***

الفصل السابع

سلام لأرضٍ خلقت للسلام

وما رأت يومًا سلامًا!.

محمود درويش

انقضى النهار في متابعة التحريات الخاصة بالمدعو "حامد" فقد تتبعت قوة من الشرطة آثاره وقامت بزيارة كل الأماكن المحتملة لوجوده ولكنه اختفى بلا أثر وكأن الأرض انشقت وابتلعته، فمنزل أسرته الذي يقع بقرية صغيرة تابعة للمركز "مدينة صغيرة تابعة للمحافظة" تنكر له وكأنهم لا يعرفون شيئًا عنه البتة، والدته المسنة كانت ضريرة وقد رفضت رفضًا قاطعًا الإدلاء بأية معلومات تخصه، بل وأنكرت أنها رأته أو سمعت عنه منذ ما يقرب

الشهرين معللة ذلك بأنها غاضبة منه ولذا فقد طردته بلا رجعة، أما أخيه الأصغر فقد أكد كلام والدته مخبرًا إياهم بأنه هو من يعول الوالدة دون أية مساعدة من أخيه الذي كان يسلك طريقًا غير سوي في معيشته مما استوجب غضب والدته منه وطردها له بلا هوادة، لم تنجح مساعي الشرطة باستخلاص أية معلومات مفيدة تخص ذلك البلطجي، وحين كادت مساعيهم أن تكلل بالفشل تطوع أحد الجيران بإخبارهم أن ذلك المدعو "حامد" كثيرًا ما جلب المشاكل للجميع وخاصة والدته التي تطلقت من والده منذ سنوات طويلة وكان ذلك هو السبب فيما آل إليه حال ذلك الطفل

الذي تحول لمجرم بعد سرقته لمال الجيران فوضع بالأحداث منذ حداثة عمره.

فسر ذلك سبب الخلاف بينه وبين والدته وأخيه الأصغر، لكن الشرطة كانت تريد معرفة عنوانه الحالي، فتطوع ذلك الجار بإخبارهم أنه يقطن بشقة صغيرة بالمدينة الصغيرة وأخبرهم بعنوانها الذي رفضت أسرته إخبار الشرطة به معللة ذلك بأنهم لا يعرفون عنه شيئًا، أيقن المتحري بأن أسرته ما زالت تهتم لأمره حتى وإن ادعوا عكس ذلك، ولذا فقد قرر أن يقوم بزيارتهم مرة أخرى إن لم يجد ذلك الوغد بالعنوان الذي أخبرهم به الجار المتطوع.

ذهبت قوة من الشرطة على رأسهم الرائد "همام" إلى العنوان الذي يقطن به فلم يجدوا أحدًا ومع

تزايد الطرقات على الباب نزل صاحب البيت المؤجر ليتطوع ويفتح لهم الشقة بنفسه مخبرًا إياهم بأنه لم ير "حامد" منذ أول الأمس وأن دراجته البخارية ليست بالخارج مما يعني بأنه غير متواجد بالوقت الحالي.

قام أفراد الشرطة بتفتيش الشقة والتي كانت في حالة مزرية، فالملابس المتسخة ملقاة على الأرض بكل مكان، وهناك بقايا طعام فاسدة على الطباخ بالمطبخ بينما تتكدس الأواني المتسخة والأكواب داخل المغسلة المليئة ببقايا الطعام، الرائحة المنبعثة من المطبخ والحمام كفيلتان بقتل الجميع بأزمة صدرية حادة، امتعض الرائد ورجاله وقد أخرجوا مناديلهم يكتمون بها أنوفهم علها تقلل

من نفاذ تلك الرائحة إلى صدورهم، الشقة بمجملها كانت مفروشة بأثاث قديم مهترئ وكأن صاحبها لا يكترث بالإقامة بمكان لائق يصلح للاستخدام الآدمي، صاحب الشقة الذي كان يرافق الشرطة أبدا امتعاضه وقد أخذ يسب ويلعن ذلك اليوم الذي أجر به شقته لذلك المؤاجر الذي أفسدها على حد قوله، رغم وضاعة حال الأثاث بها والذي ينبئ عن بخل صاحب البيت وعدم اكتراث ذلك المدعو "حامد" سوى بمكان يصلح للاختباء أو قضاء ليلته بعد عودته من عمله الذي لا تعرف الشرطة كينونته إلى الآن.

لا شيء تحديدًا لفت انتباه رجال الشرطة أثناء قيامهم بتلك المهمة الثقيلة على قلوبهم، هناك

أسلحة بيضاء مختلفة بغرفة النوم، قصاصات من جرائد موجودة أسفل حشية الفراش المهترئة والهابطة بأكثر من موضع دلالة على سوء توزيع القطن بها، ألقى الرائد نظرة على القصاصات فوجدها لا تحمل أسماء الجرائد التي قصت منها لكنها تختلف بشكل الأحبار والورق مما ينم على اختلاف مصادرها، طلب الرائد "همام" من الصول "وليد" جمع القصاصات كما كانت داخل الملف وتحريزها لفحصها بالمركز.

استمر تفتيش الشقة ما يربو عن النصف ساعة أو أقل قليلًا رغم صغر مساحتها لكن الرائد كان يبحث عن بارقة أمل تخبره بما يحدث.

وجد رجال الشرطة رخصة قيادة تحمل اسم المدعو حامد والتي تخبر عن نوع الوظيفة التي يشغلها، فالرخصة كانت تحمل ترخيصًا بقيادة الشاحنات من الدرجة الأولى.

تم تحريزها أيضًا مع بقية الأحراز التي جمعها الرجال من الشقة وقد شعر الرائد "همام" ببارقة أمل أنه ربما يستطيع معرفة مكان عمل ذلك المجرم الهارب.

صاح برجاله يطلب منهم تفتيش الشقة بحثًا عن أية ورقة تشير إلى هوية رب العمل أو مكان العمل ثم توجه بأسئلته لذلك الرجل الفضولي الذي ما زال يلازمهم رغم عدم حاجتهم إليه.

_أخبرني ما الذي تعرفه عن المدعو "حامد"؟

بدا الرجل متفاجئًا وكأنه لم يتوقع أن يتم استجوابه، رد بتلعثم: لا شيء، لقد أحضره لي سمسار عقارات وأخبرني بأنه زميل عمل له ويبحث عن شقة مناسبة مفروشة بإيجار بسيط لأنه يعمل لوقت متأخر ولا يستطيع العودة لمنزل والده بالقرية، أخبرني بأنه يريدها لفترة بسيطة حتى يحدد مكان استقراره النهائي، فهو موجود بصفة مؤقتة بالمدينة.

هز الرائد رأسه مستفسرًا: هل تقصد أنه يعمل سمسارًا بالعقارات أيضًا؟

مط الرجل شفتيه وهرش رأسه الكبير ثم حك أرنبة أنفه وكأنه يفكر بما سيقول قبل أن يتحدث بحيرة: لا أعلم، هذا ما أخبرني به صديقي، لكني لا أعلم

حقيقة عمله، كان منتظمًا بدفع الإيجار بمواعيده، يقضى معظم وقته بالخارج، لا يعود إلا بوقت متأخر، حقيقة لا أعلم عنه سوى أنه يعطيني المال المتفق عليه بعقد الإيجار دون أية مشاكل، وهذا ما يهمني بطبيعة الحال، فأنت تعلم تهرب المؤاجرين ومماطلتهم بدفع إيجارهم الشهري.

صمت قليلًا قبل أن يقول بمداهنة: لكني لم أرتح له بتاتًا، فقد كان شكله لا يوحي بالاطمئنان، كان كمن..

تاهت منه الكلمات حتى استجمعها: وكأنه خارج من السجن، له تلك النظرة المخيفة وطبعه شرس، في أحد الأيام سمعت صوته من نافذة المطبخ

عندي فكما تعلم مسقط الضوء بالبيت* ضيق والصوت يصل وكأن صاحبه يقيم معك بنفس الشقة، كان يبدو أنه يتحدث بالهاتف وقد علا صوته بعصبية قائلًا: إن لم تحضر الطلب الليلة فقل لنفسك وداعًا، تعلم أن الرئيس لا يتهاون والشحنة ستغادر خلال هذا الشهر.

شعر الرائد "همام" بالتشتت، كلما أحس أنه فهم طبيعة عمل ذلك الوغد لاقى أحجية جديدة بوجهه، فرخصة القيادة تخبره أنه يعمل بقيادة الشاحنات، والرجل يقول له أنه يعمل كسمسار، ثم الآن يخبره بأن الرئيس سيغضب وكما يبدو بأنه يهتم بشحنة ما.

* مسقط الضوء" هو ذلك المكان الذي تطل عليه النوافذ الداخلية للبيت مثل نوافذ الحمامات والمطابخ.

ارتعد قلبه واهتز فؤاده وقد داهمه خاطر أعاده للخلف، هل يعقل أنه يعمل بتجارة المخدرات؟ هذا يبدو منطقيًا مع كل تلك الأحاجي! طنين ارتفع بأذنه وشرارات الغضب أحاطت به وشوشت تفكيره، همس لنفسه: يا الله ليس مرة أخرى، أيعقل أن أقع على عصابة أخرى للإتجار بالمخدرات؟!

شعر بالإنهاك النفسي يكتنفه، ورغم ذلك أرغم نفسه على متابعة استجواب صاحب البيت عله يصل لمبتغاه، لكن الرجل كان لا يعرف أكِثر مما أخبره به، لذا طالبه الرائد بموافاتهم بمركز الشرطة للإدلاء بشهادته الرسمية وقد أضمر بنفسه أنه سيستجوبه بطريقة ممنهجة فيما بعد حتى يحصر

كل ما يريد معرفته عن حامد، خاصة وقد ظهرت بارقة أمل بأن هناك من يعرفه وتوسط له عند صاحب البيت ليؤجر له شقة.

طالب رجاله بجمع الأدلة التي حصلوا عليها وغادر المكان يشعر بالوهن والحسرة، فمهنته تجبره على عيش الأيام والليالي بطريقة مشابهة، ماضيه مثل حاضره ويبدو بأنه سيشبه مستقبله، لا تغيير البتة حتى لو هرب إلى أقاصي الأرض، فلا فرار من قضاء الله إلا إلى قضاء الله.

أمسى الليل وأرخى أسداله الهادئة على المستشفى، تقدم "همام" بخطى متعجلة نحو غرفة العناية المركزة، بداخله هاجس يدفعه دفعًا لرؤية تلك التي كادت تفقد حياتها بسبب تقصيره

تلك الليلة المشؤومة، وكأن استنتاجه فيما يخص مهنة "حامد" ذكره بذلك الألم الذي وخز قلبه بعد فشله في تأمين الحماية لزوجته وابنه، شعر بأنه ما زال يدور في تلك الدوامة ولم يستطع الخروج منها بعد، أحس أن رؤيته لتلك المدعوة "ليلة" ربما تهب روحه السلام وتنتشله من بؤرة الأفكار السوداء التي تحاصره منذ الصباح، بالأخص حين علم منذ قليل أن كل الخيوط التي سعى خلفها طيلة اليوم قد تقطعت وتركت له فراغًا أسودًا كبيرًا ونقطة بنهاية السطر، فعليه أن يبدأ من طريق آخر غير الذي كان يسير به طوال اليومين الماضيين، أرجأ التفكير بما حدث منذ قليل وبات كل همه أن يراها،

أن يطمئن أنها بخير، ربما سيكون ذلك الشيء الوحيد الجيد الذي سيمر عليه منذ تلك الواقعة!

طرق النافذة الزجاجية من الخارج لافتًا نظر الممرضة التي تدور بين الأسرة البيضاء كالفراشة، نظرت له بترقب قبل أن تذهب نحو الباب فتفتحه بتأهب وتستفسر منه عما يريد، سألها بصوت غلفه الإرهاق: وددت الإطمئنان على حالة "ليلة"، هل ما زالت بالعناية؟

هزت الممرضة رأسها إيجابًا وقد بهرها شكل الرائد بزيه الرسمي وشعره المموج الذي فقد تصفيفته المهذبة وأصبح متنافرًا بشكل جذاب رغم ذلك، بشرته السمراء وعيناه السوداوتين جعلا شكله جذابًا رغم ألفة ملامحه وتشابهها مع كثير من

الرجال، بدا أن الممرضة صغيرة السن تبدي اهتمامها بالزي أكثر من ملامح وجه الشاب الثلاثيني المرهق الواقف أمامها يتابع تأملها بهدوئه المعتاد.

شعرت بالحرج من هدوء نظراته نحوها فنطقت بصوت مسموع: هل تسأل عن "ليلة محمود النجار"؟

لم يكن الرائد ليتذكر اسمها كاملًا لذا بادر بالإيجاب وقد أصبح كل همه أن يراها ليتأكد إن كانت هي أم لا، ما إن سمعت رده حتى أخبرته بأن يتبعها للداخل متجاوزة بذلك كل القوانين الموضوعة بخصوص دخول الزوار إلى العناية، ولكن إن لم

جموح ليلة
شيماء جاد

تُكسر القوانين لأجل رجل يرتدي مثل تلك الملابس الرسمية ويحمل تلك الملامح فلمن ستكسر؟!

تبعها الرائد "همام" في صمت متجاوزًا نظرات الفضول التي رمقه بها كل العاملين بالعناية حتى وصل لسرير مريضته المنشودة، شعر بالأسى نحوها وأوجعه قلبه وهو يراها بتلك الوضعية، شاحبة الوجه كالأموات، يدخل لجسدها أنابيب رفيعة تحمل المحاليل والأدوية بينما كل تلك الأسلاك موصولة بجسدها تنقل قراءاتها الحيوية نحو الأجهزة التي تقبع جانب فراشها تئز في خفوت تحمل سيمفونية كئيبة لم يحب سماعها ولم يتمناها، أما المسكينة فقد كان فخذها محاطًا بجهاز معدني من الخارج مثبتًا وضعه مانعًا إياها

من تحريكه مما يشي بصعوبة وضع كسرها الداخلي.

اقترب من فراشها بهدوء ففتحت عينيها تنظر له بحيرة ودهشة، شعر بالألم ملازمًا له ومغلفًا بالإحراج فقال بصوت خافت:

حمدًا لله على سلامتك، كيف حالك الآن؟

ردت بصوت منخفض والحيرة ما زالت ترسم ملامحها:

الحمد لله بخير فلم أمت بعد.

انقبض قلبه لمزحتها القاسية فقال مؤنبًا:

بإذن الله ستكونين بأفضل حال.

شعر بأن عليه تبرير موقفه وسبب زيارته فقال شارحًا لها:

كنت أمر بالقرب من المستشفى فوددت الإطمئنان على حالك.

ظلت تطالعه بحيرة ولكنها أجابته بلباقة:

شكرًا لك، لم يكن عليك أن تكبد نفسك عناء الزيارة.

أشعره ردها بالإحراج بأكثر مما يشعر لذا قال مبررًا:

كما إنني أريد إفادتك عما حدث تلك الليلة، تعرفين أن التحقيقات جارية على قدم وساق.

هزت رأسها وكأنها استعادت أحداث تلك الليلة بذهنها، التوتر تجسد على ملامحها وزادها شحوبًا

فوق شحوبها، ارتعشت شفتاها واهتزت يداها بينما تسأل بخوف:

أخبرني ما حدث؟ لا أتذكر جيدًا سوى صراخي وسقوطي ثم لم أعد أعي شيئًا بعدها، هل ألقيتم القبض على القاتل؟ هل وجدتم الفتاة؟ هل ما زالت على قيد الحياة؟

ظل يفكر قليلًا أيخبرها بالتفاصيل أم يكتفي بكلام مقتضب! استقر تفكيره على الخلاصة دون الدخول بالتفاصيل فقال:

بعد أن ألقاك الحقير من الشرفة هرب إلى داخل المنزل ويبدو بأنه قد قفز من الجهة الأخرى وهرب قبل أن نستطيع اللحاق به، عممنا نشرة بمواصفاته وقريبًا سنكون قد عرفنا سبب ما حدث،

الفتاة للأسف كانت ميتة حين وجدناها وقد تعرفنا على هويتها بالفعل بعد أن تطوعت إحداهن وأخبرتنا بهويتها، لا أريد منك القلق فقد صرتِ بأمان، عليك التركيز فقط على أن تتحسن حالك وأن تخرجي من هنا بخير، لا تشغلي ذهنك بكل هذه التفاصيل المرهقة وكوني متأكدة بأننا لن نألو جهدنا بالحصول على العدالة لك ولها بأمر الله.

ابتلعت ريقها باضطراب وقد شعرت بالتوتر رغم كلماته الهادئة الواثقة، لكنها لم تشعر بذلك الهدوء الذي من المفترض أن يغمرها؛ فقد كانت تشعر بأن الوضع سيزداد سوءًا لذا اكتفت بأن تطلعت نحوه بعينيها الواسعتين وكأنها تستجديه أن يشعرها بالأمان المفقود بحياتها من خلال كلماته،

لم يستطع الاستفاضة بالشرح لها لكنه حاول أن يخرجها من تلك الحالة فقال بهدوء:

هل تتذكرين ما حدث جيدًا ولم يسعك الوقت لتخبرينا به من قبل؟ وددت فقط الإطلاع عما حدث تحديدًا قبل وصولنا.

نجح بتشتيت أفكارها بعيدًا عن الخوف وقد بدأت بعصر ذهنها لتجميع صورة المشهد الذي مرت به تلك الليلة قبل أن تسقط من أعلى الشرفة، قالت بوهن:

سمعت حوارًا تحت شرفة منزلي بينما كنت أنوي

الدخول للغرفة فاستوقفني صوت الفتاة وقد تعجبت وجودها بذلك المكان رغم تأخر الوقت، كنت للتو قد عدت إلى البيت بعد غياب طال كثيرًا لظروف ما.

قالتها وقد تأنت عندها قليلًا فخرج الكلام بطيئًا وكأن تلك الظروف التي غصبتها على الابتعاد ما زالت تؤثر بها، كان الرائد "همام" على علم بوفاة زوجها من تحرياته عنها، لذا وجد أنها تستحق المواساة وخير من يشعر بغيره هو من ذاق من نفس كأس الفقد الموجع المر، نظر لها بصمت وكله رغبة أن يعزيها لكنه أرغم نفسه على الاستماع دون توجيه كلمة كعادته، تنبهت للصمت وعادت تكمل كلامها:

كانت الفتاة تخبر الرجل الذي بصحبتها أنها تأخرت بلقائه كي تتأكد من نوم والدها، ثم أعطته صك ملكية أو حيازة أرض ما، استوقفني رد الرجل على كلامها بأنه لن يدعها ترحل بسلام وبدا وكأنه كان.. كان يحاول الاعتداء عليها لأنها صرخت، لم أستوعب ما حدث بعد ذلك إذ وجدتني أصرخ بهستيريا وأنظر للفتاة خامدة الحركة بين ذراعيه، ما تلا ذلك كان عبارة عن محاولات الهرب منه وتأمين نفسي حتى تصل أنت ورجالك والباقي أنت تعرفه جيدًا.

صمتت ساهمة وكأنها تفكر، لم ينتبه الرائد "همام" لشرودها وقد ظن أنها ترمي عليه سهام كلامها بعدم حمايته لحياتها فقال مبررًا:

صدقيني لم أقابل مثل ذلك المجرم بوقاحته من قبل، لم أتخيل أنه مختبئ منا بمنزلك ولم يفر كما يفعل أغلب المجرمين.

أومأت برأسها وقد سارعت لتؤمن على كلامه قائلة:

كان مختبئًا بالغرفة ولا أعرف كيف فعلها وهذا حيرني للغاية! شعرت أنه يعرف المنزل جيدًا، هل تظن بأنه كان يزوره بغيابي؟

فاجئه سؤالها لأنه لم يخطر بباله من قبل، لمَ لا يكون هذا هو حقيقة ما حدث؟! فالوقائع كلها تشير إلى أن ذلك هو المنطق، تلك الجثث المدفونة، ودخول القاتل للشقة بمثل تلك السهولة وهروبه أيضًا كلها دلائل تشير لواقعية سؤالها المتشكك، أجابها باقتضاب:

لا أعلم بعد، لكن صدقيني سأعرف كل شيء قريبًا، لن يهدأ لي بال حتى أنهي تلك القضية وأعيد لك حقك.

رمقت ملامح وجهه السمراء المليئة بالعزيمة والإصرار، ولأول مرة تشعر أنها تميل لتصديق وعد أحدهم خاصة الغرباء، قالت وقد ارتسمت بسمة على ثغرها فظهرت غمازتيها بوضوح شديد:

أشكرك بحق، سعيدة بأن هناك من يحاول استرداد حقي ولو لمرة.

راقب ملامح وجهها المبتسمة وغمازتيها الغائرتين للداخل بتوجس وكأن بسمتها تلك حملته دينًا برقبته عليه إيفائه فشعر برغبته بالهرب من أمامها، استأذن منها بأدب بعد أن حصل على رقم هاتفها البديل الذي أحضره لها باسل في حال احتاج لسؤالها عما يخص أقوالها وتمنى لها الشفاء العاجل ثم غادر بسرعة كمن يهرب من مواجهة صعبة، وما أصعبها خاصة وهو يعلم أنه قد وصل لطريق مسدود منذ سويعات قليلة!

***

خارج غرفة العناية المركزة كان باسل قد عاد من الكافتيريا وجلس على مقعده الأثير يحتسي كوبًا من الشاي وقطعة من المخبوزات يملأ بها فراغات معدته التي تصرخ طلبًا لما يسد رمقها، وجوده بالمكان لم يكن قانونيًا لكن لا أحد طالبه بالرحيل، ربما لأنه كان طبيبًا فكان أبسط حقوقه هو التواجد بالمكان دون أن يرغمه أحدهم على المغادرة! هذا قانون خفي يعلمه أبناء المهنة الواحدة حيث توجد بعض الصلاحيات التي ينالونها مهما كانت صرامة القوانين.

وبينما يقضم قطعة كبيرة من المخبوزة المغلفة بيده رأى الرائد "همام" يخرج من داخل الغرفة، ملامحه لم تكن واضحًا بذاكرته إذ كانت مقابلتهما

في ظلام تلك الليلة المشؤومة بينما كان توتره في أعلى منحنياته وغضبه في الذروة، لكن حدسه أخبره أنه رأه خاصة وهو يتطلع إلى زيه الرسمي الذي يرتديه. نهض من مقعده واضعًا كوب الشاي الورقي ذو الطعم السيء وقطعة المخبوزات القاسية على المقعد ثم توجه نحو الرائد مستفهمًا: أنت الرائد المكلف بقضية أختي؟

كان يجد صعوبة في تذكر اسمه وهذا كان ديدنه الطبيعي، فكيف وهو قد تعرف عليه في ظروف لا يتذكر بها المرء اسمه سوى بصعوبة!

سارع الرائد ليعفيه من إحراج عدم تذكر اسمه فقال بهدوء: الرائد "همام" يا دكتور، ألست طبيبًا؟

أجابه "باسل" باقتضاب وكل ما يشغل باله سبب زيارة الرائد لأخته في غرفة العناية دون حتى أن يستأذن منه، لم يكن يتمتع بسعة الصدر فيما يخص صغيرته أبدًا: نعم طبيب جراحة، ما سبب زيارتك لأختي؟

سأل بتجهم وعدائية، شعر الرائد بالضيق لكنه تظاهر بالهدوء مجيبًا: كنت بالجوار فوجدت أني أريد الاطمئنان على حالها ومدى جاهزيتها للإدلاء بأقوالها فيما يخص القضية.

كانت تلك الجزئية الأخيرة تضفي على كلامه صبغة عملية رغم أنها لم تكن ضمن أولوياته، فقد كان سبب حضوره إلى المستشفى مبهمًا له وربما

مدفوعًا بمشاعره المضطربة التي يعيشها منذ ليلتين، لكن "باسل" لحسن الحظ لم ينتبه لتضارب مشاعر الرائد؛ بل شعر أنه وغدًا يريد أن يضيف لسجله العملي نقاطًا ترفعه أمام مرؤوسيه، لذا أجاب بتجهم: وهل حصلت على مرادك؟

اكتفى الرائد بهز كتفيه دون اكتراث قائلًا: لم تخبرني بالكثير، فكل ما تعرفه علمته أنا منذ بعض الوقت.

ثم أضاف وكأنه يسعى للفت نظر الأخ وربما اكتساب وده بطريقة غير واضحة: هل تعلم أن خلف منزلها كانت تقبع مقبرة جماعية لأطفالٍ مجهولي الهوية؟!

حدق به "باسل" بصدمة مرددًا وكأنه لا يستوعب ذلك الخبر: مقبرة؟! والأطفال، هل توصلتم لهوياتهم؟

لم يرد الرائد إخباره بكل الحقائق، لذا اكتفى بالتلويح بيده بعلامة مبهمة مرددًا: لا ليس بعد، يبدو أن وجودهم مر عليه بعض الوقت مما ساهم في صعوبة الحصول على ما يميزهم، أتعشم أن أجد في بلاغات الأطفال المفقودة طرف خيط يصلني بهم.

انقبض قلب "باسل" وشعر بالخوف لأول مرة بحياته من المجهول، وجود هؤلاء الأطفال وذلك المجرم بمكان من المفترض أنه مكان خاص بأخته

أشعره بأن هناك خطرًا محدقًا بها، سأل بتوتر: هل وصلتم لهوية المجرم؟

أجابه الرائد باقتضاب: نعم عرفنا هويته وجاري التحقيقات بخصوصه وبخصوص وجود هؤلاء الأطفال، لا تقلق.

لم يجد "باسل" ما يجيب به وقد شردت عيناه تحدق بالمجهول، علم أنه لن يستطيع التوقف عن القلق أبدًا حتى تتوصل الشرطة لكل الحقائق، أو بالأحرى حتى يتم إغلاق ملف القضية خاصة وأن وضع "ليلة" الطبي سيجبرها على التواجد بالمستشفى لفترة أطول مما كان يظن، اكتفى بالهمهمة هازًا رأسه قبل أن يقول بصوت خافت:

وفقكم الله، سوف أطمئن منك بين الوقت والآخر على سير الأحداث.

أجابه الرائد بسلاسة: بأي وقت سأكون بالجوار سأمر عليكما لأطمئن على السيدة "ليلة" ولأطمئنك إذا ما جد جديد.

قالها دون أن يحسبها بعقله والمنطق رغم عدم منطقية ذلك الطلب، لكن "باسل" لاقى بنفسه ترحيبًا لذلك العرض، فقد كان يريد البقاء قريبًا من سير التحقيقات حتى يشعر بالأمان، لذا مد يده مصافحًا الرائد "همام" مجيبًا بود: نعم وهو كذلك، سنبقى هنا لبعض الوقت ريثما يتم السماح لها بالمغادرة.

صافحه الرائد ثم استدار مغادرًا تاركًا "باسل" يعود لمقعده مرة أخرى دون أن يقرب من قطعة المخبوزات وكوب الشاي الذي برد وبات طعمه السيء واضحًا للمذاق، فقد كان تفكيره محصورًا بما قاله له الرائد عن بعض حقائق القضية، يبدو بأن الوضع أسوأ من مجرد محاولة قتل عارضة لأخته كما كان يظن، والله أعلم بما تخفيه تلك القضية من كوارث خلفها، لم يكن يعلم بأن تخميناته في محلها، فالوضع بالقضية كان أسوأ من كل التخمينات.

***

الفصل الثامن

فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص،

والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقها به صبيان الأزقة.

جبران خليل جبران.

قبل عدة ساعات.

مضى النهار شاقًا على الرائد همام بين متابعة التحريات بخصوص المدعو حامد شعبان وبين تسجيل إفادة الأب بخصوص ما حدث لابنته وسبب اخفاءه لتغيب ابنته عن المنزل ثم انهياره

عندما رأى صور الفتاة الميتة من موقع الأحداث والتي أكد أنها ابنته بالفعل، ثم ختم يومه البائس باتصال مديرية الأمن به من المحافظة لإبلاغه أن المجرم المعممة صوره على أقسام الشرطة قد تم رصده في محافظة أخرى وعليه التوجه للمديرية في القريب العاجل، ولأنه يعلم بأنه لن يهدأ له بالًا حتى يعلم ما يحدث فقد اتجه من فوره للمديرية، وهناك تلقى أسوأ خبر يود ضابط أمن مكلف بقضية أن يسمعه، فقد علم أن مجرمه قد تم العثور عليه ولكن للأسف بعد أن أُزهقت روحه وصعدت إلى بارئها يقتص منها كيفما شاء.

تم تسليمه ملفًا مفصلًا عن التحقيق الأولي الذي تم بموقع الحادث وكيفية وقوع الحادثة وشهادة

الشهود وتقرير الطبيب من المستشفى بخصوص سبب الوفاة.

علم "همام" أن طريقه في تتبع المجرم قد انتهى بحائط أملس غير قابل للتسلق، فكيف سيعرف أي مما يريد ومجرمه قد رحل، لكن شهادة الشهود أعطت له بصيص أمل بأن يتتبع تلك السيارة التي صدمته؛ إذ يبدو من سير الأحداث أنها حادثة مدبرة وليست قضاءً ولا قدرًا كما يتوهم الجميع، فلقد تعود من خبراته السابقة على تصديق حدسه وتتبع أي خيط يجده حتى وإن لم يكن منطقيًا بنظر الجميع.

احتفظ بالملف كي يراجعه بتأنٍ حين يعود لمقر سكنه ولكنه شعر بالضيق بشدة، كانت مجريات

الأحداث تطبق على صدره وتخنقه بشدة، وكأنه كان يفتقر للمنغصات حتى تجتمع عليه النوائب جميعها متمثلة بقضية قتل غير معلومة الأسباب.

ارتأى أنه بحاجة لزيارة خاصة من نوعها، فالمديرية تقع بالقرب من المستشفى حيث ترقد تلك السيدة متسعة العينين التي كادت أن تفقد حياتها بسببه، رأى بها صورة أخرى لمنى زوجته الراحلة، فكلتاهما فشل فشلًا ذريعًا بحمايتهما رغم وعده الأجوف لهما، الفارق أن زوجته لم تعش لترى فلذة كبدها يرحل بعدها، بينما تلك الشابة النحيلة كادت أن تفقد حياتها والله أعلم إن كانت ستعود لتمارس حياتها الطبيعية على ساقين كما كانت أم لن يحالفها الحظ بذلك، لذا ومن فوره دون تفكير توجه

نحو المستشفى عازمًا على رؤيتها وطمأنة قلبه أن مصيرها سيكون مختلفًا للأفضل عن مصير منى، وسيبذل جهده في سبيل ذلك الهدف ما دام حيًا.

***

جلس الرائد "همام" على فراشه بغرفة النوم الصغيرة التي تتسع بالكاد لفراش مزدوج وخزانة ملابس صغيرة الحجم يرتشف كوب شايه دون عشاء بعد عودته من زيارة "ليلة"، فقد استهلكه التعب حتى أنه عجز عن إعداد الطعام لنفسه كما أن القضية التي يعمل عليها قد أصابته بفقدان الشهية، لذا اكتفى بكوب الشاي وبعض البسكويت الجاف الذي أحضره معه من المحل الصغير بأسفل البناية السكنية القديمة التي يقيم

بها. أمسك نسخة من الملف صغير الحجم التي أحضرها معه من المديرية يتصفحها على مهل وبجواره يقبع دفتر ملاحظات صغير ذو غلاف أزرق يدون به ملحوظاته والأفكار التي قد تخطر له في سبيل التحقيق أو التحري عنها، كانت عادة قد تعود عليها من صغره و لازمته في سير حياته فيما بعد ووجد أنها طريقة مريحة ومنظمة تتيح له التحرك بخطىً واضحة وأهداف محددة دون تخبط أو توتر.

قرأ الملف بعناية رغم معرفته أغلب ما دون به إذ أخبره بها الضابط الأعلى رتبه الذي اجتمع به بالمديرية، قرأ شهادة الشهود بخصوص الحادثة وقد أجمع الكل على وجود سيارة ذات علامة

محددة تابعة لشركة ما لم يسمع بها من قبل، لكن الشهود ربما لفتهم الاسم لسبب ما فتذكروه، أحد الشهود التقط حروف اللوحة ورقمين منها مما سيجعل البحث عن تلك السيارة سهلًا له، دون رقم السيارة المبتور بدفتره الأزرق وقد أضاف له اسم الشركة التي رآها الشهود على السيارة " شركة الأنهار للتجارة والإستيراد"، قال لنفسه متمتمًا "بالصباح الباكر سيكون أول ما أفعله الاتصال بإدارة المرور لمعرفة ما يخص تلك السيارة وشركتها"

عاد يقرأ ما دون بالملف فلم يضف جديدًا لما يعلمه، لذا وضع الملف جانبًا وأمسك دفتره الأزرق كي يكمل تدوين ملاحظاته وأفكاره المتناثرة به،

كان أكثر ما يؤرقه بالوقت الراهن أن تقرير الطبيب الشرعي لم يقدم له جديدًا، فجثة الفتاة التي تدعى "ورد" لم يفده التقرير عدا عن ذكر سبب الوفاة وهو طعنة نافذة بالقلب، أما تقرير التشريح الخاص بجثث الأطفال فناهيك عن معرفته قبلًا بسبب الوفاة كما أخبره وكيل النيابة "مروان" لم يكن التقرير مفيدًا للغاية، إذ ساهم تحلل الجثتين للفتى والفتاة الصغيرين بتشوه معالمهما، لكن وقت الوفاة للجثتين كان مقاربًا بل وربما كان بنفس اليوم وقد مر على وفاتهما ما يزيد عن الشهر، أما الفتاة الأخرى الصغيرة فقد مضى على وفاتها ما يقل عن الشهر، ولذا كان التحلل قد طال جثتها جزئيًا لكن تبقت بعض الأماكن شبه سليمة

وقد ظهر ما يميز جسدها بوجود وحمة سوداء كبيرة على الجانب الخارجي للفخذ الأيمن، أخبره تقرير الطبيب الشرعي أن الجثث تم دفنها بملابسها ووجودها تحت تربة عميقة نوعًا ما ساعد على تأخير عملية التحلل مما ساعد على احتفاظها ببعض من ملامحها وهذا من حسن حظه، فسوف يعود لتقارير الإبلاغ عن فقدان الأطفال مرة أخرى عله يصل لمبتغاه.

سطعت بذاكرته تلك المعلومة التي ألقتها المدعوة "ليلة" على مسامعه أثناء سردها لجزئها من الحكاية، فقد أخبرته أن القاتل كان قد حصل على صك ملكية أرض ما من القتيلة، وبالصباح أخبره الحاج "علي" أنه تعرف على المدعو "حامد"

حين كان يريد شراء قطعة أرض منه بأي مقابل، إذًا تلك الأرض؟؟

كتب بمفكرته الزرقاء هذا السؤال ريثما يصبح فيستدعي الحاج "علي" مرة أخرى حتى يعلم سر تلك الأرض أو من كان يريد شراءها.

انتهى الرائد "همام" من إضافة ملاحظاته ورسم خطة يومه غدًا قبل أن ينهض عن فراشه ليحمل كوبه الفارغ وعبوة البسكويت الفارغة نحو المطبخ ثم يعود ليستلقي على فراشه الفارغ كفراغ روحه يتقلب بصمت في الظلام، كعادته كل ليلة كان يجد صعوبة بالنوم لكنه اليوم على ما يبدو فقد استنفد كل طاقته طوال النهار، وقد كان الفراش الوثير رغم قدمه كالبحر الذي جذبه لأعماقه ما إن استلقى

بهدوء عليه مبتلعًا كل أفكاره والضجيج الذي يعج به عقله إلى ظلام الصمت.

***

جلست "سلمى" شاعرة بالذنب رغم مرور عدة ساعات على مشاجرتها مع زوجها "باسل" والذي نعتها بأنها حقودة لا تحب أخته وتتمنى لها الشر، صدمها كلامه وجرح مشاعرها بالصميم، فقد كانت لا تتخيل أن "باسل" يفهمها بهذا الوضوح، كان كلامه جارحًا لها بقسوة ومؤلمًا لمشاعرها؛ ربما لأنه كشف بعضًا من تلك الحقائق المخفية داخل أعماقها ولا تحب إماطة اللثام عنها حتى مع نفسها، أما الآن وقد واجهها بما يفهمه عنها وكأنها كتابًا مفتوحًا فقد شعرت بالخزي والإحراج يكللها رغم

أنها وجدتها قسوة منه أن يواجهها بتلك الطريقة المكشوفة المخزية لنفسها، لم تستطع أن تخبره بأنها لا تملك حولًا ولا قوة بطريقة تفكيرها تلك نحو أخته، لم تقدر أن تواجهه بأنها تحاول بذل جهدها كي لا تظهر مشاعر الغيرة التي تعتمل بصدرها من تقاربهما وهي التي تملك بدلًا للأخ ثلاثة ولا ترى منهم خيرًا أبدًا، بل وكأنهم لم يتواجدوا بحياتها قط، فقد كانوا يعاملونها كأنها طرف زائد في بيتهم منذ أن كانوا يعيشون تحت سقف واحد، والآن بعد أن تزوج جميعهم لم تعد تراهم إلا بالمناسبات البعيدة، هذا إن تذكروا أن لهم أختًا تستحق أن يسألوا عنها أو يهاتفوها.

كان "باسل" قد رحل بعد مشاجرتهما إلى المستشفى حيث يعمل وقد تراكمت الأعمال عليه بعد توقف دام عدة أيام قضاها جوار أخته، لكنه أخبرها بأنه سيخرج من عمله مباشرة إلى حيث ترقد "ليلة" ولن يعود إلى البيت الآن.

أعد حقيبة صغيرة ليأخذها معه مخبرًا إياها بأنه سيحاول جهده نقل "ليلة" إلى حيث يعمل، لكن "سلمى" تعلم أن المستشفى الخاص الذي يعمل به لن يكون بنفس الكفاءة التي تعالج بها أخته، لذا وكبادرة منها لتحسين العلاقات ولإخماد إحساسها المشتعل بالذنب فقد أعدت حقيبة مماثلة له حيث قررت بلحظة طيبة نادرًا ما تتلبسها أن تذهب إلى المستشفى بالتبادل مع زوجها لرعاية أخته والبقاء

معها خاصة وأنها علمت أن الأطباء قد نقلوا "ليلة" إلى غرفة خاصة تسمح بوجود مقيم معها.

اتصلت بأختها تطلب منها مراعاة الطفلين "جود" و "جواد" حتى تمر تلك الأيام وتحسن علاقتها بباسل وليلة، وليعلم الله أنها تريد تحسين العلاقة بحق.

أتتها "جنة" متسائلة بقلق: ماما، هل عمتي "ليلة" بخير، سمعتك تخبرين خالتي أننا سنقيم عندها حتى تتحسن حالة عمتي.

أجابتها "سلمى" بحزن: نعم حبيبتي إنها بخير الآن، عدة أيام وستعود لتقيم معنا من جديد.

تهللت ملامح "جنة" ذات العشرة أعوام بسعادة قائلة: نعم لقد اشتقت لها بحق، تعرفين أنني أحبها.

ربتت "سلمى" على رأسها وقد تصاعد شعورها بالذنب إلى أوجه قائلة بخزي: نعم كلنا اشتقنا لها ونحبها، فليشفها الله كي تعود لنا مرة أخرى.

***

جلس الرجل النحيل على مكتبه الضخم يراجع ملفات عديدة موضوعة بنسق معين حيث رتبتها سكرتيرته بحسب الأهمية، كان ذهنه مشغوًلا بأمر آخر ولكنه يجبر نفسه على محاولة التركيز على تلك الملفات حتى ينهيها.

قطع رنين الهاتف حبل أفكاره المبعثرة، كان الرقم المتصل يحمل أهمية قياسية له ورغم ذلك فقد توتر حين لمح الرقم وعقد حاجبيه بشدة، فالصفقة المتفق عليها لن تتم إلا بعد فترة من الوقت، فما

سبب اتصاله به الآن؟! رفع الهاتف لأذنه مجيبًا بحذر: مرحبًا.

أتاه الصوت الخافت من الجهة الأخرى يستفسر عن أمر ما فتنهد بقلق قائلًا: نعم انتهت تلك المسألة بلا رجعة، لا تقلق.

صمت قليلًا مستمعًا للصوت الذي ارتفعت وتيرته وكأن صاحبه على وشك فقدانه لأعصابه ثم عاد يجيب بثقة وهدوء: لا لن يحدث لا تقلق، صدقني فقد اهتممت بتلك المسألة برمتها، تم الانتهاء من كل ما قد يشير إلينا.

صمت متهيبًا أن يخبره أنه قد اضطر للتخلص من السيارة بعد أن علم بأن هناك من رآها وأبلغ الشرطة ببيانتها، تبقت فقط خطوة أخيرة ولن تتم

إلا إذا توصلت الشرطة للشركة، لذا عاد يؤكد بثقة قائلًا: دع الأمور لي ولا تقلق يا رئيس _كان يقولها للمتصل على سبيل الدعابة حتى اعتادها فصارت لقبه الرسمي أثناء الصفقات المهمة_ فقد توليت الأمر برمته وأنت تعلم بأني أحسن التصرف.

أنهى المكالمة بعد عدة دقائق قضياها بالاتفاق على بعض الأمور العالقة والخاصة ببعض الصفقات التي تديرها الشركة والتي يتولاها النحيل المدعو محمد صالح بصفة قانونية ثم عاد يشرد بالفراغ وقد انقبض قلبه، فلأول مرة منذ أن بدأ تعاونهما بتلك الصفقات تؤول الأمور إلى هذه التداعيات السيئة، أمل بقرارة نفسه أن تنتهي

الأمور عند ذلك الحد ولا ينهار كل ما بنياه سويًا منذ عدة سنوات.

***

بعد ليلة قضاها الرائد "همام" نائمًا بعمق رغم توقعه الأرق كما يحدث معه بالعادة أثناء توليه قضية ما، كان ذهنه رائقًا وتفكيره يعمل بأتم كفاءة، جلس على مقعده أمام مكتبه وأمامه حاسوب يتفحص به بعض البيانات الهامة قبل أن يتناول هاتفه ويتطلع للساعة، كانت الساعة قاربت التاسعة صباحًا لذا فتح هاتفه كي يحضر قائمة الأصدقاء، طلب رقمًا ثم انتظر ريثما أجابه الصوت المهلل على الطرف الآخر: مرحبًا يا صاح، مضى وقت لم أسمع صوتك به أيها الوغد.

ضحك "همام" قائلًا: مصطفى، كيف حالك يا بدين، هل ما زلت نائمًا؟

كانت تلك طريقتهما بالمزاح سويًا منذ سنوات دراستهما بكلية الشرطة والتي لا يفهمها سواهما؛ فمصطفى لم يكن يغضب أبدًا من نعته بالبدين من قبل "همام" رغم غضبه العارم الذي ينفجر ما إن يفكر أي شخص آخر بالتلميح لبدانته التي اكتسبها بعد سنوات من جلوسه خلف المكاتب.

أجابه "مصطفى" باستهجان: وهل من يعرف أمثالك يستطيع النوم؟! لا لست نائمًا بالطبع، أوحشتني يا رجل، لم كل هذه الغيبة؟

تنهد "همام" مجيبًا: انشغال، تعرفني وتعرف أن وقتي ضيق.

قال مصطفى مؤنبًا: لا ليس وقتك ضيقًا بل أنت من يدفن نفسه تحت كومة من الأعمال، ألا تأتي القاهرة أبدًا؟ منذ رحيلك عنها ولم أرك يا صاح.

أجابه "همام" : قريبًا سوف أزورك، لكن معي قضية تبدو مستعصية بالوقت الراهن.

قال مصطفى بفطنة: آها، يبدو أنك تحتاج لخدمة مني يا وغد وإلا لما كنت تكرمت علي باتصالك.

ضحك "همام" ملئ شدقيه قائلًا: نعم وهو كذلك بالفعل، لكن لا تظن أنني لم أكن لأتصل بك دون هذه الخدمة.

قال "مصطفى" بخبث: هلم وأخبرني بما تريده ووفر على هذه الأكاذيب الحمقاء، فلن أصدقك.

تنهد "همام" قبل أن يقول: معي رقم جزئي من لوحة خاصة بسيارة نقل، السيارة صدمت أحدهم وفرت، أجمع الشهود بأنه حادث قضاءً وقدرًا، لكن..

صمت ليستجمع أفكاره قبل أن يكمل: المقتول مشتبه به في جريمة أحقق بخصوصها ولدي حدس بأنه طرف خيط وليس مجرد حادث.

أطلق "مصطفى" صفيرًا مرتفعًا قبل أن يقول متصنعًا الحقد: يا لحظك يا رجل، ليتني أعمل معك بقضاياك العجيبة التي تقع عليها بدلًا من تواجدي الممل بمركز المرور.

ثم سأل بلهفة: أخبرني الرقم وسوف أرى ما أفعله.

أملاه "همام" الرقم الذي دونه بورقة ملاحظاته الصغيرة ثم أتبعه برجاء: أرجوك يا "مصطفى"

أخبرني ما تجده سريعًا وبأقرب وقت، فآمالي معلقة على تلك المعلومات بالسير في قضيتي قليلًا.

وعده مصطفى بأنه سيولي تلك المسألة جل اهتمامه وسيتصل به ما إن يصل إلى تلك المعلومات قبل أن تنتهي المكالمة، كان همام يعلم أن المهمة ليست باليسيرة ولكنه تمنى أن يصل لطرف خيط واحد فقط يستطيع الإمساك به للوصول إلى غايته، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

***

الفصل التاسع

الغائبون يظنون أننا لن نراهم!!

هم لا يعلمون أن للقلب عينان..

الأولى حنين.. والثانية انتظار.

وليام شكسبير

صيحة انتصار أطلقها همام وقد رفع رأسه ممسكًا بورقة عليها بيانات وصلته حديثًا، فقد وُجد تطابقًا للطفلة المفقودة بالسجلات، هناك طفلان يحملان نفس العلامة على فخذيهما أحدهما ذكر والأخرى فتاة، لذا بطبيعة الحال كانت الفتاة هي مراده

وعليه السعي خلف أي أثر يتحصل عليه من بحثه الدؤوب.

قرأ ملف الفتاة جيدًا مستخرجًا منه العنوان والذي لسوء حظه يبعد عن محل عمله وإقامته ساعتين من السفر لكنه لم يبال؛ فقد أخذ على عاتقه إنهاء تلك المهمة وسيفعل مهما كلفه الأمر.

أنهى الأعمال الأساسية بمركز الشرطة ثم اتجه مع معاونه نحو منزل الحاج علي بغية استجوابه بخصوص الأرض ليجد أنه لم يعد من الخارج بعد، صرف معاونه ثم اتجه من فوره إلى العنوان المسجل بملف الفتاة المفقودة بعد تأكده من إقامة ذويها بنفس العنوان.

لم يرد إخبارهم بأن الفتاة مشتبه بوجودها جثة هامدة قبل أن يحصل على أجوبة لاستفساراته، قرر أن يسمع حكايتهم الخاصة بفقد الفتاة قبل أن ينهاروا فتصبح المعرفة أمرًا عسيرًا في ظل فوران مشاعر الحزن داخلهم، قسوته مبررة ربما لأنه ذاق مرارة الفقد قبلًا، ويعرف معنى التشوش وتزلزل التفكير حتى بعد مرور وقت طويل من فقدان فلذة الكبد.

حين وصل كان الإرهاق قد بدأ يزور عضلاته التي تيبست بعض الشيء، لكنه بعزيمة وإصرار ترجل من السيارة أمام منزل أسرة الطفلة المفقودة، حين دلف إلى المنزل اشتم رائحة القلوب المحترقة

والحزن الضاري رغم مرور عدة أشهر على اختفاء الفتاة.

قابله الوالد كئيب الوجه هزيل الملامح بينما تعلقت بوجهه عينا الأم المكلومة المتشحة بالسواد من قمة رأسها لأخمص قدميها وكأنها تستنطقه بما يعلمه، من قال أن قلب الأم لا يخطئ صدق! فقلب الأم يرى المصيبة قبل وقوعها وتستشعر بوصلتها الأخبار السيئة التي تلوح بالأفق!

تحاشى همام نظراتها الممتقعة خوفًا من إقراره، لن يحتمل وقع سقوط الخبر السيء الذي يختزنه داخله على مسامع أسرة مكلومة تنتظر الأخبار السيئة والأخبار الجيدة بالمناصفة، لن يكون هو

الذي يرجح لديهم كفة الاحتمالات بين الخسارة والفرح ليرفعها من خمسين إلى مائة بالمائة جهة البؤس ومرارة الحرمان للأبد. إلتزم الصمت ورفض واجب الضيافة المقدم له مبتلعًا غصته مكتفيًا بجرعة السواد التي اجترعها فيما مضى.

وبدأ الأب سرده مخبرًا إياه بتفاصيل يعلمها حق المعرفة من ملف الفتاة المرسل إليه قبلًا، لكنه ما زال يأمل أن يكون هناك ما يجهله، يبحث عن تفاصيل مموهة خلف الحقائق المعلومة قد لا يكون التحقيق السابق قد وضعها موضع الجدية في ملفاته..

« نحن لا نقيم هنا وإنما كنا قد عدنا من الخارج بإجازة سنوية لأن زوجتي أرادت أن تضع مولودها

هنا وسط الأهل بدلًا من الولادة وحيدة بالغربة، مضى على عودتنا من الخارج عدة أسابيع وقد اتفقنا على عودتي وتركها مع طفلتنا ريناد والابن المولود حديثًا رامي عدة أسابيع أخرى ريثما تستعيد صحتها فتلحقني للخارج، بدأ النهار عاديًا للغاية، كنا جميعًا بمنزل والدتي المجاور لنا يوم الجمعة حيث اعتدنا أن نجتمع نحن وأخوتي على الغداء وقضاء اليوم هناك وقد انشغل الكبار بالسمر والأطفال باللعب، وحين أقبلت الظهيرة وبعد تناول الغداء انسحبنا جميعًا لأخذ قيلولة قصيرة بينما اتجه الأطفال للجلوس بالغرفة الداخلية المعدة للعبهم بعيدًا عن الجميع، لم ننتبه لإختفاء ريناد إلا بعد مرور بعض الوقت حين

تفقدتها والدتها وسط الأطفال الأخرين فلم تجدها، ولم يعرف أيهم أين هي سوى ابنة عمها التي أخبرتنا أنها خرجت لتلعب بالدراجة بالخارج وحدها، هرعنا جميعًا للخارج نبحث عنها فلم نجدها وعلى بعد مسافة مائة متر تقريبًا وجدنا الدراجة الجديدة التي كنت قد دربتها على قيادتها للتو..»

صمت وقد مرت سحابة مثقلة بالدموع داخل عينيه لتبللهما بينما ارتفعت شهقة فجائية بالأجواء من جهة الأم التي تكتم نحيبها بقسوة حتى انقطعت أنفاسها، فانسحبت بغصتها ودموعها قبل أن تقتلها، ظل الرائد همام مطأطئ الرأس يلهج لسانه بالدعاء ويحبس دموعه بقوة امتلكها بعد فاجعته السابقة حتى صار وجهه وكأنه قد من

حجارة، مر بعض الوقت في صمت ثم عاد الأب ليكمل بصوت منكسر..

«بحثنا كثيرًا حتى حل الظلام وتسربت مع أخر خيوط الشمس الراحلة كل ذرات الأمل المخبأة في نفوسنا، فاتجهنا نحو قسم الشرطة لنبلغ باختفائها، لكنهم أخبرونا أننا نستطيع تقديم البلاغ بعد مرور أربع وعشرين ساعة من تاريخ الإختفاء رغم تأكيدنا لهم أن الطفلة الصغيرة لا تملك مكانًا للذهاب إليه وأننا قد قلبنا القرية بحثًا عنها قبل ذهابنا إليهم، فأخبرنا أحدهم بأنه سيباشر البحث منذ الصباح..

عدنا خاليي الوفاض فقررنا أن نقوم بالبحث عنها بطريقتنا، طبعنا صورًا كبيرة لها بالملابس التي كانت ترتديها ذلك اليوم حيث صورها عمها بها مع

أطفاله، ثم مررنا على كل المنازل نسأل عنها، ولأننا لا نقيم بالقرية لم يكن وجهها مألوفًا للجيران أو الأصحاب وخابت كل تحرياتنا إلى أن أخبرتنا واحدة من أهل القرية بقصة غريبة..

صمت يستجمع أفكاره وشردت عيناه بالسقف قليلًا فتابعت زوجته التي عادت منذ قليل بعد أن تمالكت نفسها قليلًا:

«أخبرتنا سيدة تسكن جوار موقف السيارات بالبلدة أنها رأت فتاة بنفس المواصفات هذه تسير مع سيدة سمراء ترتدي ملابس سوداء وتحدث الفتاة بلطف بينما الطفلة تبكي بصوت مرتفع، مرا جوارها فنادت الفتاة تسألها عما يبكيها لكن السيدة رمقتها بحدة قبل أن تخبرها أنها تريد

الوصول إلى المنزل كي تنام لأنها متعبة وحرارتها مرتفعة، ثم مرت مسرعة نحو دراجة ثلاثية الإطارات مغلقة «توكتوك» تنتظرها على الجهة المقابلة فصعدت مع الطفلة قبل أن ينطلق سائقها باتجاه الطريق، بالطبع لا نعلم مدى صدقها إذ أن بحث الشرطة لم يصل بنا إلى شيء ولم يتذكر أي شخص آخر مواصفات ابنتي أو هذه السارقة، ولم يعلم أي من السائقين عن سائق الدراجة تلك شيئًا متعللين أن كثيرًا من سائقي "التكتك" هذه يأتون من البلاد المجاورة لتوصيل الأشخاص، ومنذ ذلك الحين ونحن ننتظر أي معلومة تدلنا على مكانها، لا نملك سوى الدعاء بهذا فقد ضاعت آمالنا وفقدنا الأمل بالشرطة وبأي شخص آخر، زوجي

ترك عمله بالخارج وعاد إلى هنا آملًا أن نجدها، حياتنا فقدت معناها وباتت انتظار بانتظار، لا نفعل شيئًا سوى الانتظار جوار الهاتف، جهزنا نقودًا في حال طلبوا فدية، هواتفنا مشحونة على الدوام وأذهاننا مشدودة بانتظار بادرة أو تلميحة أو أي خبر يأتينا عنها، لا تعلم يا سيدي قسوة ما لم تمر به ونسأل الله ألا تجربه أبدًا، فالحياة المبنية على الانتظار هي وثيقة وفاة مبكرة تنعي بها كل جوانب الحياة الأخرى.»

همهم همام ببعض العبارات المواسية لهما ولنفسه قبلهما، شخصيته ذات الحس المرهف لا تساعده كثيرًا بالعمل ولكنه أخذ عهدًا على نفسه ألا يضعف، فالضعف مفتاح الفشل ولن يفشل مرة

أخرى تحديدًا الآن، سحابة الصمت التي خيمت على سماء أحزانهما ثقلت ثم انقشعت حين تحدث الرائد همام بصوت أشج بعض الشيء:

هذه السيدة التي اصطحبت ابنتكما هل تستطيعون وصفها؟

أجاب الأب:

استطاع رسام الشرطة رسمها من وصف السيدة التي رأتها، لم نجد من يشبهها بالقرية والقرى المجاورة ولم تظهر بسجلات الشرطة أيضًا.

نهضت الأم لتختفي قليلًا ثم تعود بمظروف سكبته أمام همام على الطاولة، التقط همام الصور التي بداخلها ليجد صورة فتاة صغيرة في عمر الخامسة بيضاء البشرة تجمع شعرها الذهبي في عقدتين

على جانبي رأسها وتبتسم بحبور للعدسة التي صورتها، تأملها مليًا قبل أن يصله صوت الأم الخافت:

كانت شعلة من النشاط وخفة الظل، لا تكف عن الضحك وملئ الأجواء بالحبور لكأنها فراشة تنشر البهجة، هذه صورتها يوم اختفائها، لا أدري لماذا أخذوها! لو كانوا يريدون فدية لكانت الأمور أكثر وضوحًا ومنطقية، لكن ما وجه الاستفادة من طفلة بعمر ابنتي؟! ما العائد المثمر الذي سينالونه من اختفائها واقتلاع قلوبنا حزنًا وكمدًا عليها؟

أنهت الأم الجزعة تساؤلاتها التي نحرت فؤاد همام بقسوة الإجابات المتوقعة، في حالة طفله كانت

الأسباب واضحة ومندرجة تحت ما يسمى بالانتقام، لكن هنا!

أي انتقام والأسرة بالكاد تقيم هنا ويعرفها الجيران! ربما أرادوا الطفلة للمتاجرة بأعضائها أو لدفعها للتسول والاستفادة منها، كلها إجابات حامت بتلافيف مخه دون أن يترجمها لقول أو فعل، بل ظل يلوك صمته ويسمع نحيب الأم المكلومة ومواساة الأب المفجوع لها دون أن يقدم أو يؤخر، ولكنها عرفت أن مرارة تساؤلاتها أكبر من إيجاد إجابة لها في جلسة مع ضيف غريب من رجال الشرطة، وهي التي قضت الأشهر المنصرمة تسألها لنفسها وكل من حولها دون إجابة شافية

لروحها المنتزعة بقسوة من بين أضلعها، لذا تناولت صورة أخرى وناولتها له متابعة بغصتها:

هذه الرسمة التي رسمها رسام الشرطة بمواصفات السيدة التي اصطحبت ابنتي معها، حسبي الله بها.

قالتها بحرقة ثم صمتت.

تناول همام الرسمة مطالعًا إياها باهتمام وتركيز شديد قبل أن تبرق عيناه بشدة، لديه حدس بأنه يعرفها أو ربما رأها أثناء عمله بالعاصمة، لا يعلم تحديدًا أين ولكنه واثق بأنه رأها، سأل بلهفة:

هل هذه الصور بملف ابنتكم الضائعة لدى الشرطة ؟ كاد أن يزل لسانه وينطقها «المقتولة» لكنه تدارك بآخر لحظة وحفظ لسانه.

أجاب الأب ببعض الحدة:

الشرطة لديها كل ما يخص ابنتي ورغم ذلك لم تقدم لنا أي خبر يثلج صدورنا.

أراد همام أن يخبره بأن ما تملكه الشرطة من أخبار سيصيبه بمقتل ولن يثلج صدره البتة، ولكنه آثر الهدوء فقال مواسيًا بأن الشرطة تبذل وسعها وتربط جميع الأطراف والقضايا ببعضها البعض حتى يصلون للحقيقة.

انتهى الحوار عند هذا الحد بينهم فنهض همام مستأذنًا، وقبل أن يغادر صافح الأب ثم اختلى به على جانب بعيدًا عن سمع الأم ليطلب منه زيارة إلى مركز الشرطة حيث يعمل، فهناك خيط من

الأخبار يلوح بالأفق وقد يصل بهما إلى بر الحقيقة حتى وإن كانت وعرة.

خرج من المنزل يحمل أطنانًا من الهم فوق كتفه، ما لهذه القضية تبدو شائكة وكلما ظن أنه قد أمسك بطرف خيط يصل به إلى الحقيقة حتى يجد أن الخيط قد تشابك وألقى به في قضية أخرى! هل هذا هو قدره بالحياة، أن يسير من وضع شائك لوضع أصعب منه؟!

تنهد بتأفف قبل أن يقرر المرور على مركز الشرطة حيث تم الإبلاغ عن اختفاء الفتاة سابقًا، يريد بعضًا من البصيرة وقد أمل أن يساعده الكلام مع ضابط آخر على المضي قدمًا ليقطع بعض الأشواط في هذه القضايا المعقدة والمندرجة تحت ملف قضية

واحدة، قضية قتل فتاة وتعدٍ على أخرى ووجود جثث مجهولة الهوية والأسباب.

***

تطلع باسل بغضب لزوجته ثم أشاح بوجهه للجهة الأخرى دون أن ينطق، ما زال الحنق يشعل داخله ويطغى على لينه وتسامحه معها بكل السنوات السابقة؛ فشعوره بأنه قد أوشك على فقدان ليلة تلك الليلة _وفي قرارة نفسه علم أن سبب إصرارها على الرحيل كان هروبًا من معاملة سلمى لها_ دفعه للغضب من زوجته كما لم يفعل من قبل، غضبه أعماه عن محبته لها ويحمد الله على أنها لم يفقد أخته بسبب زوجته، فلا يعلم ما كان سيترتب على ذلك في علاقتهما رغم حبه الجم لها.

استشعرت ليلة الراقدة على فراشها تنظر نحوهما التوتر بالأجواء فقالت لتخفف حدة العاصفة بينهما:

سعيدة بقدومك يا سلمى، لكن لا أريد أن أشتت الأسرة معي أكثر من ذلك، يمكنك يا باسل العودة لعملك الذي توقف كثيرًا فالحمد لله بت بأفضل حال.

قالتها مشيرة إلى نفسها بطريقة ساخرة وقد ابتسمت تغمزهما فابتسم باسل ولقد لمح دعابتها بينما تدعي الجدية، لذا قال مجاريًا لها بالحديث:

نعم وأفضل حال يشمل كل هذه الأربطة والجبيرة وأنابيب الإرواء المتصلة بجسدك، أليس كذلك؟

تطلعت لهما سلمى وقد عادت غيرتها لتشتعل قليلًا لكنها سارعت لوأدها في مهدها قبل أن تفقدها قرارها الذي اتخذته من قبل، قالت بلطف:

لقد اتخذت قراري يا ليلة، سأبقى معك إلى أن تعودي للإقامة معنا مرة أخرى، غيابك أحال حياتنا إلى ضباب.

رمقها باسل بدهشة حاول إخفائها بينما تطلعت نحوها ليلة بامتنان قبل أن تقول بهدوء:

لا أريد تشتيتكما معي، كما أنني وددت أن أطلب طلبًا.

قالتها وعادت ترمق باسل بعينين ممتلئتين بالرجاء قبل أن تردف حين لاحظت نظرة اهتمامه التي رمقها بها:

أريد البقاء بمنزلي حتى تنتهي التحقيقات، العودة إلى منزلكما سوف تبقيني بعيدةً عن المتابعة وهذا ما لا أريده.

حدق بها باسل بصمت ذاهل قبل أن يفتح فمه عدة مرات ليعود ويغلقه وكأن الكلام استعصى عليه الخروج بسلاسة من فمه، أو لم يجد الكلمات اللائقة التي قد تعبر عن سخطه وغضبه، راقبت سلمى الأجواء المشحونة بينهما قبل أن تسارع للقول بلطف كي تنهي حدة التوتر:

سيكون العودة لمنزلك حيث شاهدتِ جريمة القتل أمرًا صعبًا للغاية.

أصرت ليلة بطريقة طفولية وقد ترقرقت الدموع بعينها:

لكن هذا ما أريده، منزل حليم بات مرتعًا للمجرمين والمشردين بعد رحيله ولأنني هجرته، لا أود هجر حليم مرة أخرى، لا تعلمين كم احترقت بذنب هؤلاء الأطفال وكأنني المسؤولة عما أصابهم، صدقيني أريد العودة لكسر هذا الذنب الذي حملته على كتفي وكأنني أستحق مزيدًا من الأعباء.

انفجر باسل بعنف:

عن أي ذنب تتحدثين؟! لقد رحل حليم يا ليلة، أتعرفين معنى رحيله؟ هذا يعني أنه لن يعود ولن يلومك عما حدث بمنزلكما، ليس ذنبك إن استغل الأوغاد غيبتكما ليفعلوا ما فعلوه، ليس ذنبك وكفي عن تحميل نفسك الذنب نحو كل ما يحدث، فهذه أقدارنا وليست ذنوبنا!

بكت ليلة بعنف وكأنها لم تحتمل كلام باسل القاسي الموجع لقلبها المكلوم رغم واقعيته، ما زالت تحمل نفسها ذنب رحيل بلال مع حليم، فقد أصرت عليه أن يسافر مع زوجها وشريكه بالعمل كي يحصل لنفسه على بعض الرفاهية، كانت فكرتها وها هي تسير على أشواك وخز الضمير التي تلاحقها منذ سماعها خبر وفاتهما، قلبها المرهف يترجم كل ما يحدث حولها وكأن لها يدًا بحدوثه.

اقتربت منها سلمى فاحتضنتها متطلعة لباسل بنظرة عتاب وكأنها تلومه على كلامه القاسي في وقت لا تحتاج ليلة به سوى ربتة على الظهر وضمة إلى الصدر حتى تستكين، ستة أشهر ليست بالمدة

الكافية كي تبرأ من أفكارها الضبابية وأوجاعها اللا نهائية.

خرج باسل من الغرفة ينفخ بضيق فزادت سلمى ضمتها إلى أحضانها حتى انصهرت بها ليلة منهارة تبكي خوف ورعب ووجع الأيام الماضية، همست لها سلمى متعاطفة وقد أنساها بكاء ليلة غيرتها اللا منطقية منها:

افعلي ما تريدين وسأكون جوارك، إن أردت البقاء بمنزلك فسوف أحضر الأولاد ونقيم معك حتى تشعرين بالاكتفاء.

قالتها بصدق وقد انتوتها بحق رغم معرفتها بأن باسل لن يسمح بهذا أبدًا..

لكن ليلة تستحق..

وذنبها الذي تحمله على أكتافها نحو ليلة كان يدفعها لهذا بشدة.

***

عاد همام إلى منزله بوقت متأخر فاقدًا للإدراك، فزيارته لمركز الشرطة وقضائه بعض الوقت مع الضابط المسؤول هناك زاده تشاؤمًا، كانت هناك عدة حقائق تحتاج إلى التفنيد لذا هرع سريعًا دون أن يبدل ملابسه نحو فراشه، جلس عليه طاويًا قدميه تحته ومستندًا بظهره على الوسائد بوضع أفقي وقد أمسك مفكرته الأثيرة بين يديه ولديه ورقة أخرى مدون بها بعض الملاحظات التي حصل عليها من مركز الشرطة المقدم به بلاغ الطفلة المفقودة تلك، بدأ يمارس هوايته المفضلة بربط

الحقائق وتلخيصها سويًا حتى يصل للنتائج التي يتمناها.

الطفلة مفقودة منذ عدة أشهر لا تتجاوز النصف عام، عدة بلاغات أتت إلى الشرطة من أناس ظنوا أنهم رأوها وكلها قيدت كبلاغات وهمية، فقد تبرعت الأسرة وأنشأت صفحة على تطبيق الفايسبوك لاستجداء الناس أن يتبرعوا بمعلومة واحدة عن مكان ابنتهم، أحد البلاغات كاد أن يكون منطقيًا فقد أبلغت سيدة تسكن العاصمة عن رؤيتها للطفلة بصحبة سيدة تبدو مطابقة لصورة السيدة التي رسمتها الشرطة، دون همام عنوان تلك السيدة مقررًا استجوابها إن استلزم الأمر، هناك بلاغ آخر يأتي مشابهًا لمواصفات السيدة

وبصحبتها رجل ضخم في مقهى بأحد الأماكن الشعبية والبلاغ مقدم من مجهول، استوقف البلاغ الرائد همام..

كتب عنوان المقهى بمذكرته الخاصة ثم عاد يسترجع المعلومات التي بحوزته، كان ذلك البلاغ قد مضى عليه ما يقارب الشهرين أو أقل قليلًا، هذا أوجد لديه دافعًا غريبًا بالبحث والتقصي وكان قراره بزيارة المقهى بالغد هو ما يلح على رأسه وكأنه هاجس، ظن أن وصوله لذلك المقهى والتأكد من وجود السيدة به تلك الليلة سيكون تأكيدًا على سيره بالطريق الصحيح، رغم عدم تأكده من نتيجة سعيه خلف تلك الحقيقة.

تطلع لساعته فوجد أن الوقت قد تأخر قليلًا كي يتصل بأحد زملائه القدامى بالعمل طالبًا منهم التحري عن المقهى وعن وجود السيدة تلك به، لذا أرجأ التصرف للصباح حين يستيقظ، وضع أوراقه وأزاح أفكاره جانبًا ريثما يبدل ملابسه ويتناول طعامًا سريعًا أحضره معه من الخارج، نظر بحسرة لشطائر الكبدة التي يتناولها مغمغمًا لنفسه يواسيها:

«كنت أتناول طعامًا جيدًا ذات مرة، وها أنا مجبر على تناول هذه النوعية من الأطعمة التي لا أعرف مصدرها ولا جودتها وهذا فقط لأنني قررت الهروب من الماضي، لو رأتني الوالدة أتناول هذه القمامة لتبرأت مني إلى يوم الدين.»

على ذكر الطعام الجيد الذي كان يتناوله توارد إلى ذهنه ذكرى زوجته الراحلة، شعر بغصة تخنقه من حلقه وعافت نفسه بقايا الطعام فأزاحها جانبًا متناولًا زجاجة المياه الصغيرة يجرعها دفعة واحدة، شعر بحاجته لجرعة النيكوتين التي أقلع عنها مؤخرًا وما زال يصارع حتى ينساها بتاتًا، انقلب على جانبه على فراشه ومد يده ليطفأ الإضاءة الجانبية للمصباح على الكومود الوحيد بالغرفة ثم استكان جسده بالفراش حتى يحسبه الرائي قد نام، بينما عقله يعمل كمحرك ذري ينفث البخار فتلتهب أفكاره وتشتعل، عاصفة من دوامات التخيلات تزوره وتطغى على رتابة أفكاره المعتادة ثم أتت هي على حين بغتة فهدأ كل شيء، وكأن

حضورها هو ماء المطر فاستكانت العاصفة وتلاشت تدريجيًا حتى لم يبق منها سوى غصة ونظرة، نظرة عينين واسعتين تخبرانه بأنها تثق به وبأنه سيحميها ويعيد الحق إلى أصحابه، تحرك من رقدته المستكينة لينام على ظهره وما زال مظهرها بالضمادات والجبيرة يطارد خياله ويحفز تأنيب ضميره، شعوره بأنه المسؤول عما آلت إليه أحوالها كان يتعاظم بداخله، مد يده فأمسك هاتفه تلقائيًا ليتصل بها وكأنه يريد أن يجنب ضميره هذه العذابات التي تطارده، صوتها وصله ناعسًا فأخمد كل ما يشعره تجاه وضعها وبقي إحساس واحد فقط يطفو على القمة.. إحساس بالحاجة للاطمئنان على حالها وصحتها، وقد كانت حاجته ملحة للغاية.

***

أتاه صوتها خافتًا مكتومًا وكأنها تبكي أو تتألم، انتفض بقلق يسألها عما بها لكنها لم تجب سوى أنها بخير، لم يقنعه ردها بل زاده إصرارًا ليسأل:

أعلم أنك لم تبرأي بعد، لكن صوتك يحمل الألم، هل ما زال الألم لا يحتمل؟

اندفع بسؤاله قلقًا محاولًا الإلمام بحالتها الصحية وكأنه إن عرف أنها لا تتألم سيشعر أنه بخير، بداخله شعور غامض مبهم أن قلقه وأفكاره المبعثرة سوف تستكين حينما يشعر أنها بخير.

وصله صوتها يحمل بعض الدهشة والحيرة تخبره بأنها تتألم للغاية، ولولا المهدئات التي يحضرها لها باسل لما استطاعت تجاوز ذلك الألم العاصف

بداخلها، صمتت فصمت عاجزًا عن إيجاد ردٍ مناسبٍ، ناسبه وشاح الصمت الذي ارتدته ليعيد ترتيب هندام أفكاره ويجد جملة مفيدة يواسيها بها، لم تمهله لتسمع هذه الكلمات وقد حفزها الهاجس الذي بات يؤرقها بخصوص تحقيقات الشرطة الجارية، سألته بقلق:

هل توصلتم لهوية هؤلاء الأطفال؟

.. أي أطفال؟

سأل ممتقعًا وقد كان متأكدًا بأنه لم يخبرها ولم يخبر إلا أخيها، أيعقل أنه أبلغها بنفسه؟ يا له من عديم الفهم!

_ الأطفال الذين.. المدفونين خلف منزلي. أجابته بتقطع وكأنها تعجز عن تكوين جملة صحيحة.

.. لم أخبرك عنهم، كيف علمت بشأنهم؟

_ أخبرتني صديقة تقيم قريبًا من منزلي، كيف لا تخبرني بشيء كهذا والمنزل منزلي ويحق لي معرفة ما يدور بالأجواء؟

سألته بعتاب رقيق برقة صوتها.

لم يجد ردًا يخبرها به سوى الحقيقة دون تجميل، قال لها بهدوء:

.. لأن حالتك الصحية لم تكن تحتمل، يكفيك مشهد تلك الجريمة التي رأيتها بعينيك وستظل قابعة هناك بركن من الذاكرة طوال العمر، كما أنني لم أعتد مناقشة القضايا التي أحقق بها مع الغرباء.

صمتت للحظات تستوعب تلك الحقيقة الصارخة المتناقضة بكلامه، يخبرها أنه يهتم لحالتها الصحية ثم يتبعها بكلمة غرباء، لكنه أصرت على ما تريد لذا سألت بإصرار:

_ هل عرفت هوية هؤلاء الأطفال؟

.. ليس بعد، بالحقيقة هناك طفلة قابلت من أظن أنهم أهلها وطلبت منهم الذهاب للتعرف عليها.

صمت شاعرًا بالضيق من مجرد التخيل لما سيحدث لهم إن تأكدوا أنها ابنتهم، منذ عودته وصورة الخاطفة ذات الرداء الأسود تلح على ذاكرته بأنه يعرفها، بل وتنبثق ملامحها كل حين من خلف غيامات الذاكرة فكأنها تطل عليه بصورة قديمة مشوشة الملامح، نسي أن هناك على الطرف الآخر

من الهاتف امرأة أصابها صمته بالقلق فقالت تناديه:

_ حضرة الرائد!

لكن صوته المندفع بعنف أوقف نبضها بموجات الخوف التي بعثرت سطح استكانتها وهي تسمعه يهتف بانفعال:

.. نعم إنها أنت، كنت أعرف أنك هي من فعلها من قبل، لن تفلتي مني هذه المرة أبدًا أبدًا.

تلا جملته صوت سقوط وتحطم جسم زجاجي أرضًا وصرخة حادة حانقة منبعثة من حلقه يهتف بها «ماذا فعلت ياغبي؟ اللعنة على هذا.»

وانقطع الاتصال تاركًا ليلة تحدق ذاهلة بالهاتف وقد اصفر وجهها واتسعت عيناها وزحفت البرودة على كل أطرافها حتى وصلت إلى ظهرها المستلق على الفراش مقيدًا فيزيد قيده أحمالًا.

***

الفصل العاشر

إنه طريقك وحدك، قد يرافقك فيه أحدهم لفترة من الوقت لكن

لن يكمله أحد غيرك.

جلال الدين الرومي.

رحل باسل بغضب بعد فشله بإقناع ليلة بالعدول عن رأيها، فرغم طيبتها وهدوئها إلا أنها تتمتع برأس صلب كالحجر، وما إن تضع نصب عينيها أمرًا حتى تستميت لتنفيذه، أليس عنادها هو ما أوصلهما للذي هم فيه؟

لكنها تبدي تعلقًا لا منطقيًا بالقضية وكأن تلك الفتاة التي ماتت تهمها بشكل أو بآخر، يئس من

إفهامها أن الفتاة قتلت لغبائها واستهتارها بوالديها وأصرت هي على رأيها بأن الفتاة ضحية للمجتمع ولوالديها، فلو اهتما بتعليمها السلوك الصحيح وأشبعا احتياجها حبًا وحنانًا لما بحثت عنه بالخارج ولما سارت في مستنقع أزبال العلاقات، ولم يعرفا أبدًا أن الفتاة كانت يتيمة الأم والأب غارق في مساعيه نحو ما يظنه هدفًا بهذه الحياة، وانتهى النقاش بينهما بانسحابه غاضبًا بظاهره بينما قلبه قد تسلل إليه بعض الفرح؛ فها هي تجادله وتناقشه كليلة التي يعرفها طوال العمر، ليلة ذات الرأي والمبادئ التي لا تتنازل عنها بسهولة ولا تستكين إلا أن حققت انتصارًا بإقناع مناقشها بآرائها، أما ليلة التي خلفها موت حليم

وراءه فلم يكن يعرفها ولم تكن تشبه أخته أبدًا، همومها تسكن ملامح وجهها وعيناها المتألقتان دائمًا انطفأت لمعتهما وكأنهما كانتا تستمدانها من وجود حليم بحياتها، كالوقود الذي ينير العتمة وحين ينفد يزحف الظلام ليغلف البهجة والأفراح، المهدئات التي أدمنتها بعد فقد طفلها كانت تنذر بالخطر، ولولا وقوفه جوارها لكانت قد انخرطت بدرب الإدمان بكل يسر وسلاسة، فضربة مؤلمة للقلب كفيلة أن تزلزل الكيان لعمر طويل، فكيف بثلاث ضربات موجعات مهلكات وكلهن موجهات إلى ذلك الذي يخفق لأجل الحياة!

أما عن موقف سلمى فقد أعجبه للغاية، لا ينكر غضبه منها لمؤازرتها أخته في عندها وغيها لنفسها،

ولكنه يجدها بادرة غير مسبوقة لأن تغضبه سلمى لأجل ليلة.

لم يفهم أبدًا سر نفورها من ليلة، لكنه خمن بداخله سببًا قد يكون منطقيًا لما يحدث، فسلمى لا تتورع عن الشكوى من معاملة إخوانها لها، ولا تكل أبدًا من ذكر معاملته وبلال لأختهما ومقارنتها بنفسها.

بلال الأقرب عمرًا من ليلة، علاقتهما تشوبها بعضًا من الندية والتفاهم ويتخللها الكثير من المزاح والمرح، فبطبيعة الحال لم يكن يملك ذات الطباع الدفاعية التي يملكها باسل نحو أخته الصغيرة، ولكنه لا ينكر اهتمامه بها وتفهم تفكيرها ودوافعها بأقرب مما يفعل هو، أما خطيبته ياسمين فقد كانت علاقتها أكثر بساطة من علاقة سلمى بليلة،

ياسمين تقرب ليلة عمرًا وزاد على ذلك تقاربهما بحكم الجيرة، لم تكن صديقتها المقربة لكن بساطة العلاقة بينهما كانت تأسره وتشعره بالغضب قليلًا جهة زوجته.

تنهد في أسى واستغفر الله بسره، فتذكر علاقة زوجته بأخته لن يقدم أو يؤخر شيئًا مما حدث بالفعل، يكفيه أن يرى محاولة زوجته أخيرًا للتقرب منها بعد أن وبخها وأزاح الستار عن عينيها، لذا فقد تظاهر بالغضب ورحل مطمئنًا أن سلمى ستحاول جهدها لتحسين وضعها بالقرب من ليلة، سيستطيع أخيرًا العودة إلى حياته العملية الراكدة منذ إصابة أخته، وبالقريب سوف يرغمها على العودة إلى منزله بالعاصمة مرة أخرى، وستكون

هذه المرة بلا رجعة، فمنزل زوجها الراحل سيُعرض للبيع بأقرب فرصة يستطيع إقناعها بها، لا مزيد من الوحدة ولا من الذكريات البائسة.

ولم يعلم أن ذكرياتها البائسة ستلاحقها لأخر العمر؛ فبصمة الموت لا يمحوها التخلص من الأثر!

***

بقيت ليلة تبكي بصمت بعد رحيل باسل غاضبًا منها، لأول مرة بحياتها تستشعر غضبه عليها بهذه الطريقة، لم تحزن من فعلته لأنها عرفت أن خوفه عليها هو مبعث ذلك الغضب، لكنها لا تريد ولو للحظة أن تشعر بأنها أثقلت عليه وأحزنت قلبه وكان هذا مبعث بكائها وقلقها.

تزايدت حدة الألم الذي تشعر به في وركها؛ وكأن آلامها وأوجاعها النفسية تضافرت مع آلام جسدها وأوجعتها وجعًا مضاعفًا، ما زال تفكيرها يعود بها إلى سبب خلافها مع أخيها الذي تقدره أيما تقدير، هناك دافع ملح لا يفتأ يعود إلى نفسها يحثها على الإيمان بما تشعر به، حتى وإن كانت النتيجة استجلاب غضب باسل، فجريمة القتل التي لا تعي كيفية حدوثها إلى الآن تدعوها للعودة إلى المنزل، وكأنها إن فعلت ستعيد حق تلك الفتاة المغدورة، بل وهؤلاء الأطفال الذين عرفت بأمرهم من ياسمين حين حادثتها بالأمس تطمئن على حالها وتسألها عن سير القضية ظنًا أنها تعلم، وهناك تلك الدعوة الصامتة من قبور عشوائية أوجدت

بقسوة بني البشر دعتها للعودة لتفهم سرها، فهناك تقبع ذكرياتها مع حليم، بالمكان جزءٌ من روحه التي تناديها، وهؤلاء الأطفال يشعلون حنينها لجنينها الذي أمسكته ميتًا بين ذراعيها تقبله وتقبله حتى انتزعوه من بين يديها بالقوة قبل أن يدفعوا بالمهدئات إلى أوردتها حتى تغيب عن الوعي، ومن ذلك الوقت ودعت أجزاءً من روحها لتدفن معه للأبد.

تسللت إلى قلبها أوجاعٌ مضاعفةٌ حين تخيلت أن صغيرها الذي أنجبته عاش معها عمرًا ثم انتزع بالقوة من أحضانها فلم تعرف له طريقًا، تمتمت بالرحمة لأهالي هؤلاء الأطفال مفجوعي الفؤاد بفلذات أكبادهم، تسللت دموعها بصمت على

وجنتيها دون أن تحاول إيقافها، ثم رن هاتفها فسارعت لتجيب الاتصال قبل أن تستيقظ سلمى التي تغط على الأريكة جوار فراشها بنوم ثقيل كعادتها، دارت محادثة سريعة بينها وبين رائد الشرطة وقد وجدت بنفسها فضولًا وشغفًا لتستطلع منه آخر مستجدات القضية التي يعمل عليها، لكنه كان سمجًا ولم يرو فضولها أو يطلعها على ما تريد، بل زاد الأمر رعبًا حين أنهى مكالمته بهذه الطريقة التي توحي بأن هناك من تسلل خلفه.

والآن ترقد على فراشها عاجزة عن التفكير بطريقة سليمة وعيناها تحدقان بالسقف في توتر شديد حتى ليحسبها الرائي تستطلع على السقف ما

يرعبها، ولن يتخيل بأن ما يرعبها هي تلك الأفكار المخيفة التي تطوف بخيالها عن مصير الرائد همام، مدت يدها فأمسكت هاتفها تنظر للساعة المضيئة على شاشته، فيفاجئها الزمن بمرور نصف ساعة من دوران عقاربه بعد انتهاء مكالمتها مع همام، نصف ساعة قضتها مضطربة تصارع خفقات فؤادها وسوداوية أفكارها قبل أن تقرر ألا مزيد منهما، وعليها أن تجري مكالمة بسيطة تعرف بها مصيره، طال رنين الهاتف حتى أوشك على الانقطاع ثم أتاها صوته مشوشًا متحيرًا:

.. مرحبًا.

تأتأت بخجل تبرر اتصالها:

_ مرحبًا، معذرة لكن.. أقصد.. هل أنت بخير؟

.. نعم بخير لكني منشغل بإجراء بعض الاتصالات الهامة، هل..

قطع سؤاله الذي سيبدو قليل التهذيب لإلقائه على مسامعها لكنها فهمت ما خلف النقاط فقالت بتوتر:

_ قلقت لكيفية انتهاء اتصالك بي المرة السابقة، فقد تحدثت مع أحدهم وهناك صوت تحطم الزجاج وصرختك، لقد ظننت.. أقصد شعرت أن هناك من يهددك!

.. بحق الله من سيفعل؟! أنا ضابط شرطة أحمل سلاحًا مرخصًا ولن يجرؤ أحدهم على اقتحام مسكني، الأمر وما فيه أنني أسقطت صحن طعامي أرضًا فتحطم وأصابتني شظاياه بجرح

سطحي وبعض الخدوش، ليس بالأمر الخطير لا تقلقي.

أتاها رده بهذه الكلمات رغم أنها استشعرت توتره وانشغال ذهنه، لكنها تحدثت وكلها إصرار وعزيمة:

_ لا بأس عليك طهورًا إن شاء الله، خيل إلي أنك كنت تتحدث إلى إحداهن، هل تريد أن تخبرني أنك لم تكن تتحدث إلى أحد!

صمت قليلًا قبل أن يستنشق نفسًا مسموعًا لأذنها ثم يتحدث بهدوء:

.. هناك سيدة رأيت صورتها بتحقيقات القضية التي أتابعها الآن، ومنذ ذلك الوقت وصورتها تلح

علي وتخبرني بأني أعرفها من قبل، حين كنت أحدثك قفزت صورتها بوضوح تخبرني بأنني أعرفها من قضية سابقة ولم نستطع إثبات أي تهمة عليها فأطلقنا سراحها وفر المجرم بسببها، انفعلت مع تلك الذكرى فأسقطت صحن عشائي أرضًا، أخبرك بهذا الأمر فقط كي لا تظني أنني مجنون يحدث نفسه بخلوته. قالها مبررًا ومتعشمًا ألا تشك بقواه العقلية وتتساءل عن سلامتها.

_ لا تقلق، فأنا أعلم ما يحدثه انشغال الذهن والتفكير كثيرًا بكل تلك الأمور التي أخفقنا بها وما زالت خيباتنا تلاحقنا، لذا لا تقلق أن أحكم عليك بأمر أفعله بأكثر الأحايين.

صمتت على حافة الرغبة أن تسأله عن كل ما خفي عنها بأروقة هذه القضية التي تدور انطلاقًا من فناء منزلها مباشرة إلى غرفة المشرحة، لكنها خجلت أن تبدو فضولية بأكثر مما يحتمل لذا اكتفت بالمتابعة بكل تهذيب:

_ أتمنى لك التوفيق بحل هذه القضية الوحشية، سأعود للإقامة بمنزلي ما إن تسمح لي المستشفى بالمغادرة؛ حتى أكون قريبة من سير تحقيقاتك إن احتجت وجودي بأية وقت.

.. تمنياتي لك بالشفاء العاجل ويسرني قرارك بهذا؛ فلم نحصل على إفادتك رسميًا بعد. أجابها بكياسة وبداخله رغبة في العودة لما كان يفعله قبل اتصالها به.

انتهت المكالمة بينهما عند هذا الحد تاركة كل منهما غارقًا بأفكاره وتخيلاته، فليلة التي ألهبها الحماس لا تعرف بما يدور في ذهن الرائد الهمام الملبد بكل غيمات الأحاجي التي يحاول حلها باستماتة، ولم تكن تعرف أن وجودها بالمنزل سيفيد التحقيقات بما يجلب على رأسها مصائب جديدة، فبعض التخطيطات تأتي بما لا يناسب تصور النهايات، بل ربما تكون النهايات أشد بؤسًا من واقع تصورها!

***

مرت الليلة على الرائد همام بأسوأ مما يتمنى، فالرغبة بحل القضية تحرقه وتئد كل سلامه النفسي تحت ركام القلق والعجالة، ساعات الليل

مرت ثقالًا وكأن تعجله لمرور الوقت يصيبه بالعناد فيتبجح بالمرور بطيئًا مستلذًا شعوره بالاحتراق!

بالكاد انتظر حتى وصلت الساعة السادسة صباحًا فانطلق دون إبطاء يحث الخطى نحو منزل الحاج علي كأول مهمة يفتتح بها يومه، فهناك أسئلة عالقة يسعى إلى إجابات شافية لحيرته بخصوصها.

قابله الرجل الذي صبغ الشيب شعره ورسم الحزن ملامحه بصمت، لكن الرائد لديه رغبة جامحة باستكمال جمع الخيوط فاعتذر بكلمات سريعة جوفاء عن كونه أتى بهذا الموعد المبكر ثم باشر بأسئلته:

_ أخبرتني أن ذلك السمسار حاول باستماتة شراء قطعة أرض منك، ألا تعرف السبب؟

.. لم يخبرني سوى بأن هناك مستثمر يشتري الأراضي بهذه المنطقة سعيًا لإقامة مزرعة كبيرة للدواجن.

_ ألا تعرف من هو المستثمر؟

.. لا أعرفه، وحسبما أعتقد لم يره أحد، حقيقة لا أتذكر اسمه لكن يمكنك سؤال بعض جيراني بالأرض سابقًا، فقد باعوا أرضهم له عن طيب خاطر.

همهم الرائد متعجبًا وكأنه يفكر بسؤاله الثاني ثم طرحه بعد قليل من الصمت:

_ أخبرتني أنه نجح بشراء أرض جيرانك لكنك رفضت! ما السبب؟

.. يا سيدي الأرض لنا معشر الفلاحين بمقام الابن، نشتريها ونواليها ونرعاها جيدًا فترد لنا الدين مضاعفًا بمحاصيل وفيرة، كما أن الأرض بهذا المكان خصبة للغاية ما كنت لأبيعها برغم المبلغ الكبير الذي عرض علي، ثم إنني لا أحتاج المال ولله الحمد حتى أبيع ما أملك بينما أزيده كل عدة أعوام بما يتوفر لدي من مال.

_ إذًا لم تبع الأرض لهذا السبب، امممم! حسنًا لدي طلب، أريد رؤيتها وإن استطعت أن تدلني على بعض جيرانك السابقين لك بالأرض سيكون هذا مفيدًا للغاية بسير التحقيق.

أومأ الرجل موافقًا وقد توحشت نظراته قائلًا بغل:

أود أن أعرف لم قتل ابنتي ذلك الحقير؟ والله لو رأيته لقتلته بيدي العاريتين دون أن أشعر بالتردد لثانية واحدة.

رمقه الرائد همام ببرود قبل أن يتحدث بتأنيب:

أقدر حالتك النفسية ومن حسن حظك أن الرجل قتل بحادثة سيارة بمحافظة أخرى وإلا لكنت اتهمتك بفعلها، وحتى الكشف عمن فعلها لا أود أن تتبجح بكلامك هذا أمام الناس؛ فزلة لسان واحدة قد تهوي بك من حالق. أما بخصوص سبب مقتل ابنتك فربما كان المجرم قد أغراها بتسليمه ورقة إثبات حيازتك لقطعة الأرض تلك، لذا عليك التأكد الآن من وجودها قبل أن ترشدني لمكانها.

صدم الرجل وتباينت ملامحه بين الغضب والتوتر والدهشة قبل أن يندفع للداخل بانعدام لياقة تاركًا همام يقف على الباب دون أن يدعوه للدخول، فما كان من همام إلا أن دعا نفسه للدخول دون استئذان بغية رؤية نتيجة بحث الرجل، بداخله فضول ألا يغفل أي تفصيلة بسير القضية.

حين اقترب من غرفة نوم الرجل وجده يقف جوار الفراش وقد بعثر ما بداخل حافظة أوراقه عليه يبحث بسرعة وتوتر بين ورقاتها ولسانه يردد بلا كلل «مستحيل لن تفعل بي هذا! ليست ورد من تطعنني بظهري هكذا! لن أسامحها، لن أسامحها!»

ظل يردد جملته وصوته يخفت تدريجيًا حتى انقضى وذهب بينما ينهار الرجل على الفراش

متكومًا دون صوت، اقترب الرائد يربت على كتفه بإنسانية لم تنسها له قسوة العمل ولا ضغوطات الحياة، قال بصوته الهادئ: سأعيد لك حقك، لن يهنِئوا بحياتهم ما دمت خلفهم بأمر الله.

رفع الرجل عينين محتقنتين دون دموع يتطلع للرائد وكأنه لا يراه، خرج صوته من شفتيه المرتجفتين بهمس:

أخذوا أرضي وابنتي، ليتهم أخذوا أرضي وتركوا لي ابنتي الحبيبة، لم أفعل ما يؤذي أحدهم بيوم من الأيام، كنت طوال العمر أغلق بابي وأنشغل بحالي، أتراني أخطأت حتى أستحق هذا العقاب القاسي؟!

_ استغفر الله، لا نملك الاعتراض على أقدارنا التي كتبت علينا، فلن يزيدنا اعتراضنا إلا سخطًا ونقمًا وستحاوطنا التعاسة كثيرًا.

كان يتحدث بلسان همام الإنسان لا ضابط الشرطة، الإنسان الذي فقد مقومات حياته دفعة واحدة وظل لشهر كامل لا يفعل شيئًا سوى التطلع بصورة ابنه وزوجته ويسأل نفسه كيف تسبب بمقتلهما؟ ما زال يعاني إلى الآن تبعات تأنيب ضميره فلم يعد بقادر على التواصل مع أهل زوجته الراحلة، لا يحتمل أن يقرأ بنظراتهم رسائل اللوم والتأنيب، والدته أخبرته مرارًا أنهم لا يلومونه على ما حدث لابنتهم بسببه لكنه لا يستطيع أن يتجاوز ذلك الحاجز الذي قام بعد وفاتهما، ربما أوهامه

جموح ليلة
شيماء جاد

نابعة من عقله وضميره لكنه يراها واقعًا عليه التعايش معه طوال العمر، لذا فهو يعلم إحساس الرجل المنهار أمامه على الفراش حق المعرفة، وبطبيعة عمله تعود على مثل هذه اللحظات كثيرًا لكن شتان بإحساسه بها قبل وبعد خسارته لأسرته.

وجد أن عليه الانسحاب الآن ليترك الرجل يستجمع نفسه على أن يؤجل زيارته لرؤية الأرض محل النزاع بوقت آخر، فعليه التحرك لمركز الشرطة لمتابعة التحقيق واستكمال مهمة الأمس بالبحث عن السيدة ذات الملابس السوداء.

***

مر النهار في مركز الشرطة كمرور العاصفة مبعثرًا الرتابة المعتادة بالمكان، فقد توالت الأخبار تباعًا على الرائد همام رافعة معنوياته إلى الأعلى قليلًا. حين وصل لمركز الشرطة باشر بمتابعة القضية بخلاف الأعمال المعتادة بالمركز والقضايا الأخرى، ثم أجرى اتصاله بصديقه مصطفى ليعرف إن كان رقم السيارة الذي أعطاه له قد أتى البحث عنه بثماره أم لا، وكم كانت فرحته عندما وصله الرد على هيئة بيانات مكتملة تخص شركة الأنهار والتي كان موقعها الرئيسي بنفس المحافظة التي يعمل بها لكن بالمدينة الرئيسية، كان هذا لصالح تحقيقه؛ فيمكنه بكل بساطة إدارة التحقيق مع الشركة بنفسه دون اللجوء لمساعدة أفراد الشرطة بالمركز

هناك، دون العنوان قبل أن ينهي الاتصال مع مصطفى ليحادث زميله عاصم بمركز الشرطة بالعاصمة، حيث كان يعمل منذ عامين على قضية تخص التسول وأطفال الشوارع قبل أن تقودهم القضية لقضية المخدرات التي عمل عليها فيما بعد، حيث تبين أن بعض مروجي المخدرات يستغلون هؤلاء الأطفال في توزيعها دون أن يلفتوا الأنظار لما يفعلونه نظرًا لصعوبة تخيل أن هؤلاء الملائكة الصغار قد يتورطون بتوزيع هذه السموم، فكرة ألحت على رأسه أن الطرق قد تتشابك بعض الأحيان كي تقودنا نحو أقدارنا التي كتبت علينا!

كان قد حادث عاصم بالأمس بعد انهائه المكالمة مع ليلة ليخبره عن رغبته بالتحقيق مع جمالات

التي تم التحقيق معها بالقضية السابقة لأنه يريد الوصول لبعض الحقائق بخصوص طفلة عثر عليها مدفونة، وكانت أخر مرة شوهدت بها حية بصحبة سيدة تشبه جمالات تلك. أخبره عاصم بأنه سيبعث أحد الرجال بالصباح ليبحث عنها بالعنوان المسجل لديهم بملفها، وإن وجدت فسوف يخبره، وها هو الآن قد أخبره بأنهم ألقوا القبض عليها وتم احتجازها مؤقتًا إلى أن يستطيع همام الحضور لمتابعة التحقيق معها كخدمة له.

شكره همام بامتنان ثم تطلع بساعته فوجد أن الوقت يسمح له بالسفر إلى العاصمة، وربما إن حالفه الحظ استطاع الوصول إلى المقهى الذي تم

تأكيد وجود جمالات به مع شخص آخر بعد اختطاف الطفلة ريناد.

تبدو المهمة شاقة لكنها تستحق العناء؛ فالتحديات التي تحيط بهذه القضية تحديدًا هي ما تدفع الرائد همام للاستماتة بحل غموضها حتى وإن كانت على حساب راحته الشخصية، فما فائدة الراحة بينما هناك من يعاني بسبيل الوصول للعدالة!

عاد همام إلى شقته فلملم أشياؤه الشخصية واستعد لرحيله إلى العاصمة ليوم أو يومين حتى ينتهي من مهمته هناك، أجرى اتصاله بوالدته يخبرها بأنه قادم بمهمة سريعة وعليه فسوف يعود للإقامة معهما حتى تنتهي مهمته، هللت الوالدة

ليلة جموح

ثم أنهت المكالمة لتنهض من جلستها المستريحة كي تعد له طعامًا يليق بحضوره؛ فهي تعلم حق المعرفة أنه يفتقد إلى الغذاء السليم منذ انتقاله إلى تلك المحافظة.

أما همام فقد أقفل شقته قبل أن يتجه لسيارته بالأسفل في رحلة عمل قد تقوده إلى تحقيق أمله ببعض البصيص من الضوء تلقيه على ظلام القضية، لكنه تذكر قبلًا أن يعاود المرور على الحاج علي كي يرى الأرض محل النزاع، طبيعته الدقيقة بالعمل تدفعه للإحاطة بكل تفصيل يرد عليه بملف القضية، حتى إنه لم يغفل تلك الأقصوصات التي وجدها بمنزل المجرم المقتول حامد وسعى للبحث عن كل معلومة وردت بها، بل وذهب لأبعد

من ذلك بطلبه من المعمل الجنائي أن يبحث عن أسماء الجرائد التي انتزعت منها تلك الأقصوصات فربما يفيده معرفتها بشيء.

انطلق بالسيارة جهة منزل الحاج علي وما إن وصل حتى طلب منه الصعود معه ليذهبا إلى وجهتهما، لكن الحاج رفض قائلًا ببساطة أن الأرض قريبة ولا تحتاج للسيارة، سارا سويا خلال الأراضي المزروعة حتى توقفا عند مكان لا يختلف كثيرًا عما حولهما ولا يميزه شيء، مساحات مترامية من الأراضي الزراعية يقطعها بعض القنوات الصغيرة ويحفها من الجانب البعيد منحدر يفضي إلى صفحة الماء الرقراق، على مسافة ليست بالقريبة ولا بالبعيدة وقف منزل وحيد شامخ يحده سياج خشبي قصير،

حدق بالمنزل مندهشًا في صمت وكأنه يفكر قبل أن يلتفت حوله يراقب الأرض ووجه الحاج علي الذي تتراقص عليه ظلال المغيب فيبدو مبهم الملامح ضائع في الأفق بلا هدف، هتك حاجز الصمت اندفاع سؤاله موجهًا نحو الرجل:

من هم جيرانك السابقين، وهل باعوا جميعًا أرضهم؟

أومأ الرجل برأسه قائلًا بخفوت: أغلبهم فعل، كل الأراضي التي تجاور حدود الماء تم شراؤها، أرضي بالمنتصف تقطع امتداد ملكية المشتري الجديد، قالها مشيرًا بيده في الأرجاء فعلم أن أرضه تهم المشتري الجديد لذلك السبب، فما نفع أرض كبيرة يقطع امتدادها وجود دخيل، حينها الهدف

من اقتنائها سيذهب أدراج الرياح، بقي سؤالان مهمان، أولهما أطلقه الرائد همام عالمًا بعدم وجود ما يشفي فضوله لدى الرجل الآخر ولكنه سأله على أية حال:

ما سر هذه الأرض؟ هل هناك دافع قوي لامتلاكها؟

ملامح الرجل أظهرت توترًا خفيًا لم يلمحه الرائد بسبب غياب ضوء الشمس بالأفق وانتشار الشفق الأحمر على الموجودات مبدلًا كل الملامح والأشكال إلى ظل أحمر باهت، قال الرجل بتوتر وصل لسمع همام ولم يخطئه:

الأرض خصبة لقربها من ضفة النهر وسهولة ريها، كما أنها غالية الثمن ومن يملكها لا يمكنه التفريط بها.

_لقد باع كل جيرانك أرضهم، هل صاحب ذلك المنزل _ وأشار بيده نحو المنزل البعيد نسبيًا_ له أرض هنا؟

..تقصد السيد حليم رحمه الله؟ نعم كان يملك المنزل وكل الأرض المحيطة بمنزله وامتدادها إلى ضفة النهر، فأسرته من أعيان المدينة وأثريائها، ولقد ورث عن والده المنزل والأرض.

_ هل باع أرضه إلى ذلك المشتري المجهول؟

.. لم يبعها كلها، فقط تلك القطعة التي تقع في حدود أرضي وعلى امتدادها، كان يمر بكبوة في تجارته مع شريكه واحتاج لسيولة مادية والسعر كان مجزيًا.

فكر همام لحظات قبل أن يطلب من الرجل طلبًا بدا له عجيبًا، قال له بلهجة آمرة:

تحرك نحو الأرض التي كانت ملكه سابقًا وقف بها ثم أنر الهاتف وظل بمكانك حتى أوافيك.

قالها ثم تحرك من مكانه سريعًا يقطع الطريق بين المزروعات حتى وصل لبيت عبد الحليم القائم بشموخ بعزلته، دار حوله الرائد باهتمام وقد صدق ظنه، فها هنا بدأت القضية بوجود ابنة الحاج علي المقتولة، ويبدو أن ها هنا سوف تنتهي، كل الخيوط تبدأ من هنا وتنقطع هنا، وقف حيث استطاع رؤية إضاءة الحاج علي فدار برأسه يقيم المكان، وجد أنه يقف بالمكان حيث الشرفة التي تمت تحتها جريمة القتل، إذًا هذا الطريق الذي قطعته الفتاة لتصل

إلى هنا، لماذا تم اللقاء هنا وقد كان بإمكانه أن يتم بأي مكان، هناك سر بهذا المنزل! قالها متطلعًا بريبة للمنزل الكبير وكل ما يطوف بذهنه سؤال واحد، ما علاقة أصحاب المنزل بهذه القضية؟ يحتاج لرؤية ليلة بشدة، فبالتأكيد لديها بعض الإجابات، أم ربما كذب حدسه بها وببراءتها وكل الإجابات لديها؟

عليه التحقيق معها كمشتبه بها وليس كشاهدة، وهذا ما نواه عند عودته من سفره إلى العاصمة فمكان وجودها لن يؤهلها للفرار من تحت يده.

***

الفصل الحادي عشر

ربما الشفاء أحيانًا يكون جزءًا من الألم،

لا يمكن لأحد أن يطلب الشفاء ويتذمر من الألم الذي يصاحب الالتئام.

أحمد خيري العمري.

أخيرًا غفت ليلة بعد عذاب دام لوقت طويل، فقد بدأت وتيرة الألم تتصاعد تدريجيًا منذ عدة ساعات بينما تكتم آلامها بصمت حتى لم تعد تحتمل، فانفجرت تئن ببكاء ضعيف أقلق سلمى لتقترب منها بخوف متسائلة عما ألم بها، وجدت أن حرارتها مرتفعة ووجها ممتقع للغاية فهلعت ونادت برعب

للممرضة التي أسرعت بطلب الطبيب، وفي وقت قصير كانت ليلة تخضع لكشف دقيق علهم يتوصلون لسبب ارتفاع حرارتها، ثم استقر الأمر على إعطائها خافضٍ للحرارة وتكثيف جرعة المضاد الحيوي ومتابعة حالتها عن كثب، فلا سبب واضح يخبرهم أن الجرح قد تلوث أو أنها تعاني من مضاعفات خطيرة جراء الجراحة. طمأن الطبيب سلمى التي كانت قلقة بالفعل وقد خافت على ليلة، خوفها كان مبعثه احتراق ضميرها بعقدة ذنبه.

وها هي تجلس جوار فراش ليلة الشاحبة وحبات العرق الباردة تتجمع على جبينها وكأنها تتقاطر من منابت شعرها، مدت يدها بقطعة من القطن

المبللة بالماء البارد ترطب وجه ليلة ثم تجففه بقطعة أخرى جافة، لا تقو على خفض ناظريها وإبعادهما عن مراقبة وجهها الجميل المنطفئ الذابل، تتساءل بداخلها عما فعلته وعما جنته بحقها! أيعقل أنها كانت تغار منها لحب لم تسع إليه بل أتاها مُرَحِبًا من أخويها؟!

لسعة الإحساس بالذنب قارصة كمثل برودة الشتاء التي تغزو الأطراف فتجمدها وتصيبها بالألم، لكنه ألم غير قابل للاختزال، بل يتعاظم ويتزايد ويتغذى على عذابات الروح ويشتعل بكلمة ليتني.

هذه الكلمة تحديدًا تفتح أبوابًا من جحيم التأنيب، وتمتطي أمواجًا من فرضيات تزور العقل فتملؤه

بالحسرة، وقد كانت سلمى بهذه اللحظة تحديدًا تندثر تحت وطأة أمواج جمل متفاوتة وأسئلة لا حصر لها وكلها تحمل ماذا لو؟ أو ليتني..

ليتني لم أعاملها بقسوة..

ليتني لم أجرحها بكلامي عن كونها تثقل بحزنها على قلب باسل فأدفعها للهرب تلك الليلة إلى مصيرها المشؤوم..

ماذا لو كنت احتويتها وأشعرتها أنني أخت كبرى لها؟ فدلالها لم يؤذني يومًا حتى أحملها قسوة معاملة أخوتي لي..

ماذا لو ماتت وتركت خلفها أخ يبكي رحيلها وأبناء أخ لا أقرباء لهم من جهة الأب؟ هل سأتحمل نظرات اللوم بعين باسل كل ليلة وخاصة أنه يعرف سبب

رحيلها تلك الليلة الداكنة بسوادها الجامحة بأحداثها!

لكنها بقرارة نفسها تعلم أن الندم لن يصلح ما قد مضى، وعليها أن تبتهل ألا تكون سببًا لخسارة زوجها وأولادها لليلة، فلن يسامحها ضميرها أبدًا ولن يغفر لها.

بعثر دوامة أفكارها المضطربة رنين الهاتف الذي أحضره باسل لليلة بديلًا لهاتفها الذي تحطم فأمسكته تطالع شاشته قبل أن تجيب بصوت مشبع بالحزن زوجها الذي يتجاهلها منذ الأمس ويهاتف ليلة على هاتفها ليتابع أحوالها، هي بدورها لم تتصل به فخجلها من انكشاف سوءة أفكارها أمامه منعها، وبعض من الغضب لتجاهله لها

يحفزها على معاملته بالمثل، سألها بهدوء عن حالها وحال ليلة فأخبرته أنها نائمة ولم تزد لأنها خشيت إقلاقه، وحين أخبرها بأنه سيأتي ليأخذ دوره بمناوبته في البقاء مع أخته طلبت منه أن يرتاح بمنزلهما وليأت بعد غد، فلا شيء يدفعها للعودة بينما قد تراكم خلفه أطنانٌ من العمل المؤجل، ولا شيء ليضيفه لليلة بوجوده الليلة معها وخاصة أنها قد نامت بالفعل، أخبرته أن أختها حضرت له الطعام وعليه فقط أن يمر عليها ليرى الطفلين ويأخذ الطعام ثم فلينم نومًا هنيئًا يستعيض به عن أرق الأيام السابقة، تردد قليلًا قبل أن يوافقها رأيها؛ فالتعب قد أخذ مأخذه من جسده وعقله وعليه أن يرتاح قليلًا.

ما إن انتهت المكالمة بينهما حتى عاد الهاتف ليرن بعد قليل، كان الرقم المتصل مسجلًا باسم الضابط همام فعلمت أنه ذلك المكلف بقضية ليلة، أجابت الاتصال يدفعها القلق لمعرفة الدافع لاتصاله، لكن صوته الغاضب أصابها بالخوف، فقد سألها عن أحوال ليلة وهل حالتها تسمح باستجواب الشرطة لها أم لا؟ فهناك مستجدات بالقضية تجبره على التحقيق مع ليلة بأقرب وقت. وسقط قلب سلمى أرضًا من خوفها، فقد شعرت أن الأيام القادمة لن تحمل لليلة سوى المزيد من الأوجاع!

***

عند ظهيرة اليوم التالي استقر الرائد همام بمكتب صديقه وزميل عمله السابق عاصم بانتظار أن

يحضر العسكري المشتبه بها جمالات، كانا يتبادلان أطراف الحديث حول القضية التي يتابعها الرائد همام باهتمام وقد جذبت أحداثها ووقائعها انتباه عاصم ليسأل همام عن كل تفصيلة بها؛ فقد كانت قضية عجيبة لم يمر أحدهما بأحداث مشابهة لها من قبل، وبالأخص وجود مثل ذلك المجرم الشيطاني والذي أتت نهايته بما يناسب أفعاله، كان تخمين عاصم أن هذه القضية تحمل في مجملها كارثة خفية لن تظهر إلا باكتمال جمع أدلتها وفك أحجيتها؛ فمقتل القاتل يحمل رسالة قاسية مفادها من يخرج عن الأوامر أو يجذب انتباه السلطات سيخسر حياته ولن تعد له قيمة تذكر. نظرا لبعضهما بقلق وقد حركت فكرة عاصم ذرات

الخوف الكامنة بنفوسهما منذ خسر همام عائلته، فعاصم لم يكن إلا الضابط الأصغر سنًا بينما تولى همام تلك القضية الغابرة ولذا كان الانتقام موجهًا إلى صدره بمقتل.

طرقات على الباب بددت التوتر الذي يسري بالأجواء حين أمر عاصم بدخول الطارق فوجد أنه العسكري المكلف بجلب جمالات، دخلت أمامه يدفعها بغلظة غير مراعيًا كونها أنثى لن تتحمل غلظة دفعاته، لكنها تستحق؛ فنظرات عينيها ولسانها المندفع بالسباب يوحيان بأنها لا تستحق إلا هذا. كانت ترغي وتزبد وتطلق تهديدات جوفاء أنها ستشكوهما لرئيسهما لأنها لم تفعل ما يستدعي احتجازها بالقسم منذ الأمس، لكن صوت

عاصم القاسي ألجم لسانها وهو يأمرها بالصمت، جالت بعينيها بين وجهيهما قبل أن تقول بتوتر:

.. لم أفعل شيئًا يا سيدي.

تولى همام الحديث رغم أن التحقيق معها لم يكن من اختصاصه بالمكان هنا، سأل بصلابة:

_ هل زرت قرية .. _وذكر اسم القرية التي تقطن بها أسرة الطفلة ريناد_ منذ عدة أشهر؟

ودفع أمامها صورة الفتاة المشرقة الوجه لكنها أجابت فظاظة وتبجح:

.. لم يحدث يا سيدي الضابط، أقسم لك.

_ هناك شهود رأوك بالمكان وقد أبلغوا الشرطة بمواصفاتك، ولأنهم لا يعرفونك فلم يصلوا إليك بسهولة لكن أنا أعرفك جيدًا.

قالها ثم مال يتطلع لوجهها بنظرات قاسية مخيفة ارتجفت لها ودب الوهن بعروقها رغم أنها ما زالت تنكر.

رفع همام رأسه بهدوء ناظرًا إلى السقف بملل منتظرًا أن تنهي كلماتها النافية الجوفاء التي تخرج من فمها ولا يصدقها، وما إن يئس أن تصمت حتى عاد ينظر لها بقسوة متحدثًا بلهجة غاضبة:

اخرسي واسمعي ما سأقول، أعرف أنك كاذبة؛ فلدي شهود على وجودك بذلك المكان ذاك اليوم،

كما أن لدي شهود على وجودك بمقهى.. ومعك طفلة صغيرة لتسلميها لذلك الرجل.

قالها محركًا صورة حامد الموجودة بملفات الشرطة ليضعها أمام عينيها قائلًا بشماتة:

والذي بالمناسبة قد أكد كلام الشهود واعترف عليك، فما قولك؟ هل تودين الإنكار طوال الوقت حتى عرضك على النيابة واتهامك بقتل الفتاة وحينها سيلتف حبل المشنقة مُرَحِبًا حول عنقك، أم ستكونين بالذكاء الكافي حتى تحكي لنا ما حدث تحديدًا فيتم تبرئتك من قتل الفتاة ونكتفي بتهمة اختطافها فقط؟!

كانت هذه إحدى الألاعيب التي اتفق عاصم مع همام على قولها للمتهمة لدفعها للكلام، فحامد قد

مات وشبع موتًا ولم يحدث بأي وقت أن تحدث إلى أحد أفراد الشرطة، أما تحريات همام بالمقهى التي أجراها صباحًا فقد حصل منها على تأكيد بعودة جمالات كل فترة إلى المقهى لتقابل شخصًا مختلفًا ولم يحدث أن أتت بطفل معها أبدًا إلى المكان.

وكأن حديث الرائد معها أوقع الخوف بقلبها فقالت بصوت خرج مهتزًا:

لم أفعل شيئًا صدقاني، لم يحدث أبدًا أن أخذت طفلة معي إلى ذلك المقهى أو غيره، من أخبروك بهذا كاذبون.

تظاهر الرائد همام بالنهوض قائلًا بملل:

حسنًا يمكنك إثبات ذلك أثناء محاكمتك، وأخبريني حينها هل ستشفع لك أقوالك وإنكارك

للأمر أمام أقوال الشهود أم لا! صدقيني سيكون حبل المشنقة أهون من بشاعة مصيرك حين تعرفن نزيلات السجن بأنك قاتلة للأطفال.

أعطاها ظهره ملوحًا لعاصم وكأنه راحل ومتحدثًا بصوت متآمر:

أعدها إلى الحجز ومرر للنزيلات خبر تورطها بجريمة قتل لثلاثة أطفال.

صرخت جمالات بخوف:

أقسم لكما لم أفعل! لم أقتل أحدًا قط! لقد بعته الطفلة لأنه طلبها بغرض استخدامها بالتسول، وهو من طلب مواصفات خاصة تتمحور حول نقطة «شكلها بنت ناس.» حتى لا يشك أحد بأنها طفلة شوارع، هذا ما فعلته فقط صدقاني.

عاد همام وقد التمعت عيناه بالاهتمام وماجت بهما تيارات من الغضب ليقول بحزم:

_ أخبريني بكل شيء منذ البداية إلى النهاية، ويشمل ذلك طريقة معرفتك بذلك الوغد حامد وبداية عملك بهذه المهنة القذرة حتى يومنا الحالي، وإلا أقسم لك سيكون خلاص العالم منك على يدي هاتين.

قالها رافعًا يديه أمام عينيها بحركة تدل على الخنق فانتفضت جمالات قبل أن تبدأ بالكلام، وكان كلامها مثيرًا للغثيان ومحركًا لزوبعة مشاعر البغض بداخل قلب كلًا من عاصم وهمام إلى أبعد حد.

***

رقدت ليلة في فراشها تئن من الوجع، ما زالت تتألم بقوة لليوم الثاني على التوالي بعد أن خفف الأطباء جرعة المسكنات القوية التي كانت تتناولها بعد العملية، جلس باسل الذي أتى صباحًا ليحل محل سلمى جوار فراشها لا يستطيع مساعدتها، خاصة وأن الطبيب المسؤول عن متابعة حالتها رفض إعطائها جرعة من المسكن القوي خشية أن تعتاده فيؤثر عليها بالسلب فيما بعد، أخبرته سلمى حين أتى أن ليلة تتألم بشدة منذ ليلة قبل الأمس ولكنها لم تشأ اخباره بذلك في الهاتف حتى لا يقلق، أخبرته أنها حاولت المستحيل بالأمس لتحصل لها على مسكن قوي وقد ساعدتها الطبيبة بالحصول على جرعة واحدة فقط لها مساء الأمس، لكن الطبيب

رفض أن تستمر عليه بشكل منتظم، ولأنه طبيب فقد كان يوافق رأي طبيبها ضمنيًا رغم تمزق قلبه مع كل أنة تطلقها، وبالنهاية لم يستطع التحكم في وجع قلبه فنهض مغادرًا غرفتها ليبحث عن طبيبها ليترجاه بأن يعطيها جرعة صغيرة من المورفين أو ما شابهه؛ فحدة الألم أقسى من ألف مضاعفة قد تحدث فيما بعد بسبب تناول المسكنات، وقلبه لم يكن يتحمل وجعها بهذا الشكل.

خرج من غرفتها يبحث عن طبيبها الذي أخبرته الممرضة بأنه قد صعد لاستراحة سكن الأطباء منذ قليل فقرر الصعود لمحادثته. بهذا الوقت كان الرائد همام قد حضر إلى المستشفى بحثًا عن ليلة التي لا تجيب اتصاله وكذلك أخيها، شعر أنهما

متورطان ويخشيان مقابلته فقرر الحضور لاستجوابها دون تمهيد حتى لا ترتب كلامها وأفكارها، فهناك طرف خيط يبدأ من عندها ولا يستطيع امساكه بعد.

صعد إلى غرفة الرعاية المركزة ليسأل عنها فعلم أنها انتقلت لحجرة عادية وتطوعت الممرضة لإرشاده إلى مكانها، طرق الباب طرقتين ثم فتحه ليمد رأسه بالداخل متوقعًا عدم وجود أحد، لكن لصدمته وجدها بنفس وضعيتها السابقة ورجلها محتجزة بداخل الجهاز المعدني بينما صوت أنينها يعبر أثير الغرفة ليصفع أذنيه، بلحظة اختلط عليه الأمر بينها وبين زوجته التي رآها بوضعية مشابهة تفارق الحياة بين يده فاقترب قائلًا بوجل:

منى، هل أنت بخير؟

فتحت عينيها التي ترقرقت بها بحيرة من الدموع دون أن تستطيع الحديث، بل زادت حدة الأنين وتدافعت العبرات لتطفر من بين جفنيها التي أسبلتهما بخجل وألم؛ وكأن رؤيته لها في هذا الوضع كسر حاجز تحملها فأدر دموعها ودفعها نحو حافة اللا تحمل، اقترب من وجهها قائلًا بخوف:

هل أستدعي الطبيب، أخبريني فقط ما بك؟

حركت رأسها نحو الجهة الأخرى هاربة من نظرات الشفقة التي تمتلئ بها عيناه قائلة بصوت متقطع:

باسل معي، ذهب ليحضر لي الطبيب.

_ أخبريني ما حدث؟ هل يوجد ما يؤلمك؟

سؤاله الغبي اندفع من فمه قبل أن يدرك مدى غبائه لكن صوتها المنتحب لم يمهله ليخجل من سؤاله:

الألم صار رفيقي منذ بعض الوقت، لكنه يقسو علي منذ الأمس وكأنه يريد أن يزهق روحي، أخبره أن يزهقها الآن أو لا يفعل ويرحل! فوالله لم يعد لي صبر على التحمل. ليتني أموت وأرتاح من هذه الدنيا التعسة.

سمع كلماتها بقلبه لا بأذنه فاهتز، هذه امرأة أوجعتها الحياة وهزمتها حتى أنها تتمنى الخلاص، نظر لعينيها المغلقتين ودموعها المسالة على خديها وكلمة آه التي تخرج من بين شفتيها الجافتين فانهزم واندحرت كل مهنيته لتطغى

إنسانيته وشهامته على تفكيره، تركها واندفع للخارج نحو غرفة الطبيب المناوب فوجدها فارغة، وقف أمامها وتحدث بصوت مرتفع غاضب يسأل عمن يكون مسؤولًا عن المرضى في هذا الدور، ولأن ملابسه تفرض خوفًا وهيبة بالنفوس فقد هرعت نحوه الممرضة المسؤولة بينما قام مشرف الدور باستدعاء الطبيب، كانت تلك بعض حسنات مهنته، يستطيع تجاوز تلك القوانين الواهية التي تفرض على باقي المواطنين رغم كرهه لتلك الميزة التي لم يحاول استخدامها قط، إلا أنه يعرف كيف يستخدمها ومتى، ومرأى دموع ليلة كان دافعًا لاستخدامها الآن تحديدًا.

أتى الطبيب بعد وقت قصير من استدعائه ليجد الوضع الراهن يوحي بالتوتر، فالكل خائف من وجود ضابط يرتدي زيه الرسمي ويسأل عن عدم وجوده، لكن الطبيب بدا أكثر هدوءًا ولا مبالاة لأنه كان يعرف حقوقه كاملة، فقد اعتاد هذه الأوضاع ولم يعد يخشى أحدًا خاصة أنه كان يؤدي عمله بمعاينة حالة أخرى بالطوارئ ولا شيء يدينه بالإهمال.

تقدم نحو همام يسأله باهتمام عن سبب هذه الجلبة فشعر بالإحراج من موقفه وكيف سيبرر تعصبه لأجل امرأة ليست من أقاربه، لكن رباطة جأشه كانت ميزته وهو يتحدث بثقة أن السيدة ليلة المقيمة بالحجرة رقم «خمسة عشر» تتألم وتحتاج

ما يودي بآلامها، فقد أتى بمهمة رسمية للقائها لكن وضعها الصحي لا يسمح لشدة الآلام التي تداهمها، كان يبرر سبب اهتمامه دونما حاجة للتبرير، فأمام أوجاعها نسي مهمته الرسمية وتحول إلى راعٍ للسلام يبحث عما يخفف أوجاع فرائسه بدلًا من استجوابها، وقد كانت ليلة حين قدومه للمستشفى فريسة ومحل اشتباه، ونواياه نحوها تنذر بالخطر.

سار الطبيب نحو الغرفة فتبعه همام باهتمام غافلًا عن عدم وجود رابط يربطه بها، أراد التأكد أن الطبيب سيهتم بها كما يجب، لذا دلف الغرفة ووقف جوار الفراش وكأنه المعني بها ينتظر انتهاء الطبيب من فحصه لعلاماتها الحيوية قبل أن

يطلب من الممرضة أن تحقنها بالمسكنات، نظرة الامتنان التي رمقته بها أخرست شكوكه نحوها فأدار وجهه بضيق ينظر نحو الباب، وفي هذه اللحظة رأى باسل الذي اندفع داخل الغرفة ورمقه بنظرة تعجب تحمل تساؤلات لا منتهية قبل أن يتجاهله ويدير عينيه بلهفة بين الطبيب وأخته وقد استنتج أنها حصلت على مبتغاها أخيرًا.

خاطب الطبيب متسائلًا عن وضعها فطمئنه أنها بخير وسوف يزيد جرعة مسكناتها مرة أخرى ليوم أو يومين قبل أن يعيد سحبها تدريجيًا؛ فضعف جسدها يقلل من قدرة تحملها ويضاعف إحساسها بالوجع بما يفوق طاقتها.

خرج الطبيب بعد انتهاء واجبه مع ليلة ليتابع مهام عمله مع المرضى الآخرين وترك باسل يقترب من فراش أخته متجاهلًا ذلك السمج الذي لا يحب وجوده بالمكان، لكن ليلة نظرت لهمام تشكره بصوت منخفض على تدخله لأجلها فأجابها بأدب قبل أن ينسحب بلباقة؛ فقد شعر أن وجوده ثقيلًا على كل الأطراف.

ما إن خرج من الغرفة حتى سمع صوت باسل يناديه طالبًا منه الانتظار، توقف واستدار مستفهمًا لكن نظرة الغضب التي لاحت بعين باسل أقلقته، ظل مكانه منتظرًا اقتراب الأخ ليعرف سبب غضبه وقد كان تخمينه صحيحًا، فقد عاجله بجملة مرتبة

باطنها معسول الكلام بينما تحمل خنجرًا مغموسًا بالسم ليمزقه:

شكرًا لك على تواجدك هذه المرة ومعاونتها في تجاوز ألم تقصيركم بحقها المرة السابقة، أخبرني ما سبب تشريفكم بزيارتنا المتواضعة؟

فكر همام بسره «هذا أخ يحمل الضغينة تجاه كل من يسيء لأخته، لو كان له أخت بعينين حزينتين مثلها وغمازتين غائرتين بخديها لفعل المثل أو أكثر.»

لكنه تكلم بلباقة:

ما حدث سابقًا كان قدرها، ولا نملك دفع الاقدار عنا وإن شئنا، لذا فقد اعتذرت منك المرة الماضية وأعتذر لك هذه المرة أيضًا فأنا مقدر لمشاعرك

تجاه الشرطة عامة وتجاه مجموعتي خاصة. لكن أود أن أنبهك أني لا أجيد فن الاعتذار كل مرة، وسوف تكون هناك مرات كثيرة صدقني، دعنا نتجاوز ما حدث ونركز على ما سيأتي، فمنزل أختك يهمني للغاية بسير تحقيقاتي، ونظرًا لوضعها الصحي وللظروف الراهنة أستميحك عذرًا بأني سأطلب منك أن تجيب بعضًا من تساؤلاتي العالقة إلى أن أستطيع معرفة كل ما أريد منها شخصيًا.

أنهى كلامه ثم صمت يرقب ملامح باسل المتجهمة بقوة وكأنه يدير الكلام برأسه ليعلم ما هو التصرف الأمثل الذي يجب اتخاذه، تطلع نحو همام يستقرئ ملامحه الجامدة بتوتر قبل أن يقول:

اسأل وسأجيب بحدود معرفتي، لكن لا أعدك بالكثير.

ثم تطلع نحو حجرة أخته القابعة خلفه قبل أن يدير بصره نحو همام قائلًا بأدب:

يمكنك انتظاري بضع لحظات حتى أطمئن على صغيرتي قبل أن ألحقك، فقد قاست الكثير منذ وفاة زوجها.

قالها ثم اندفع دون أن ينتظر رد همام عليه، فما رضي باستجواب همام له إلا طمعًا بتجنيب أخته لهذه المهمة السخيفة وخاصة أن وضعها الصحي لا يحتمل.

أما همام فقد رمقه بدهشة قبل أن يتجه بخطوات متراخية نحو مقعد يتيم يقبع جوار الباب بانتظار

عودة باسل، ورغمًا عنه فقد سرقه عقله نحو ما حدث أثناء مهمته الرسمية السابقة، علم أن مهمته لن تكون باليسيرة وعليه أن يخطو بذكاء.

***

قبل عدة ساعات.

مر همام على قسم الشرطة الذي يعمل به عاصم بالصباح الباكر يتابع إجراءات تحويل جمالات إلى النيابة بعد اعترافها بالأمس لهما أنها تخطف الأطفال ثم تبيعهم لمن يطلبهم دون الالتفات إلى الغاية من شرائهم، فلم يكن يهمها سوى جمع الأموال وكانت هذه طريقة سهلة وبسيطة للحصول على مبالغ كبيرة بمجهود قليل، فالأطفال المختطفين لم يكن في سجلات الدولة طريقة

تستطيع ربطهم بأهاليهم إلا عن طريق تحليل الحمض النووي، ومن غير المنطقي أن يجرى ذلك الاختبار إلا في حالة وجود من يبحث عن رابط بينه وبين أحد هؤلاء الأطفال.

فكر همام بأسى أن هناك قوانين تحتاج لبعض التغييرات الجذرية لأجل أن تواكب ذلك التطور البشع بالمجتمع، أو التدني البشع بالأخلاق إن شاء الدقة، فلكل وقت آذان كما يقال، وهذا الزمن يحتاج لإيجاد عقاب رادع يناسب فظاعة انحطاط الأخلاق التي يتنافس البشر على التحلي بها.

ودع همام صديقه عاصم قبل أن ينطلق بمهمته التي أجلها بسبب ذهابه إلى العاصمة لمتابعة طرف الخيط المتعلق بخطف الطفلة ريناد، وكم

كانت رحلته مثمرة، فقد أمسك بطرف خيط قيم أثناء استجوابه لجمالات يدفعه دفعًا لزيارة شركة الأنهار التي أجل زيارتها من قبل.

توجه من فوره إلى المدينة التي يقع بها مقر الشركة والتي هي نفس المدينة التي ترقد ليلة بمشفاها طمعًا بالشفاء، مر على الشركة وبجعبته الكثير من علامات الاستفهام يرجو أن يحيلها إلى نقاط بآخر السطر.

حين طالب بمقابلة أحد المسؤولين بالشركة أرشده موظف الأمن عند البوابة لمكتب السيد «محمد صالح» فهو المدير التنفيذي للشركة والمسؤول عن كل ما فيها، طلبت السكرتيرة منه أن ينتظر ريثما تخبر السيد محمد بوجود أحد رجال

الشرطة لمقابلته، ثم اختفت بالمكتب لربع ساعة قبل أن تعود بابتسامة لزجة لتخبر همام بأن السيد محمد معه اتصال هاتفي مهم وسيطلب دخوله بعد قليل، وانشغلت بمتابعة عملها تاركة همام يقبع على مقعده بغيظ وتجهم.

مضت ربع ساعة أخرى قبل أن يسمح له السيد محمد بمقابلته فأدخلته السكرتيرة ثم انسحبت بهدوء مغلقة الباب خلفها إثر إشارة يد من رب عملها.

تفحص همام الرجل سريعًا بنظرة دقيقة وقد لفتته بنيته الضئيلة الموحية بالضعف والتي لا تناسب نظرة عينيه العميقة الغائرة، ابتسم محمد ابتسامة حفاوة وترحيب بالرائد همام رغم أن عينيه

الضيقتين قالتا عكس ذلك، ففيهما ماج الحذر وبعض التوجس، قال بحفاوة مبالغ فيها:

_ مرحبًا حضرة الضابط، ماذا تود أن تشرب؟

رفض الرائد عرضه سريعًا ثم أتبع رفضه بما يود قوله:

.. لديكم سيارة حمراء برقم لوحة قيادة (...) هلا أخبرتني من المسؤول عن قيادتها؟

_ بالطبع لن أحفظ أسماء السائقين بأرقام الشاحنات التي يعملون عليها، لم تسأل؟

.. أليس من المفترض أنك تعرف كل السائقين الذين يعملون لديكم؟

_ بالطبع نعرفهم لكني لا أحفظ أسمائهم مرتبطة بأرقام الشاحنات التي يقودونها، يمكنني سؤال المشرف على السائقين، لكن لم تسأل؟ ألح بسؤاله.

.. هذه السيارة دهست أحد المارة منذ يومين، وبفحص السجلات بالمرور أشارت إلى أنها تابعة لشركتكم، لذلك سألت على اسم السائق الذي كان يقودها تلك الليلة مباشرة.

_ حقًا هذا عجيب، لدينا سيارة تمت سرقتها منذ يومين تحديدًا وتم فصل السائق الذي كان يقودها من العمل لإهماله وغبائه مما تسبب بسرقتها، فقد نزل الأحمق ليشتري طلبًا من أحد المحال وترك المفتاح بداخل المحل وحين اكتشف ضياعه عاد

ليسأل عنه بالداخل فلم يجده، ثم سرقت السيارة بعدها، وقد أصدرت قرارًا بطرده من العمل مباشرة وهددته بأن يعيد السيارة وإلا سنقاضيه، لكن لست أدري أهي نفس السيارة أم لا.

..ألا يمكنك إخباري برقمها ورقم المحضر الذي حررته بسرقتها؟

_ نعم بالطبع، انتظر قليلًا.

قالها ثم رفع الهاتف الداخلي ليطلب من السكرتيرة أن تصله بعبد الفتاح مشرف القسم الخاص بالسيارات وسائقيها.

انتظر لبضع لحظات قبل أن يصله صوت عبد الفتاح فسأله عما يود الضابط معرفته وقبل أن ينهي الاتصال مد همام يده بحركة مباغتة يطلب

منه أن يحادث عبد الفتاح بنفسه، حدجه محمد الرجل بحذر قبل أن يقول لعبد الفتاح بهدوء:

_ الضابط يود سؤالك بنفسه، لا تؤلم رأسه بأحاديثك الفارغة كما تفعل معي.

ناول الرائد همام سماعة الهاتف وتظاهر بالانشغال على جهاز الحاسوب الموضوع على مكتبه، تحدث همام بلطف:

.. مرحبًا سيد عبد الفتاح معك الرائد همام، وددت سؤالك بضعة أسئلة دقيقة وأود إجابات أظن أنها لديك، أخبرني عن سيارة تحمل لوحة أرقام (...) من المسؤول عن قيادتها؟

انقطع الاتصال فجأة فتجهم همام قائلًا للرجل أن الهاتف لا يعمل، اعتذر السيد النحيل بهدوء مبررًا

أن الوصلات قديمة وكثيرًا ما تفعلها، ثم مال يتتبع السلك المتصل بالهاتف القابع على مكتبه حتى استطاع إرجاع الحرارة إلى الجهاز ليدير الاتصال مرة أخرى ويطلب من السكرتيرة أن تصله بعبد الفتاح، حينها ناول الهاتف لهمام ثم اعتدل متابعًا ما كان يفعله منذ قليل على حاسوبه، أما همام فقد رمقه بشك وصوت عبد الفتاح يصله مهتزًا يقمع توتره الذي ترك أثرًا على صوته:

هذه السيارة سرقت كما أخبرك السيد محمد، فقد نزل الأحمق عيد ليشتري زجاجة مياه وحين عودته لم يجد مفتاحها بحوزته ثم سرقت بعدها بعدة أيام، لم نعرف بسرقتها إلا حين أخبرنا مسؤول الصيانة صباح اليوم التالي، لذا اتجهت من فوري إلى مركز

الشرطة وقدمت بلاغًا بسرقتها حتى نبرئ أنفسنا إن استغلها اللص فيما يضر.

خيل للرائد أن ذلك المدعو عبد الفتاح يردد كلامًا تم تلقينه إياه؛ فالرجل يتحدث بسرعة دون توقف كما أنه قال عن السيارة أنها سرقت كما قال السيد محمد ، ومحمد هذا لم ينقل له فحوى الحديث الذي جرى بينهما، إذًا كيف عرف؟

علامات استفهام كثيرة جالت بعقل همام وقد رمق محمد المنشغل بشاشة هاتفه الآن دون النظر إليه، ود أن يختطف منه الهاتف فينظر إلى ما يفعله، فقد خطر له أنه يلقن عبد الفتاح ما يجب أن يقال، لكنه لم يفعلها لأجل هاجس دار برأسه فقرر أن يوهم محمد بأنه صدق كلامه، لذا قال لعبد الفتاح بهدوء:

أخبرني بيانات ذلك السائق وأين يقيم؟

أملاه عبد الفتاح بعض البيانات الخاصة بالسائق والتي لم تكن دقيقة للغاية بحجة أن ملفه لم يكن يحوي غير هذه البيانات.

نهض همام من المقعد مصافحًا محمد الذي ابتسم بود قائلًا:

_ الوداع يا حضرة الضابط، شرفتنا زيارتك.

لكن همام أجاب بثقة وعيناه متركزتان على وجه محمد الغامض يقرأه:

.. بل إلى لقاء جديد، فلن تكون هذه المرة الوحيدة.

ضيق محمد عينيه الضيقتين بطبيعتهما فبدتا كشرطتين غامضتين مخيفتين قبل أن يعود لإفراج سراح بسمة صفراء على ثغره قائلًا:

_ سعيد بها ويسرني خدمتك.

وخرج همام من مقر الشركة متجهًا نحو ثاني خيط في بحثه الجديد، مقابلة المدعو عيد، كان يأمل أن يحصل على الكثير جراء هذا التتبع، ولكن..

هل ما نأمل بحدوثه يتحقق؟!

ربما نعم وربما لا..

يبقى الاجتهاد في السعي أفضل طريق لتحقيق الغايات حتى وإن مني بالفشل.

***

الفصل الثاني عشر

والحرب لو يعلمون لا تستعر نيرانها في أجواف المدافع

بل في قلوب الناس وفي أفكارهم أيضًا.

ميخائيل نعيمة.

ما إن خرج همام من مقر شركة الأنهار حتى قرر أن خير وسيلة لتحقيق بعض النجاح هي طرق الحديد وهو ساخن، وعليه أن يطرق بشدة في الوقت الحالي، فقد تكّون لديه مستصغر شرارات من الأمل وأخذت تتعاظم كلما قطع شوطًا نحو النهاية.

اتجه نحو العنوان الذي دونه معتمدًا أن الوقت سيكون بصفه في مفاجأة هذا المدعو عيد قبل أن يخبروه بسعيه خلفه فيفر، وصل العنوان الذي كان مضللًا بعض الشيء، فلا أحد عرف اسم عيد حين سأل عنه همام بل كلهم أنكروا رؤيته أو معرفته، ولأن همام جديد على المكان ولا يملك صورة عيد لينشط بها ذاكرة هؤلاء المدعيين فقد يئس وتوجه نحو آخر مكان قرر السؤال فيه قبل أن يرحل خالي الوفاض.

توجه نحو مقهى شعبي صغير يحتل زاوية ضيقة من إحدى الحارات وهناك سأل صاحب المقهى فأجابه الرجل بأنه يعرف أحدهم ويدعى عيد يعمل كسائق ولكنه لا يعرف إن كان هو من يبحث عنه

همام أم لا، قطع عليه همام حيرته بإخباره بأنه سيعرف حين يقابله وعليه فقد تتبع وصف الرجل لمنزل المراد استجوابه حتى وصل.

البناية سكنية قديمة في منطقة تشبه بعضها للغاية وكل بناياتها متشابهة فيما يسمى بالمساكن الشعبية، والتي تحمل بصمات حقبة زمنية حاولت فيها البلد أن تحذو حذو الدول الشيوعية في نظامها الاقتصادي فكانت النتائج غير سارة بتاتًا.

كان العنوان في إحدى هذه البنايات البنية العتيقة ذات الواجهات المقشورة والدرجات المهترئة من دعسات الأقدام على وجهها أعوامًا وأزمنة.

صعد همام طوابق البناية ضيقة المدخل للغاية إلى الطابق الثاني ثم طرق الباب بعد أن تكشف له أن زر الجرس لا يعمل.

عدة طرقات قبل أن يأتيه صوت امرأة تستفسر عن هويته وحين أجابها بصوت أخرجه مفخمًا كي يدفعها لفتح الباب خوفًا منه _وقد أتت فعلته بثمارها_ فتحت الباب سيدة تبلغ الستين من عمرها تنظر له بهلع قبل أن تطرف بعينيها وترنو للخلف بتوتر، تكلم همام بهدوء:

.. هل ابنك عيد هنا؟

عادت ترمق خلفها بقلق متزايد قبل أن تقول بحدة: وهل فعل ما يستدعي بحث الشرطة خلفه؟ لا أعتقد أن تناوله سيجارة الحشيش تستجلب سعي

الشرطة خلفه، فوالله ما شربها إلا تعديلًا لمزاجه المعكر منذ ليلتين بسبب طرده من العمل.

عند هذا الحد من كلامها سمع الرائد صوتًا خافتًا يصل لمسامعه وكأن أحدهم يتحرك إلى داخل الغرفة القريبة فتصرف بتلقائية وحدسه المهني يدفعه للقناعة بأن عيد بالداخل وبطريقه للهرب الآن.

دفع السيدة بلطف قبل أن يدلف الشقة الضيقة ليجد أحد أبواب غرفها مفتوحًا وهناك من يعتلي النافذة بطريقه للقفز منها، ما إن لمح همام حتى سارع بالقفز ثم انطلق بالشارع المزدحم بالأسفل لا يلوي على شيء، وضاعت من همام فرصة اللحاق به؛ فالمطاردة لن تكون بصالحه أبدًا.

اتجه نحو المرأة الكبيرة بغضب قائلًا بصوت خرج مرتفعًا رغمًا عنه:

أخبريني ما حدث تحديدًا وإلا أقسم لك سأسحبكم جميعًا نحو قسم الشرطة ولن يعرف طريقكم أحد.

ارتعدت المرأة لكنها حاولت المماطلة قائلة بصوت خرج مرتعشًا رغمًا عنها:

لم أفعل شيئًا والله، نحن بريئون يا سيدي، ابني بريء لم يؤذ أحدًا بحياته.

_ إذًا أخبريني لم هرب ما دام بريئًا كما تقولين؟

.. لأنه خشي أن يكون المعلم عبد الفتاح قد وشى به لتعاطيه الحشيش ليلة سرقة السيارة.

ـ بهدوء وبالمنطق أفهميني ما حدث حتى أستطيع تبرئة ابنك وإبعاد تهمة السرقة عنه.

قالها مدركًا أنه يجب أن يخيفها على فلذة كبدها حتى يطلق عقال لسانها من مربطه؛ فلن تتحدث إلا إذا أمنت سلامته، وقد كان تخمين الرائد بمحله؛ فالمرأة حاولت بكل ما تؤتيه من فصاحة ومنطق أن تحكي ما حدث بسبيل إبراء ولده:

.. ولدي بريء أقسم بالله، يومها أعاد السيارة إلى موقف سيارات الشركة لأنهم طلبوها لإجراء بعض الصيانة بها، أنا متأكدة من ذلك لأنه عاد راجلًا على قدميه وأخبرني بذلك حين أخذ حبة مسكن لألم رجله، فلديه إصابة قديمة تؤلمه إن سار كثيرًا، ثم بالمساء وفي وقت متأخر من الليلة أتاه اتصال من

عبد الفتاح _رأس الحرباءة_ يعنفه بصوت مرتفع حتى أنني سمعته بوضوح من مجلسي هنا (وأشارت إلى أريكة قديمة أمام التلفاز) ويخبره أن ضياع المفتاح منه تسبب بسرقة السيارة، وعليه فلا يريدون رؤية وجهه مرة أخرى وسوف ينتظرون منه تعويض السيارة التي سرقت، لذا ما إن رأك حتى فر من الشقة ظانًا أنك قادم للقبض عليه بسبب هذه التهمة.

صمتت تنهت قبل أن تعود للدفاع عنه من جديد:

.. أخبرته عدة مرات أن يكف عن ذلك السم الذي يتناوله، فلولا سيجارة الحشيش التي أمسكه بها المعلم عبد الفتاح لما استطاعوا كسر عينه وإخباره أنه مسطول فاقد للحس السليم وذو تركيز منعدم،

ولما استطاعوا نسب سرقة السيارة لإهماله وعدم تركيزه، لكن ماذا أفعل يا سيدي الضابط؟ فابني أتعبني للغاية بصداقته لكل هؤلاء (الحشاشين) ولم أستطع إبعاده عن رفقتهم منذ الصغر.

قالتها ثم جلست على المقعد المهترئ خلفها تكمل ولولتها التي لا تعني همام بشيء ورغم ذلك ظل يستمع بصمت بينما ذهنه شارد وعقله يكاد ينفجر من كل الأفكار التي تندفع إلى مخيلته مكونًا فكرة عما حدث تلك الليلة.

كانت المرأة تقول أنها ربت الولد وحيدًا دون معيل فاضطرت لتركه وحده كثيرًا كي تستطيع جني ما يسد رمقهما وهذا سبب ضياعه، لكن همام قاطعها عند هذه النقطة متسائلًا:

_ متى عاد ابنك بعد أن سلمهم السيارة؟

.. بعد العصر بقليل، فقد أخبروه صباحًا أن يعيدها لموقف الشركة حتى يصلحوا خللًا بمكابحها.

_ هل اشتكى ابنك من السيارة أو شعر بذلك الخلل؟

_ لا لم يخبرني بشيء، لكنه عبد المأمور يا سيدي، يؤمر فيطيع.

.. استغفر الله يا حاجة، نحن عبيد لله فقط، أخبريني عن طبيعة عمله هناك، وكيف أضاع مفتاح السيارة تحديدًا؟

_ ابني يعمل كسائق شاحنة صغيرة مسؤولة عن توزيع البضائع التي تستوردها الشركة من الخارج

على مراكز بيع الجملة بالمحافظات، لم يعمل هناك إلا لفترة أقل من العام، وحكاية ضياع المفتاح هذه لم أعلم بها قط سوى تلك الليلة ولم يخبرني عنها شيئًا سوى أنه لا يتذكر أي شيء.

اتجه همام نحو باب الشقة قائلًا بحزم:

.. أخبري ابنك حين يعود أن يتصل بي؛ فبيدي ورقة براءته إن أراد البراءة، وإلا فلا يلومن سوى نفسه.

كان يعلم أن وجوده هنا بصفة غير رسمية؛ لذا لم يطلب منها أن يذهب الولد إلى قسم الشرطة بل وضع ورقة كتب عليها رقم هاتفه واسمه فوق عداد الكهرباء المجاور لباب الشقة من الداخل ثم رمقها بنظرة حادة ليزيد تأكيده عليها، وحين أومأت برأسها إيجابًا خرج وقد استقر على خطوته التالية..

زيارة إلى مقر الشركة الغريبة تلك، لكنها زيارة من الباب الخلفي.

***

اقترب همام من حارس الأمن البسيط على بوابة الشركة فتطلع نحوه الرجل بوجل مراقبًا ما سيتفوه به وفي عينيه نظرة قلق، سارع همام بالتحدث ملقيًا سؤاله بلهجة آمرة:

.. أين المعلم عبد الفتاح؟

_ المعلم في المكتب الخاص به يا سيدي.

ثم أمسك هاتفه بغية الاتصال لكن الرائد مد يده فأمسك الهاتف ليسحبه بهدوء قائلًا بكياسة:

.. يمكنك إرشادي إلى مكانه بنفسك ولا حاجة للهاتف، سيظل معي إلى أن أخرج من مقابلته.

هز الحارس رأسه وجلًا وابتلع ريقه بخوف ثم سار أمام الرائد نحو المكتب القابع بمواقف الشركة في الباحة الخلفية مترامية الأطراف، طرق الرائد النافذة الزجاجية العريضة طالبًا الاذن بالدخول من المعلم عبد الفتاح والذي ما إن رآه حتى ارتعدت فرائصه واصفر وجهه ثم نهض صاغرًا مرغمًا ليسمح لهما بالدخول، أشار الرائد للحارس قائلًا له: ابق هنا حتى أخرج، لا تتحرك ودعني أراك من خلف النافذة طوال الوقت.

فقد كان يخشى أن يذهب لإخبار ذلك الرجل النحيل الذي قابله صباحًا خلف مكتبه بعينيه

الضيقتين اللتين تشبهان عينا الضبع فيفسد مساعيه خلف الحقيقة، والتي يبدو أن المخفي منها كثيرٌ بهذه الأروقة والممرات التي تحتويها الشركة.

وافق الرجل المسكين وسحب كرسيًا ليضعه بالخارج مقابل النافذة حيث يستطيع همام رؤيته بوضح وقد جلس أمام المكتب الذي عاد المعلم للجلوس خلفه حيث يتابع اتصالًا كان يجريه قبل دخولهما.

أنهى الرجل مكالمته قبل أن يتنحنح بإحراج قائلًا لهمام:

معذرة مشاكل الشحنات وقرفها، هؤلاء السائقون ملاعين ويحتاجون شخصًا صارمًا ليوجههم، فيم أخدمك يا سيدي؟

قال همام ببرود: أنا من حدثتك صباحًا من مكتب المسؤول عنكم السيد محمد صالح ولم أجد إجابات واضحة لبعض أسئلتي، لذا وجدت أنني أستطيع الحصول عليها منك، وقبل أن تنكر أحب أن أخبرك أن هناك تحقيق جارٍ بخصوص جريمة قتل، وإنكارك أو رفضك للتعاون يجبرني على القبض عليك بتهمة عرقلة سير العدالة وإخفاء الحقائق.

أتت محاولته بثمارها وهز رأسه قائلًا بخوف بعد أن ابتلع ريقه:

أي شيء، أنا تحت أمرك يا سيدي، لكن لا أعلم شيئًا عن تلك الجريمة ولم أسمع بها!

ببرود متزايد جاوبه همام:

لم أسألك عن الجريمة ولم أخبرك بأي شيء يخصها بعد، انتظر أسئلتي وأجب عليها فقط.

هز الرجل رأسه مؤمنًا فبدأ الرائد باستجوابه، وكانت إجاباته تحمل بعضًا من الضوء ليبصر به حقائق جديدة، فمهما سعت يد الشيطان لتطمس الحقيقة، يبق ضوء الحق ساطعًا يرشد من اهتدى إلى الطريق السوي.

***

خرج همام من مقر الشركة متجهًا نحو المستشفى لزيارة ليلة مستكملًا بحثه خلف خيوط قضيته

المعقدة عالمًا بأن عليه العودة بوقت لاحق ومعه أمر رسمي للتحقيق مع شركة الأنهار، فالمعلومات التي أخبره بها عبد الفتاح لم تشف فضوله سوى ببعض النقاط الحائرة ولا تتعدى كونها أسهمًا تفضي إلى المسؤول الأكبر بالشركة، ذلك المدعو محمد صالح والذي كان محاميًا ترك مهنة المحاماة واستخدم ذكائه في إدارة شركة أخيه غير الشقيق محققًا له ثروة وأرباحًا مرتفعة بوقت قصير، فحسب كلام عبد الفتاح اتسع نفوذ الشركة لتستورد منتجات من إسبانيا وإيطاليا بوقت قياسي، وبالمقابل تصدر بعض المنتجات المحلية إلى الخارج، وهذه الصفقات رفعت أسهم الشركة وزادت من رصيدها إلى الحد الذي دفعهم لفتح فرع

آخر لها بالعاصمة، وبقي المركز الرئيسي بهذه المحافظة تحت الإشراف المباشر للأخ الأذكى والأصغر والأكثر دهاءً.

لكن أهم ما حصل عليه فهو تأكيد إفادة المدعوة جمالات فيما يخص حامد، فقد أخبرته أن حامد حين أتى ليأخذ الطفلة منها كان قد مضى على خطفها عدة أشهر استغلتها بها في التسول بالشوارع مع إحدى السيدات اللاتي يعملن تحت إمرة عصابتها، فجمالات تدير عصابة كبيرة للمتاجرة بالأطفال، هذه العصابة لا تدار بواسطتها فقط بل هي شريكة لزوجها، لكن دورها بالعمل أكبر منه، فدورها يحتم عليها أن تهيم على رأسها بين المحافظات تلتقط من تستطيع التقاطه من

الأطفال وخاصة هؤلاء الذين يقعون تحت يديها بسهولة ويسر ولا يعرفهم أحد، لها عساسون يعملون تحت إمرتها يتقصون لها عن مثل هؤلاء الضحايا ويحضرون لها من يستطيعون سرقته بسهولة ويسر، ما إن تتم سرقة الطفل حتى يتم إخفاؤه لفترة تتجاوز الشهر بمنزل كبير على أطراف منطقة نائية حتى تهدأ الأمور وتفتر فورة حماسة البحث عنه، ثم تبدأ المرحلة الثانية ألا وهي التدليل عليه، وكانت هذه هي وظيفة زوجها الأساسية، وفي هذه الأثناء وحتى يستطيعون إيجاد مكان للطفل فعليه أن يعمل ليجلب المال لهم، وعمله يتلخص في التسول أو بيع علب المناديل بالأماكن المزدحمة، وفي حال كان الطفل صغيرًا فيتم إسناد

مهمة التسول به لإحدى التابعات لهم حيث تتولى مهمة تحويله لشحاذ مهترئ الملابس أو مريض ملفوف بالجبائر والشرائط لتستعطف به المارة، فيلقون لها الأموال دون مجهود مبذول من جهتها.

ولأن العامل بمثل هذه المهن المستجلبة لإلقاء القبض على مرتكبها يستلزم الحرص والنباهة، فقد كانت جمالات تتمتع بحدة تركيز والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، ويوم أن أتاها حامد باحثًا عن طفلة بمواصفات معينة أخبرته أن غايته عندها، وتم الاتفاق على اللقاء بعيدًا عن مكان المنزل أو كما يطلقون عليه «المستودع» حتى لا ترشده إلى مكان أكل عيشها على حسب قولها، تم اللقاء جوار جسر هادئ الحركة مساءً وقد حضر مع زميل له

يقودان سيارة نقل بيضاء بصندوق خلفي مغلق، وعلى جانبها علامة تشبه السهم المشير إلى الأعلى داخل مثلث مشكلة كلمة «أنهر» حسب استطاعتها القراءة لها، كان زميله الذي حضر معه يدعى سيد واستلما منها الطفلة وسلماها نقودها ثم رحلا ولم ترهما بعد ذلك، لكنها أكدت أنها لم تكن هذه أول مرة، فقد أتاها سيد هذا من قبل وأخذ منها طفلة أيضًا قبل شهر من حضور حامد، وبمهنتها لا تسأل الكثير حتى لا تثير الشكوك؛ فالعمل يدار بميثاق الصمت أو كما يقال «سلم واستلم دون طرح الأسئلة.»

ولأن فضوله بخصوص قضيتها السابقة بأطفال الشوارع مروجي المخدرات لم يمت بعد، ولم

يستطع تجاوز القضية التي فقد فيها كبريائه وأمانه واستقراره، وعلمه أن جمالات ما إن تطأ قدمها أرض النيابة بالقضية التي تمت إدانتها بها الآن فلن يستطيع استجوابها ببساطة عن قضية سابقة، فقد قرر أن يتجاوز أسئلته بخصوص حامد ليعرف دورها تحديدًا في سابقتها، ولأول مرة يعرف منها الكثير في قضية أغلقت ملفاتها بهروب المتهم ومقتل زوجته وابنه، كان ذلك يحتاج منه عودة إلى الماضي، لكن عودته ستكون بعد أن يغلق ملف هذه القضية للأبد.

وحين أتى بعد لقائه بها إلى الشركة رأى ما أسمته جمالات سهمًا داخل مثلث يحمل كلمة أنهر، فقد كان شعار الشركة ألفًا تشبه السهم المشير للأعلى

مشكلة ضلع المثلث ومكونة كلمة الأنهار بداخله، وهذا مالم تكن جمالات دقيقة بنطقه لكنها أتقنت الوصف. تأكد أن هذه الشركة هي وجهته وعليه أن يبحث بعمق خلف الواجهة الفخمة التي تحتلها، فدومًا ما تكون الواجهات خادعة لا تظهر ما تبطنه الأعماق، والنبش بعمق يبرز النفايات إلى الأسطح! لذا فقد اعتصر عبد الفتاح بالأسئلة حتى يعرف سقف معلوماته إلى أين يرتفع، وكان ارتفاعه غير مرضي لسقف طموحات همام البتة.

***

رن هاتف سلمى بإلحاح، كانت المتصلة هي ياسمين فأصابتها الحيرة، منذ موت بلال وياسمين ابتعدت بصمت، لم تعد تتواصل مع ليلة أو معها

باستثناء تلك المرة التي حاولت الاقتراب من ليلة بها ولم تسمح لها حالة ليلة النفسية، كانت سلمى تعذر ياسمين لابتعادها؛ فرغم احتياجها المواساة بحجم أقل من احتياج ليلة، يظل فقدانها جسيمًا بحجم حبها لبلال، فالجميع يعرف أن تقاربهما منذ سنوات الطفولة والنشأة بذات الحي وتلاصق المنزلين ساهموا في خلق رباط مميز بينهما، كانت تخفي حبها له وتفضحها عيناها واضطراب وجهها حين تتعامل معه ووجودها بكل مناسبة تجمع الجيران ومتابعتها الصامتة له، أما هو فكان يتظاهر بالسذاجة بادئ الأمر ولم يكترث بها أو يلتفت لحبها الصامت ذاك، ثم تمادى في سذاجته وخطب زميلة له بالجامعة وحينها اكتشف حجم الكارثة

التي ورط بها نفسه، فقد تلاشت من محيط حياته وباتت كل المناسبات خالية من وجودها وعينيها التي تأسره، تمر الساعات ثقيلة عليه وهو يبحث عنها في وجوه الفتيات، يصارع اللهفة وتشبث عيناه بدوران عقارب ساعته حتى تنتهي المناسبة بالحسرة، وحينها يتجدد شعوره بفقد شيءٍ غالي وذلك الخواء الذي بداخله يكبر ويتزايد حتى لم يعد له طاقة على تحمله، فقد اكتشف حقيقة تعسة ألا وهي أن قلبه لم ير سواها لكن عيناه كانت تعمى عن الحقائق، نفض يده من خطبة حتمًا ستنتهي بزيجة فاشلة وهرب إليها، وقد احتاج كل قوته وعاطفته ليقنعها أنه أحمق ساذج كاد يفقدها دون أن ينتبه لسكناها بقلبه منذ البداية، ولأن ليلة

تعرف حجم حبه لها فقد تقربت منها وصارت صديقة لها، أما سلمى فلم تشغل بالها بياسمين كثيرًا، فقد ساهم محل إقامتها في بعدها عن ربط ومد أواصر الصداقة مع أهل زوجها، والآن وهي تنظر لشاشة هاتفها بحيرة تبحث بذهن مضطرب عن سبب اتصال ياسمين بها قررت أن تجيب بهدوء، أتاها صوت ياسمين قلقًا تسأل عن ليلة فهدأت زوبعة أفكارها وعاد إليها اطمئنانها بأن الاتصال ما هو إلا شكلًا حضاريًا مما يمارسه البشر تجاه بعضهم البعض.

أجابت باتزان تشرح لياسمين حالة ليلة التي تركتها بها صباحًا حين أتى باسل ليحل محلها فتوترت ياسمين للغاية، قالت بتفهم:

هذا يفسر سبب عدم ردها على اتصالاتي المتكررة، قلقت للغاية وكنت أريد الوصول لها بأي طريقة.

جاء دور سلمى لتسأل عن سبب استماتة ياسمين لمكالمة ليلة فصدمت بموجة الإجابة التي حملتها لقاع اللا منطقية، كان صوت ياسمين يصلها عبر أثير موجات الاتصال مبهمًا:

أتاني اتصال غريب من رجل مصري يقيم بإيطاليا، أخبرني أن هناك شخص أودعته الشرطة ملاجئ المتسولين منذ وقت طويل بعد أن وجدوه بالشارع يهيم على وجهه ولا يعرف شيئًا عن نفسه، الرجل يتحدث اللغة العربية باللهجة المصرية لكن لا أحد يعرف من هو، صادف وجود ذلك المتصل بالمكان كمتطوع ليعرف عندها أن هذا الرجل مصري فاقد

لأوراقه الثبوتية والأكبر من ذلك أنه فاقد للذاكرة، كانت حالته تبدو صعبة للغاية، فرغم فقدانه للذاكرة إلا أنه يبدو ذكيًا ومثقفًا ولذا قرر مساعدته على إيجاد ذويه، خاصة أن فاقد الذاكرة ذاك يذكر رقم هاتف برأسه ولا يعرف لمن هو.

عند هذا الحد شهقت سلمى التي كانت قد ابتلعت لسانها ببداية الكلام لشدة صدمتها، وإثر شهقتها وصلها صوت ياسمين المحمل بالخوف والرعب وعدم التصديق:

أتتخيلين أن ذلك الرجل هو بلال! أنا سأموت يا سلمى، فالرجل حدثني كي يتأكد إن كان هناك من أعرفه بإيطاليا فوصفت له بلال وحليم وأنا أكاد أموت وأتعثر بالكلام لشدة صدمتي، أخبرني أنه لا

يستطيع تحديد أيهما من أتحدث عنه؛ فذلك الذي يراه أمامه تغيرت هيئته بملابسه المهترئة وشعره الأشعث، طلبت أن يدعني أحدثه لكني يا سلمى كنت أموت كل ثانية تمر علي بانتظار سماع صوته، قلبي ينتفض ويصرخ وتنفسي يضيق به صدري، وصلني صوته حائرًا خائفًا يسألني من أنا ولم هاتفي بذاكرته؟ كاد قلبي أن يتوقف وأنا أسمع صوته، أتتخيلين حجم معاناتي حين يصلني صوت من ظننته ميتًا وأقمت له شاهدًا بداخل أضلعي أزوره متى ما قض الشوق مضجعي! ماذا أفعل يا سلمى؟ أريد أن أتحدث إلى باسل أرجوك، ليس لدي رقمه لذا اتصلت على هاتف ليلة لكنها لم تجبني، أنا لا أعرف ماذا أفعل!

انهارت ببكاء حاد شديد حتى أن سلمى لم تجد كلمات تستطيع مواساتها بها، ظلت تستمع وتستمع وصوت انهيار ياسمين يصلها فيمزق قلبها ويرج تفكيرها السليم فيصيبه بالتعثر، أخيرًا نطقت فقالت لياسمين بصوت مرتفع: انتظري سأهاتفك مرة أخرى!

أنهت المكالمة لتتصل بباسل، وحين وصلها صوته قالت بارتجافة تطغي على ارتفاع صوتها:

بلال أو حليم أحدهما حي، وربما هو بلال!

وكانت ردة فعل باسل مخيفة للغاية.

***

الفصل الثالث عشر

لن تجد إنسانا قويًا دون ماضٍ مؤلم،

لا أحد يصل إلى مرحلة العقلانية دون أن يُدمر شيئًا ما في داخله.

د. مصطفى محمود.

وقف باسل جوار فراش ليلة شاعرًا بالاختناق، ود لو يستطيع حملها والهرب بها من هنا حتى يبقيها بعيدًا عن مرأى ذلك الضابط الملحاح الذي لا يكف عن زيارتها ورغبته الغبية بالتحقيق معها، لم يكن لخوف عليها أو لقلق بوجود ما تخفيه، لكنه لم يحتمل أن يكون ذلك سببًا جديدًا لتنغيص حياتها وشفقة عليها من مغبة وضع فرض عليها دون إرادة منها.

نظرت له بابتسامة ذابلة وقد بدأت تشعر بالخمول بعد حقنها بالمهدئات وانسحاب الألم فجأة من جسدها وكأنها كانت تختلقه ولم يكن، قالت من بين تثاؤبها وصوتها النعس: عليك بالراحة يا باسل، أنا من أقسمت على سلمى ألا تخبرك باشتداد الألم علي؛ فلم أكن لأريدك أن تأتي كل هذا الطريق قائدًا سيارتك مندفعًا ومتهورًا بسبب القلق، هيا ارتح قليلًا فسوف أخلد للنوم لاستغلال لحظات زوال الألم بتعويض عدم نومي منذ الأمس.

ظل يراقبها عاجزًا عن النطق لبعض الوقت فابتسمت لتطمئنه وأغمضت عينيها كي تقنعه بأنها ستنام بالفعل، قال بقلق:

ذلك الغبي بالخارج يريد أن يجري تحقيقًا معك، لا أدري ما يريده تحديدًا منك، أليس مصابك كافيًا كي يجعله يشعر بالخجل من نفسه ومن تقصيره بحمايتك!

فتحت عينيها دفعة واحدة فقرأ بهما القلق الذي لم تترجمه إلى كلام بل تحدثت بهدوء يخالف ما تشعر به: لا تحمله ما ليس له ذنب به، ما حدث كان مقدرًا يا باسل كما كان قدري رحيل حليم وبعده طفلي، لذا كف عن تحميل كل من حولنا ذنب ما يحدث لي، أنا راضية بقضاء الله رغم توجعي وفقداني السيطرة على نفسي بعض الأحيان، دعني أنم قليلًا ثم حين أفيق سأطلب منه أن يجري تحقيقه ويسأل عما يريد، فبالتأكيد حاجته إلى إيجاد تفسير لما حدث

خلف باحة منزلي هي الدافع لوجوده بالخارج ينتظر مني إجابات عالقة لأسئلة تدور بذهنه، لن أكون ليلة إذا لم أفهم سبب ربطه الأحداث بي.

هز باسل رأسه مؤمنًا ومحاولًا إقناع ذاته أن كلامها به الكثير من المنطق حتى يبدو وكأن ليلة من تكبره عمرًا وتفوقه ذكاءً.

ارتفع رنين هاتفه فقطع سريان الأفكار إلى رأسه وشتت تركيزه فالتقطه من جيب سترته ليرى أن سلمى زوجته من تتصل، ود أن يتجاهل اتصالها لكنه خشي أن يكون هناك ما يستوجب رده فأجاب بجفاء، لكن جملة واحدة خرجت من بين شفتيها بعثرت جفاءه واتزانه وتفكيره وكادت أن تفقده وعيه وإدراكه السليم، جملة مكونة من عدة كلمات

كانت كخناجر حادة انغرست بعقله ونحرت قلبه «بلال أو حليم، أحدهما حي!» فاختلج منتفضًا بخوف وقلق وانهيار.

تطلع نحو ليلة التي تراقبه بتوتر قبل أن يشير بيده معتذرًا ليخرج من غرفتها مستبقًا أسئلتها عما به، فبعض الكلمات لا تعبر الأذن بسلاسة بل تمرق حادة تمزق كل ما تطاله حتى تذهب بكل منطق سليم.

خرج لا يرى أمامه، عيناه هائمتان وصوته ذهب ويداه ترتجفان، لا لم تكن يداه بل كله يرتجف من أعلى رأسه حتى أسفل قدميه، رأى همام حالته تلك فهرع نحوه ليسنده ويوجهه نحو المقعد الذي

كان يجلس عليه منذ قليل، أمسك الهاتف الذي ما زال مثبتًا على أذنه لينزله ويسأل بقلق فعلي:

ماذا حدث؟ هل..

لم يجد أي تفاعل من باسل على سؤاله وقد بدت عيناه زائغتان فبتره ليضع الهاتف على أذنه مستمعًا إلى الطرف الآخر وقد أتى إلى تفكيره أن الاتصال تابع للقضية أو ربما هناك من يهدد باسل بشيء ما، لكن ظنونه خابت حين سمع صوتًا أنثويًا ملتاعًا من الجهة الأخرى:

_ باسل أنت بخير؟ أرجوك لا تصمت هكذا، تكلم وأخبرني بأي شيء.

.. من معي؟

_ بل من أنت وأين زوجي؟ ماذا حدث له؟!

صوتها المرتاع أخبره أنها تعاني ذعرًا يشبه ذعر زوجها الذي انكفأ برأسه الآن نحو كفيه المثبتتان على حجره يدفنها فيهما دون أن يتحرك، لذا تحدث بهدوء مبتعدًا خطوتين:

زوجك بخير وهو بجواري، أنا الضابط همام، أخبريني فقط ما حدث!

اندفعت تولول وتنوح بصوت حاد متقطع:

إنه شيء لا يعنيك، لكن.. لكن.. إيطاليا بها.. واحد منهما حي، لقد أتانا اتصال بهذا.

لم يفهم همام منها كلمة واحدة لذا قال بنفاد صبر:

.. سيدتي هلا هدأت وأخبرتني عمن تتحدثين؟

_ زوج ليلة وأخوها ماتا بإيطاليا، ثم الآن أتانا اتصال بأن أحدهما حي ويرجح أنه بلال، أخبرت باسل بذلك، ماذا حدث له طمئني!

.. إيطاليا؟! امممم! باسل بخير لكنه لن يستطيع محادثتك إذ يبدو أنه يمر بصدمة، سأحضر طبيبًا كي يراه.

أنهى المكالمة دون لياقة منه وجل اهتمامه منصب على حالة باسل الذاهلة وارتعاشة كفيه التي يخفي وجهه بهما، اقترب منه ليربت على كتفه بهدوء ولكن صوت النحيب الخافت الذي وصله منعه من محاولة محادثته، اتجه من فوره نحو مكتب الطبيب ليجده بالداخل فشرح له سريعًا حالة باسل وأنه قد يكون مصابًا بانهيارٍ

نفسيٍ أو صدمة عصبية فهو ليس بطبيب ولا يعرف الفارق بينهما.

نهض الطبيب يتبعه ليجدا باسل بنفس وضعيته السابقة، لكن صوت نحيبه صار مرتفعًا عن ذي قبل وكأن حاجز التحكم بذاته قد انهار وتحطم فلم يعد هناك ما يردعه.

استدعى الطبيب الممرضة وساعدا باسل على النهوض كطفل لا يملك حولًا ولا قوة لنفسه حتى أدخلاه غرفة ليلة التي كانت قد راحت بسبات نتيجة المهدئات فلم تستيقظ على الجلبة بغرفتها، استلقى باسل على الفراش المجاور لها دون أن يقاوم سريان ذات المهدئ بدمائه، فقد اشتاق

راحة بعيدًا عن ذلك الضجيج المرتفع بين أزقة عقله وطرقاتها.

***

جلس همام جوار فراش باسل وعيناه تتابع نومه ونوم أخته على الفراش المجاور وكأنهما ميتين ودعا الحياة، انتابته شفقة مستعصية على حالهما وقد تأثر بظروف هذه الأسرة رغم عدم تعمقه بحكايتهما، تمطى بتعب وود لو تمدد مثلهما على الفراش وراح في سبات يقف عقله به عن التفكير مرتجيًا هدنة من تلك الزوابع العاصفة برأسه.

لكن عقله لم يكن ليستجيب لتلك الهدنة المرتجية، بل أخذ يغلي كمرجل ممتلئ عن آخره بأفكار ذات نهايات مبتورة، أخرج مفكرته التي لا تفارق جيبه

وبدأ في مراجعة ما دونه فيها منذ البداية، كان يرغب في تزجية وقته بربط جميع أطراف الخيوط التي جمعها طوال الطريق في قضيته بداية من التحريات الأولية وحتى زيارته لشركة الأنهار.

توقف كثيرًا عند إفادة جمالات التي دونها بمفكرته وقد تعثر تفكيره قليلًا، فقد كانت علاقتها بقضيته السابقة والتي لم يستطع سابقًا ربطها بالمجرم قد وضحت الآن، وفيما يفيده وضوحها وهو قد فقد زوجته وابنه؟!

تجاوز مشاعره بصعوبة ليستطيع إكمال قراءته، فقد أخبرته في إفادتها أنها كانت قد تعاونت مع تاجر للممنوعات بطريقة غير مباشرة عن طريق معاونه، كانت تؤجر له الأطفال فاقدي الهوية ليستخدمهم

في توزيع مخدراته على من يطلبوها دون أن يثير وجود الأطفال الشبهات، ولولا وفاة أحد الأطفال بجرعة مخدر زائدة وخوفها من مغبة القبض عليها بهذه الجريمة لما توقفت عن هذه المهنة المربحة، ولذلك حين تم القبض عليها بالمرة الأولى لم تستطع الشرطة ربطها بهؤلاء الأطفال لأن أغلبهم هرب ولم يجدوا من يؤكد شكوكهم بها، ولأنها ضمنت عدم وجود ما يؤكد شكوكهم فقد استطاعت الإنكار والافلات، وقد كلفها هذا كثيرًا لأنها توقفت عن عملها لبعض الوقت خشية مراقبة الشرطة لها، ثم حين تأكدت أنهم نسوا أمرها عادت لخطف الأطفال وبيعهم دون المجازفة بدخول عالم

المخدرات الشائك، فقليل دائم خير من كثير منقطع.

عند هذه النقطة اجتاحه الغضب منها ومن كل الأوغاد الذين هم على شاكلتها، وكأن البشر ومشاعرهم لعبة يديرونها بين أصابعهم للحصول على ربح زائل دون مراعاة مصير من يتاجرون بحياتهم أو الأذى الذي سيخلفه فعلتهم على حياتهم وبنفوسهم!

تطلع إلى اسم الرجل الذي دونه من إفادة جمالات والذي كان ذراع المهرب الكبير على حد قولها فازداد غضبه، قال بفحيح هامس:

لك عودة حين أنهي قضية ليلة، فلم ينتهي الحساب بيننا بعد.

وعلى ذكر ليلة رفع رأسه يرمق ملامحها المستكينة بصمت، هناك دعة تطوف على وجنتيها تدعوه لأن يثق في براءتها، لكن حدسه البوليسي يرفض تلك الثقة بل ويحفزه تجاهها وتجاه الأسرار المحيطة بها، فوفاة زوجها وأخيها بإيطاليا لا يشفعان لها، لكن..

اهتزت حدقتاه وهو يكرر كلمة إيطاليا برأسه ثم قفز بالصفحات حيث سجل إفادة عبد الفتاح مشرف السائقين وهو يخبره أن الشركة لها جسر ممتد حتى إيطاليا وإسبانيا..

أيعقل أن هذا هو الرابط؟!

كتب كلمة حليم ثم أحاطها بدائرة كبيرة ليخرج منها عدة أسهم متفرعة وعند كل سهم كتب جملة..

موقع أرضه.. الحاج علي وابنته.. حامد يعرف كل شيء عن المنزل.. ثم وضع علامة استفهام كبيرة عند هذه الجملة وحدق بها طويلًا، سأل نفسه سؤال مبهم الإجابة «كيف يعرف حامد كل شيء بخصوص المنزل وأهله؟»

تذكر أن ليلة خمنت بزيارته السابقة لها أن القاتل يعرف المنزل جيدًا، إذًا كان ذلك الوغد على علم بتحركات أهله، أمسك هاتفه فاتصل بمركز الشرطة الذي أبلغه بمقتل حامد، وحين أوصلوه بالضابط المسؤول سأل عن متعلقات القتيل فوجد أنها قد تم استلامها من قبل أسرته مع جثته، شكر زميله ثم اتصل بالضابط «ابراهيم» المعاون له في مركز الشرطة ليطلب منه الخروج بمهمة سريعة إلى أهل

حامد فيتسلم مفاتيحه، عليه التأكد أن المجرم يملك مفتاح منزل ليلة، وذلك سوف يقرب تصور الأحداث برأسه إلى الحقيقة.

أنهى المكالمة ثم عاد ليرمق الصفحة التي دون عليها اسم حليم بشرود، لكن تململ باسل بالفراش دفعه لرفع نظره إليه وزيادة تركيزه ليعرف ما يردده باسل من بين شفتيه المضمومتين، نهض من المقعد واقترب منه فسمعه يردد مكررًا «بلال، بلال..»

ثم على حين غرة فتح عينيه ليتطلع بوجه همام برعب قبل أن يستقيم جالسًا ويتلفت حوله بعدم فهم، تطلع بوجه همام قبل أن يقول بحيرة:

حلمت أن بلال حي، اتصلت زوجتي وقالت..

ثم سكت دفعة واحدة وقد عادت إليه ذاكرته ليسأل بخوف: لم يكن حلمًا، أم أنا أهذي؟

ربت همام على كتفه مؤكدًا بهدوء أن حلمه حقيقة وليس بهذيان، حينها سارع باسل للنهوض قائلًا بخوف: إذًا بلال هناك، أم هو حليم، لا أستطيع ترجيح كفة الأمنيات لدي ولكن قلبي يرغب أن يكون بلال من استطاع النجاة من الحادث.

قالها ثم عاد ليجلس بتشتت على الفراش ويتطلع نحو ليلة الغافية بنفس وضعيتها الصامتة التي وجدها همام عليها منذ دخل الغرفة، ظل يرمقها بأسى قبل أن يقول: منذ وفاته لم أستطع الحزن أبدًا، مصابها جعلني أنسى أنني قد يحق لي الحزن لفقد أخي وصديقه المفضل زوج أختي، ليتني

أستطيع التخلص من نزعة الحماية التي تتملكني جهتها! أرجأت كل مشاعري ووقفت أساندها وأؤازرها لأنني علمت أن محنتها أكبر من محنتي، لم أحزن كما ينبغي لقلبي أن يفعل وقد كان شعور الخوف عليها طاغيًا علي فيعميني عن حقيقة مشاعري، لا أستطيع وصف ما شعرت به حين أخبرتني سلمى أن أحدهما حي، انسحب الدم من رأسي وأنا أتخيل أن أحدهما سيعود وستنتقص أحزاننا إلى النصف، أو أن عودة أحدهما ستقلب التعاسة التي لاحقتنا وبالأخص هي إلى سعادة، وكم تمنيت أن تكون العودة من نصيب بلال رغم أنني سأفرح لو كان حليم هو العائد.

كان يتحدث بسرعة وعيناه تراقب ليلة بكمد وبؤس وهناك خط من الدموع يسيل من مآقيه دون انقطاع، فعلم همام أن المدعو باسل والمتجلد بالصبر منذ مصابه فقد كل لجام صبره فهاجت مشاعره بكل ما كان يخفيه من قبل وتحررت لتنطلق كما تشاء، رمق وجهه ثم نظر لوجه ليلة قبل أن يقول لباسل:

أيّا كان من سيعود فهو خير، عليك أن تدعو بألا تكون هذه الأخبار مغلوطة.

وصله صوت باسل الملتاع:

لا تقل ذلك، سيكون بلال حيًا، قلبي يخبرني بهذا.

«بلال حي؟»

صوتها المندفع كالجرس نبههما أنها مستيقظة وسمعت حوارهما، لكن صوت ارتطام جسدها بالأرض دفع همام ليقفز نحوها بقلق ويلحقه باسل بذعر فاق الحدود.

***

جلس على مقعده الخشبي غير المريح بتاتًا بكافتيريا المستشفى المزدحمة بأهالي المرضى المرافقين والأطباء على السواء، المكان له طابع مقبض رغم انتشار رائحة القهوة والشطائر الساخنة المحركة لغريزة الجوع، وقد انتبه أن النهار انتصف دون تناول الطعام، كان من المفترض أن يكمل بدرب تحرياته لكن وجود هذه المدعوة ليلة يصر على إرباك خططه وتبديل أولوياته، فمنذ أتى

إلى المستشفى طمعًا بتسليط بعض النور على تلك الزوايا المظلمة بجنبات قضيته إلا وقد ازدادت الأمور تلبكًا وتشابكًا وصار لزامًا عليه أن يعيد صياغة مخططاته لليلة.

اتصل على صديق له طامعًا بمكان يبيت به ليلته في المدينة بدلًا من العودة إلى محل سكنه؛ لأن مهمته لم تقارب الانتهاء هنا وعليه إكمال جمع الخيوط والبحث عن ذلك المدعو سيد والذي أخبره عبد الفتاح أنه قريب للسيد محمد صالح مدير الشركة، لكن سيد كان بسفرية خارج البلاد كما علم من الرجل وعليه أن يتحرى عن مكان وجوده الفعلي ويتأكد من صدق كلامه.

ثم ها هو قد تورط بجانبه العاطفي مع ليلة وأخيها الذي شهد انهياره منذ قليل، خاف من التورط بشكل مبالغ معهما حتى لا يؤثر ذلك على صواب رأيه ويجانبه التفكير السليم بمفردات قضيته الصعبة، لذا ما إن هرع لمساعدة باسل على رفع ليلة المنهارة أرضًا تحدق في وجهيهما بذهول وعدم فهم وتردد بهستيريا جملتها الأخيرة المتسائلة عن كون بلال حي أم لا، حتى خرج لاستدعاء الطبيب لمعاينتها خوفًا أن تكون جراحها قد تأثرت بسقوطها، ثم هرب إلى الكافتيريا ليستجمع قوى تفكيره بعيدًا عن ذلك التخبط المرهق لإدراكه.

طلب شطيرة من الجبن وكوبًا من القهوة واستقر على المقعد مغمضًا عينيه يحاول تدارك ما يمكن إدراكه من منطقية تفكيره.

حامد قُتِلَ، وتحرياته أخبرته أنه عمل لفترة من الوقت كسائق بشركة الأنهار قبل أن يترك المهنة ويتردد على الشركة دون مهنة محددة، أخبره عبد الفتاح أنه كان صديقًا لسيد، وسيد نبتة فاسدة ابتليت بها عائلة السيد محمد صالح، وحين خرج من السجن حاول خاله محمد أن يتيح له الفرصة بالكسب الحلال فساعده بالعمل في الشركة كسائق، ثم تمت ترقيته ليتولى أعمال الشركة من تخليص جمركي وتردد على موانئ الشحن والمطارات، وفي بعض الأحيان يتم تسفيره للخارج،

أما حامد فلا يعلم سبب تقاربهما، ثم مال حينها ليخبر همام همسًا أنه يرجح كونهما صديقين تقابلا داخل أسوار السجن أو الإصلاحية* كما تسمى ومنذ تَرْكِ حامد مهنة القيادة لا يعلم أحدٌ مهنته الحقيقية بالمكان رغم تواجده على فترات بعيدة بمكتب السيد محمد صالح، ويرجح الجميع أنه مرحبا مع سيد بالتخليص الجمركي وما شابهه.

عند هذا الحد توقفت ذاكرة همام عن العمل، فتح عينيه واستقام من وضعية الاسترخاء التي اتخذها

____

*الاصلاحية هي مكان يوضع به الأطفال القصر الذين يرتكبون جرائم ولا يستطيع القانون محاسبتهم عليها لعدم بلوغهم السن القانوني.

منذ قليل ليخرج مفكرة الجيب خاصته والتي لا تفارقه اثناء تحرياته ويقرأ ما دونه مرة أخرى.

كان عبد الفتاح قد أخبره أن السيارة التي سرقت منهم تم أخذها من مخزن الصيانة بالشركة دون معرفة هوية من أخذها، فكاميرات المراقبة بالشركة في هذه الليلة وجد أن بها عطلًا فنيًا فلم تسجل ما حدث، ويرجح أن سبب سرقة السيارة هو ضياع مفتاحها من السائق المهمل عيد واضطرارهم لاستخدام المفتاح الاحتياطي بعد ذلك، هذا ما أخبره به السيد محمد حين عقد معه اجتماعًا لمعرفة ملابسات الحادث، وبناء على ذلك فقد تم طرد عيد لأنه يعاني من فقدان التركيز كثيرًا.

عند هذا الحد أنهى فنجان قهوته ثم نهض متجهًا إلى غرفة ليلة كي يطمئن على وضعهما هي وباسل قبل أن يتجه إلى مركز الشرطة بالمدينة وقد اختمرت بذهنه فكرة قابلة للتنفيذ؛ فوجود سجل بالشرطة لذلك المدعو سيد حتمًا سيفيده فيما سيأتي، وعليه استغلال كل فرصه المتاحة وخلق تلك التي لم توجد بعد.

***

وقف عبد الفتاح بخزي أمام رئيسه العارم الغضب وعينيه الضيقتين تكادان تقتلانه صعقًا بينما صوته خرج باردًا لا يعبر عن موجات الغضب المنتشرة حوله وهو يسأله مؤكدًا: أخبرت ذلك الضابط المتطفل عن ماذا تحديدًا؟

تلعثم عبد الفتاح وطأطأ برأسه متحاشيًا أن تلتقي عيناه بعيني مرؤوسه فيكتشف كذبه: لا شيء صدقني، كان يسأل عن عيد وكيفية سرقة السيارة من المخازن فأخبرته الحقيقة التي أعرفها..

_ ألا وهي؟!

.. أنها سرقت بسبب إهمال عيد وضياع مفتاح السيارة منه بوقت سابق، وأن كاميرات المراقبة كانت معطلة تلك الليلة فلم نكتشف هوية من فعلها.

ثم رفع رأسه متحدثًا بأمل:

.. بل وأخبرته أن السرقة تمت بهدوء فلا يوجد من استطاع رؤية المجرمين، وحين سألني كيف خرجت دون أن ينتبه الحارس لخروجها أخبرته أن

قفل باب المخزن قد كسر ليلتها بينما الحارس الأحمق منشغل بمتابعة برنامج مفضل لديه على شاشة التلفاز الصغير بغرفته.

شعر محمد صالح بالقلق بسبب عودة الضابط من خلف ظهره رغم رضاه عن ردود عبد الفتاح وإجاباته، لم يعلم أن عبد الفتاح قد أعطى همام ما يريد دون فهم لمجريات الأمور وما يحدث حوله، فالجهل رغم أنه قد يكون نعمة إلا أن أغلبه نقمة حين يصاحبه زلة لسان تجهل عواقبها، وقد كانت زلات لسان عبد الفتاح مفتاحًا مهمًا في قضية ضاعت أغلب مفاتيحها بعد أن أغلقت أبوابها بإحكام.

لوح محمد بيده لعبد الفتاح ليصرفه دون كلمة بينما عقله يعمل كحاسوب يقيم الوضع برمته

ويحسب احتمالات النجاة والسقوط، فالسقوط يحمل خلفه حبل غليظ سيلتف حول عنقه حتى يقضي أجله.

أمسك هاتفه فطلب رقمًا معينًا وحين وصله صوت محدثه قال بلهجة آمرة لكن بصوت خفيضة: ظل مكانك ولا تخرج، فبعض العواصف قادمة بالطريق، وسوف أتخلص من بعض الآثار الغير مرغوب بوجودها حتى تهدأ الأجواء.

أنهى المكالمة ثم أجرى مكالمة أخرى وبنفس طريقة تحدثه الأولى قال كلمات مقتضبة:

سنحتاج لإرجاء كل الخطط بل وربما قطع بعض السبل التي تربطنا ببعض، لا مجال لسقوط كلينا، وإن سقط أحدنا فلينج الآخر، سأحاول بكل

الإمكانيات تأمين النجاة لنا، لكن تأهب في حال ساءت الأمور، وقد تسوء بالفعل.

عاد لينهي المكالمة هذه المرة وقد جال على وجهه الغاضب اشمئزاز قبل أن يهمس بصوت ممتلئ بالحقد: اللعنة عليك يا حامد حيًا وميتًا، لم أنل من خلفك سوى المصائب.

ثم أطرق برأسه مفكرًا دون أن يمنع نفسه من التفكير بالتخلص من كل المعوقات، وربما همام هو أكبر عائق يهدد أمنه الآن.

***

الفصل الرابع عشر

أصحاب الشجاعة والشخصية القوية

دائمًا ما يبدون أشرارًا للآخرين.

هرمان هسه.

ارتدت ياسمين ملابسها على عجالة قبل أن تخرج من غرفتها كعاصفة هوجاء تخالف طبيعتها الهادئة، وجدت والدتها بالخارج تجلس على مقعدها المفضل أمام التلفاز تتابع حلقة مسلسلة باهتمام، لكن ما إن رأت ياسمين بحالتها هذه حتى تشتت ورمقتها بنظرة مصدومة قبل أن تسأل بدهشة عما ألم بها ولأين هي ذاهبة، ففجرت ياسمين قنبلتها المدوية وهي تخبرها بخوف ودموعها تنساب على وجنتيها دون سبيل لتوقفها:

سأذهب لمقابلة ليلة والدكتور باسل.

_لماذا؟

..لا أدري يا أماه، أنت لا تأبهين لمشاعري ولا تهتمين بم أشعر، لن تصدقيني إن قلت لك أنهما يحتاجان وجودي كما أحتاجهما، فكل منا ضاع بعضٌ من قلبه ذات يوم بينما الكل حولنا منشغل بأمره!

_يا بنت تأدبي وتحدثي بما أفهم، ما هذه الكلمات العوجاء التي لا أعرف ما تقصدينه بها؟

..أرأيت؟ بلال يا أمي هناك أخبارٌ عن كونه حيًا، صدقيني حتى وإن كانت كاذبة فيكفيني أنه حي بقلبي إلى يومنا هذا رغم تعنيفك المستمر لي وتأنيبك على حب ملك تلابيب قلبي ولم أستطع

منه فكاكًا. أتظنين يا أمي أن قسوتك المبررة بأنك تريدين مصلحتي أتت بثمارها؟! لم تفعل يا أماه! بل كنت في أشد الحاجة إلى حضنك ومؤازرتك حتى أستطيع تجاوز وجع قلبي، وكان وجع قلبي بحبه هو نتاج دفعك لي للتشبث بذكرى ميت والذي أعلم الآن بأنه حي، أنا أهذي يا أماه فأعذري هذياني حين أعرف أن أمان قلبي لم يمت، لم يمت يا أمي كما كنت تخبريني دائمًا! والآن اعذريني فسوف أستقل القطار بعد ربع الساعة وعلي اللحاق به.

قالتها ثم هرعت كالمجنونة إلى الخارج دون أن تمنح أمها فرصة لتنطق بكلمة واحدة، أو أن تخبرها بأنها حاولت أن تحميها بطريقتها الصارمة كما كانت تفعل مع تلميذاتها، فالحب بالنسبة لأمها

المعلمة ذات الشخصية القوية العملية كان داءً ذاقت مرارة وجعه مرة حين كانت يافعة وضعيفة، وخافت أن يوهن قلب صغيرتها كما فعل معها، سقطت على المقعد دون كلمة وعيناها مركزتان على شاشة التلفاز لا ترى منه إلا غيمات ملونة لا تفقه منها شيئًا، فخبر عودة بلال كما سمعت من ياسمين أصابها بالصدمة، حتى أنها لم تعرف تفاصيل عودته أو كيف عرفت ياسمين بها، ولم تعلم أن ياسمين لم تتأكد من وجوده سوى بنبضات قلبها التي تنتفض منذ سمعت صوته الغريب بغربة وجوده في بلد بعيد لأشهر طال مداها.

***

اتجه همام نحو غرفة باسل وليلة فطرق الباب بلطف قبل أن يدفعه للدخول، صدم من اللوحة المرسومة أمام عينيه بعنوان لا يستحق إلا كلمة «البؤساء»

فقد كانت ليلة ترقد على سريرها ويجلس جوارها باسل في صمت وكأن على رأسيهما الطير، يكتفي باسل بالربت على كفها المتشبث بيده بقوة وحين فتح الباب التفتت نحو همام لتنطق بصوت مبحوح: هل تأكدت من عودته؟

دهش همام من سؤالها فلم يخطر بباله أن يتدخل في تلك المسألة لكن نظرة باسل الضائعة وهو يلتفت إليه يكمل ما بدأته أخته:

أجل أنا عاجز عن التصرف، لأول مرة يصيبني الغباء فلا أعرف ما الذي ينبغي علي فعله، هل أستطيع السفر مباشرة لإيطاليا دون الحصول على تصريح زيارة؟

ازدادت دهشة همام من تفكير الطبيب العجيب ولكنه عزا ذلك إلى الصدمة التي يعانيان منها، لذا دخل إلى الغرفة ليقف جوار باسل فيتحدث بهدوء ومنطقية: يمكنك التأكد أولًا من صدق ما وصلك من أخبار عن طريق محادثة ذلك الرجل الذي حادثكم من هناك، والطلب منه بأن يسمح لكم بمكالمة الرجل الآخر مكالمة مرئية حتى تعرفون من هو، ثم لنتصرف بعدها.

أنب نفسه داخليًا «وها قد ورطت نفسك معهما، مالك ومال مشاكلهما ولديك مشاكل تفوق التي يعانيان منها!»

لكن صوت باسل الذي أمسك هاتفه ليجري مكالمة قطع عليه صوت التأنيب المنبعث بتلافيف ذهنه.

_أخبريني يا سلمى برقم المتصل بك من إيطاليا؟ لم يكن أنت من اتصل بها! معذرة أنا تائه للغاية ولم أستطع التركيز بفحوى مكالمتك السابقة.. حسنًا أرسلي رقم ياسمين.. ماذا؟ هي قادمة! حسنًا سأنتظرها.

أنهى المكالمة ثم نظر لهمام بأمل وتحدث بسرعة: كان الاتصال بياسمين، هو بلال لأن حليم لن يتذكر

رقمها دونًا عنا، ياسمين قادمة إلى هنا وسوف نعرف منها هوية ذلك المتصل ومدى صدقه، أليس كذلك؟

نظر نحو ليلة بأمل لكن نظرة الجزع بعينيها أوجعته، كانت عيناها ممتلئة بالدموع وتهز رأسها بخوف مرددة: فلتجعله بلال يارب، فعودة بلال ستحي ثلاثة قلوب ماتت برحيله.

اختنق همام بالجو المحيط به وكأن ما ينقصه الآن عيش فيلم تركي ممتلئ بالبؤس والخوف والوجع، هو رجل يحمل أوجاعًا بداخله تعادل ثقل وزنه ولا ينقصه عيش أوجاع غيره أو الانغماس بها، ربما لأن مصابه لا يحمل بارقة أمل أن ينقلب إلى أفراح أو

عودة غائب ذات يوم، فبيده دفنهما وما زال يذهب إلى قبرهما كلما اشتدت حاجته إلى فعل ذلك!

استدار دون كلمة وخرج من الغرفة تاركًا إياهما يشتاقان ويتمنيان وأمانيهما تشتته وتؤلمه، وتلك الغصة الخانقة ترتفع من أحشائه لتطبق على صدره فتؤلم أنفاسه وتكاد تزهق روحه ثم ارتطم عند الباب بإحداهن حال خروجه.

نظر لها ليعتذر ولا يدري إن كان خطؤه أم خطأها وهي المندفعة كالقذيفة ثم حدق بوجهها بحيرة وصمت، أما هي فقد وقفت تنظر له بقلق من بين دموع عينيها المتجمعة قبل أن تسأل بخوف: هل حدث شيء لليلة؟

بارقة ضربت ذاكرته فأنعشتها ليقول بعدم تصديق: أنت التي أتت لمركز الشرطة لإخبارنا بهوية الفتاة المقتولة!

ثم تطلع للغرفة من خلفه وسأل بدهشة: ما مدى قرابتك لهما؟

تلعثمت ياسمين من كل هذه الأسئلة وبدت مشوشة للغاية وكأن استيعابها قل إلى المنتصف، ورغم ذلك أجابت بخوف: أنا خطيبة بلال أخيهما، هل من خطب؟

_ أنت حلقة الوصل، أليس كذلك؟ بالفعل أنت هي!

.. حلقة وصل لأي شيء؟ سألته ياسمين بذعر.

فكر مليًا قبل أن يتحدث بقسوة: ماذا تعرفين عن قضيتي التي أعمل عليها؟ أنت من أخبرتني بهوية الفتاة الميتة والتي صدف أنها ماتت جوار منزل أخت خطيبك، والذي صدف أيضًا أن زوجها وأخيها ماتا ببلد أشك أن له علاقة بما يحدث حول منزلها! أخبريني ماذا تعرفين عن مشتري الأرض الغامض ذاك؟ أم إنه أنت؟

انطلقت سهام أسئلته الطائشة وكأنه رامٍ بارعٍ يجيد تصويب سهامه على الهدف فزعزع إتزان الفتاة وسقط قلبها بقدميها من شدة الخوف، فلم تكن لتتخيل أنها ستكون بمحل اشتباه يومًا ما.

***

فتح باب الغرفة بعنف ثم قال بغلظة دافعًا إياها للدخول: ادخلي الآن، أمامي الحل طوال الوقت وأنا كالأبله قد عميت عنه، كيف لم أنتبه أن كل الخيوط تشير نحوكم!

قالها وأشار بإصبعه نحو ثلاثتهم بعد أن هرعت ياسمين لتقف جوار فراش ليلة بخوف ورعب من سحنة الضابط المنقلبة ونظرات عينيه الشرسة، أما ليلة وباسل فقد اتسعت أعينهما بصدمة جراء كلمات الضابط المندفعة عبر طبلتي أذنيهما عاجزة عن الوصول إلى مخهما كجمل مفهومة، لكن همام أكمل بشراسة دون أن يعير صدمتهما أي انتباه:

أخبروني مدى تورطكم بهذه القضية؟ أريد أن أعرف سر الأرض ولماذا تحديدًا لعبتم هذه اللعبة!

وصله صوت ليلة المصدوم مرددة: اللعبة! أي لعبة؟

_ لعبة البراءة وتمثيل دور الضحية بإتقان، لقد كدت أصدقك وأنا أؤجل استجوابك كل مرة بدافع الشفقة حين أراك بهذا الوضع، لكن يبدو أنني كنت أحمقًا..

.. بالفعل أنت أحمق وغبي. قالها باسل الذي تحرر من صدمته لينهض بغضب وكأن هجوم همام على ليلة أيقظ عفاريت غضبه الكامنة بداخله، استرسل بالهجوم اللفظي الحاد: أتظن أن أحدهما قد يذهب به التخطيط لأن يصيب نفسه بعاهة مستديمة أو يرتضي لنفسه هذا الوضع! _قالها مشيرًا نحو ليلة الراقدة على فراشها محاطة بالأغطية التي تداري

الجهاز المعدني القبيح الذي يثبت فخذها فيقيدها بالفراش دون حول ولا قوة_ أتظن أيها الضابط العبقري أن الإجرام قد يأخذ حقه معنا فتقرر هذه المسكينة أن تلقي بنفسها من الشرفة حتى تصاب بكسر مضاعف بعظمة فخذها واحتمالية البراءة منه والعودة للمشي كسابق عهدها تصل إلى أقل من المنتصف بينما الاحتمال الأكبر أن تحتاج لوسائل مساعدة كي تستطيع ممارسة حياتها الطبيعية، أي غبي أنت!

كان قد وصل إلى حيث يقف همام فوقف أمامه مكورًا قبضته بوضع التأهب ليحط بها على وجهه لكن صوت ليلة ارتفع حادًا بخوف:

كفى يا باسل، كف عن حمايتك لي بطريقة تسبب لك الضرر، لا يوجد ما نخافه إن تم استجوابنا، فنحن بريئان رغم كل شكوكه، الضابط يقوم بعمله ليس إلا.

لكن همام أردف بسخرية رغم تعلق عيناه بوجه ليلة المتعب: أنتما بريئان، وهي ؟!

ثم أشار نحو ياسمين المختضة جوار ليلة ليكمل استفهامه الساخر:

هي من أخبرتني بهوية الفتاة التي قتلت تحت شرفتك وأمام عينيك، والآن يفاجئني أنها على معرفة بك وتربطكم صلات قرابة، أي منطق في هذا يخبرني ببراءتكم وابتعاد الشبهات عنكم أو عنها تحديدًا! وأنت!! _قالها مشيرًا نحو ليلة_ أخبريني

كيف لا تعرفين الفتاة المقتولة رغم أن والدها يعرفكم ويعرف زوجك الراحل! بل وكان جارًا لكم في قطعة الأرض التي باعها زوجك المرحوم إلى مشترٍ غامض!

فاض بباسل الحنق فمد يده يمسك همام من تلابيب بدلته الرسمية يجره إليه هاتفًا بغل:

احتفظ بأفكارك العبقرية لنفسك وعليك إثبات تورطنا بالأدلة لا بالتخمينات، وحتى ذلك الوقت لا أريد رؤيتك هنا، فالمصائب التي تحاوطنا تكفينا ولا ينقصنا المزيد!

أمسك همام يده الممسكة بملابسه ليرفعها قائلًا بتحذير: ارفع يدك عني وإلا ستكون العواقب وخيمة، يمكنني اتهامك بعرقلة سير العدالة

واخفاء أدلة عن القضية التي أحقق بها، وإن أردت الاستجواب الرسمي فهنيئًا لك بالعرض على وكيل النيابة، ما منعه عنكما إلا ضماني لكما بمحل وجود السيدة ليلة بالمستشفى.

قالها دافعًا يد باسل للخلف فارتفع صوت ليلة الجزع تتوسل أن يهدأ الموقف مبددة تيارات الاحتقان المنتشرة بالأجواء:

سيدي الضابط يمكنك إجراء تحقيقك معنا ولن نمانع، فلا يهمنا سوى تحقيق العدالة، وأعتذر عن غضب باسل فكل الظروف كما ترى تعاندنا.

للحظة شعر همام بالحزن يجتاحه ويقبض على صدره، رأى في نظرة عينيها انكسار وقوة رغم تناقض الشعورين، أحب كونها تحمي أخيها رغم

ظروفها وهذا أخجله من نفسه ومن اتهاماته التي ألقاها بوجوههم، لكنه معذور؛ فالقضية ثقيلة يرزح تحت كآبتها وحده دون معين، ولولا ثقة رؤساء عمله به لما أوكلوه الاستمرار في تتبع خيوطها وحده، وربما هو كبش فداء كونه وحيدًا ليس لديه ما يخسره بالفعل وقد خسر كل غالٍ على قلبه من قبل، فتركوه يكمل بحثه خلف خيوط قضية غريبة وكل تفكيرهم منحصر بأنهم لن يخسروا شيئًا إن خسر بحل القضية، ولكن نجاحه يعني نجاحهم ونقاط تضاف لرصيد الشرطة عند الناس.

اندفع باسل للخارج بشكل عنيف قائلًا له بأنه لن يسمح له باستجوابه فلا شيء لديه ضده، ولكنه قبلًا أخذ رقم الرجل الذي اتصل بياسمين من

إيطاليا قبل أن يختفي بغضب مخلفًا شراراته خلفه في الأجواء، أما ياسمين فقد انهارت على مقعد جوار فراش ليلة، ظل همام يقف داخل الغرفة جوار الباب ينظر لهما بتأهب وضيق وقد أغاظه موقف باسل للغاية، لكن صوت ليلة المتعب جذب انتباهه وهي تشير نحو المقعد الفارغ على الجانب الآخر قائلة بحزن يفيض به صوتها فيبدو مؤثرًا للغاية:

_تفضل يا حضرة الضابط سل ما بدا لك وسأخبرك بكل ما أعرف.

ظل همام يتأملها بحذر ببشرتها الشاحبة وخصلات شعرها السوداء المتنافرة خلف حجابها المتهدل برقدتها البائسة تلك، شعر لوهلة بأنه يريد أن يتجه

نحوها فيربت على يدها المتوترة التي تلف طرف الدثار المفرود فوق جسدها يطمئنها ويبثها الهدوء، ولكن أين له أن يفعلها وهو الذي لم يعرف الهدوء النفسي منذ بعض الوقت!

كانت تلك الراقدة على فراشها تبدو كنظيرته في البؤس والضياع النفسي الذي يشعره مؤخرًا، ربما لهذا صار أكثر تفهمًا لها ولوجعها! نفض عنه أفكاره فاتجه نحو المقعد بهدوء وثقة تخالف داخله، جلس قبل أن يتنحنح ليجلو صوته فخرج أجشًا رغم ذلك:

أعتذر عن طريقة كلامي منذ قليل، أود أن أفهم ما هي علاقتكم بقضيتي فقط!

تنهدت ليلة ببطء قبل أن تتحدث بهدوء:

من واجبك أن تبحث خلف كل ما يثير انتباهك، سأخبرك بكل شيء مر منذ زواجي من حليم إن أردت وانتقالي لذلك المنزل، لكن أخبرني تحديدًا عم تريد معرفته!

ود أن يقول لها «كل شيء» ولكنه لا يريد تشتيتًا بالوقت الراهن فقرر أن يكون أكثر تحديدًا؛ لذا قال بهدوء:

ما تعرفينه عن المنزل والأرض المحيطة به، أود أن أضع يدي على سرها!

اومأت ليلة برأسها قبل أن تبدأ الحديث وقد شردت عيناها كأنها تستعرض شريط حياتها بحسرة على ما مضى..

«تعرفت على حليم حين أسس شركة صغيرة واحتاج أن يتوسع بها فقرر أن يشاركه بلال، ومنذ ذلك الوقت صارا متلازمين بكل لحظات حياتهما، يتبادلان عمل الشركة بينهما بكل سلاسة وأريحية وذكاء، ولأن بلال أخي كان مقربًا مني للغاية فقد كنت أتقابل مع حليم كثيرًا، حينها أخبر بلال بأنه يود خطبتي ولاقى طلبه هذا صدىً بقلبي.»

كانت شاردة ومبتسمة وكأن ذكرى تلك الأيام تحمل لها أفكارًا مفرحة تجلب البسمة إلى وجهها المرهق فتزيده جمالًا وتوهجًا. عادت لتكمل:

كان المنزل من نصيب حليم بالإرث لأن أخاه فضل أن يأخذ إرثه بالأرض فقط، فوجوده بمدينة بعيدة جعل اهتمامه بالمنزل قليلًا لأنه لم يكن يأت إلى

مدينتنا كثيرًا، أما الأرض حول المنزل فقد كانت بيننا وبين أخيه، هذا كل شيء يتعلق بالمنزل وأعرفه.

قال همام بتركيز شديد:

هي الأرض ما أريد معرفة كل ما يخصها، أخبريني ما تعرفينه عنها وعن قيمتها ولم باعها ولمن باعها؟

_ مرت علينا ضائقة مالية بسبب تعثر الشركة بيننا وبين بلال، كان حليم يود أن يوسع عمل الشركة والتي هي بالمناسبة تستورد قطع غيار السيارات الإيطالية من الخارج، أما بلال فكان يريد الاكتفاء بتجارة الجملة التي يعملان بها منذ البداية، ولكن حليم استطاع أخيرًا اقناع بلال بهذا فقرر بيع قطعة

أرض أتاه عرضًا مغريًا على سعرها فلم يقاومه، وتم البيع لرجل يدعى يدعى..

صمتت تستجمع الاسم برأسها قبل أن تقول بتخبط:

_ لا أتذكر الاسم كاملًا ربما كان جميل عبد الواحد أو عبد الأحد، فلم نر المشتري ذاته بل كان هناك سمسار ووكيل عنه قد يكون ابنه أو محاميه، لا أعرف تحديدًا لأني لم أحضر عملية البيع ذاتها لكن حليم حكى لي كل شيء.

من كان السمسار؟

_ شخص ضخم لا أتذكر اسمه ولا شكله تحديدًا لكنني كنت أراه بالجوار كثيرًا، أخبرني حليم أنه يأتي ليسهر مع الحارس أو الخفير كما نسميه، فصاحب

الأرض أقام غرفة صغيرة وأحاطها بسور على بداية حدود الأرض التي اشتراها.

أتعرفين من هو الحاج علي؟

_ لا أعرف أيًا من جيراننا، فلم أكن على خلطة بأي أحد بالمنطقة لأنها كانت مهجورة، حليم هو من يعرف جميع الجيران بالأرض لأنها أرض عائلته منذ وقت طويل.

- الحاج علي هو والد الفتاة القتيلة التي رأيتها، وبالمناسبة فأرضه تقابل شرفة منزلك ويقع منزله على مسافة قريبة من حدود أرضكم، لذا سألتك عنه وخاصة أن الآنسة ياسمين تعرفهم.

جاء دور ياسمين لتجيب بدفاع:

.. أنا أعرف ورد لأنها تحضر لمنزلنا بصفة مستمرة كي تعين والدتي على تنظيف المنزل؛ فوالدتي تعاني من خشونة بالمفاصل تمنعها من المجهود العنيف، وأنا مريضة حساسية صدر ولا أستطيع نفض التراب بنفسي.

سألها همام بقسوة عكس لهجته مع ليلة:

هل كانت تتحدث معك عن أي شيء خاص؟

.. لا أبدًا، كان كلامها بالغالب عامًا يخص أخبار الجيران، ثرثرة نسائية لا طائل منها، لكنها كانت مهتمة بوضع خطيبي الراحل وزوج ليلة، وتسألني على الدوام عن أحوالها وكيف تتقبل صدمة رحيل زوجها وأخيها، وقبل الحادث كانت تسأل أحيانًا عن شركة بلال وحليم فهي تعرف أنهما شركاء وتعرف

طبيعة عملهما وسفرهما بالخارج مخبرة إياي أن والدها يعرف حليم شخصيًا. بالطبع لم يكن شيئًا خفيًا أن تعلم شيئًا كهذا بمدينتنا الصغيرة؛ فالكل يحشر أنفه بشؤون الجميع على الدوام.

تطلعت نحوها ليلة بدهشة بينما راقبها همام بحذر محاولًا استشفاف ما خلف سطور كلامها، وحين عجز عن فهم ما تقول سألها التوضيح:

كيف كانت مهتمة وما الذي كانت تسأل عنه تحديدًا؟ ثم كيف عرفت بأمرهما ولم تثر شكوكك بأسئلتها؟! وهل أخبرتها أن خطيبك والسيد حليم قد سافرا إلى إيطاليا؟

أتى دور ياسمين لتجيب بحيرة:

.. لا أعلم كيف عرفت، كانت تسألني أسئلة تبدو عادية فأجيبها بحسن نية كمثل «هل عادت أخت خطيبك الراحل لبيتها بعد؟» «هل أخبرتك شيئًا يخص زوجها وتسبب بموته؟» «متى تنوي العودة إلى منزلها، أم أنها قررت بيعه؟ إن كانت تنوي بيعه أخبريني فلدي مشترٍ يريده.»

و بالطبع لم أهتم بأسئلتها لأنها كانت ثرثارة بطبعها وفضولها عارم بخصوص كل شيء. لذا كنت أجيبها دائمًا نفس الإجابات بأن ليلة لا تنوي العودة قريبًا ولا أعلم شيئًا بخصوص نيتها ببيع المنزل خاصتها، أما عن السفر فلا أذكر تحديدًا أنني أخبرتها، ربما كانت تعرف أو لا، صدقني لا أتذكر فقد كانت تلك الأيام عصيبة للغاية ونحن نبحث عن أي خبر

يطمئنا عليهما وعلى أحوالهما حين انقطعت أخبارهما قبل أن تبلغنا السفارة بما حدث.

قالتها وهي تمد يدها تربت على كف ليلة المجاور لها وكأنها تواسيها على مصابهما الخاص، أما همام فكاد أن يجن، ما سر المنزل؟ هل يحتاج المشتري الغامض المنزل لسر خاص به أم بسبب الأرض المجاورة؟! ترجم أسئلته الدائرة بمتاهات عقله إلى أخرى منطقة دون أن ينتبه لحالة الفتاتين أمامه:

المنزل، المنزل! ما سر هذا المنزل؟ أخبريني يا سيدة ليلة عن أهميته.

لكن ليلة الحائرة مثله أجابت بتوتر:

_ لا أعرف، أقسم لك لا أعرف شيئًا ولم أر طوال فترة زواجي ما يثير ريبتي، فالمنزل هو منزل أهل

زوجي منذ وقت بعيد وتم تجديده قبل زواجنا أنا وحليم.

أريد رؤية عقد بيع الأرض المجاورة وعقد البيت، ربما وجدت بعض الإجابات.

_ الأوراق بمنزل باسل، لقد أخذتها معي حين رحيلي وتركتها هناك، كانت فكرته لأنه خاف من سرقتها أثناء غيابي وفراغ المنزل من سكانه.

أمرها همام بلباقة:

اتصلي على زوجة أخيك وأخبريها أن تصورها لي، أحتاج معرفة اسم المشتري بشدة.

فعلت ليلة ما طلبه منها ولكن سلمى كانت بحالة من التوتر حتى أنها عجزت عن تلبية طلبها، فقد

احتاجت الاطمئنان على باسل قبلًا وحين طمأنتها ليلة استطاعت أن تهدأ وتصور كل الأوراق لترسلها لهاتف ليلة والتي بدورها أرسلتها إلى هاتف همام، تصفح الصور سريعًا ثم اعتلى وجهه ابتسامة شاردة، فقد حصل أخيرًا على غايته.

***

مضى باسل بغضب نحو مقهى المستشفى عله يبتعد عن ذلك السمج الذي يثير حفيظته، مشاعره نحوه مختلطة ومبهمة لا يفهمها، تارة ينتابه الغضب لأجل ليلة وما حدث لها ويعزو ذلك إلى تقصيره بإنقاذها، وتارة يشعر بالامتنان لوقوف الرائد جواره لحظة انهياره ومساندته له، لكن الشعور السائد الذي يطغى على مشاعره هو التوتر

والغضب، ما زال خبر احتمال عودة بلال يوتره ويفقده اتزان أفكاره، كان قد حصل على رقم المتطوع الذي حادثهم ثم غادر غرفة ليلة سريعًا قبل أن يتهور ويكيل غضبه للرائد على هيئة لكمات سيكون حتمًا هو الخاسر إن فعلها، أولًا للفارق الجسدي بينهما رغم طوله إلا أن الشرطي يفوقه طولًا وعرضًا، وثانيًا لكونه يعلم عاقبة التعدي على رجل أمن في بلد لا يستقيم بها أمر البشر إلا حسب مسمياتهم الوظيفية، وكان رجال الشرطة ضمن هذه القائمة التي تعلو عن بقية المسميات.

اتجه بلهفة نحو مقعد فارغ ثم جلس ليفتح هاتفه ويحدق بالرقم الذي سجله عنده الآن، نسي كل شيء عدا فكرة واحدة، وجود بلال على بعد ضغطة

إصبع على رمز الاتصال. اللهفة تدفعه لعدم التحكم بزمام أموره وفقدان التركيز، وبقرارة نفسه احتسب لهمام فكرته بإجراء مكالمة فيديو مع الرجل فلم تخطر بباله رغم منطقيتها، لكن أي منطق فيما يحدث من حوله وكأن حياته تدور داخل مشاهد فيلم قيد التصوير وليست حياة حقيقية! انتصر على اضطرابه فضغط علامة الاتصال ليسمع الرنين على الجهة الأخرى كأنه دوي صفارات إنذار وعليه تحملها وإخماد الحرائق المشتعلة بعقله، ثم أتاه صوت الطرف الآخر فازداد اضطراب قلبه وخفقانه، تحدث بصوت مضطرب يشرح لمستمعه هويته وسبب اتصاله فأخبره بأنه كان ينتظر اتصال أحدهم بالفعل. أعاد الرجل المسمى «عماد» على

مسامعه ما سبق ورواه لياسمين من قبل؛ فزوجته الإيطالية تعمل كمتطوعة بخدمة ملاجئ المشردين ومن لا مأوى لهم، واليوم حين مر عليها ليقلها من العمل لفت نظره وجود شخص بملامح عربية يتحدث الإيطالية بركاكة ويسمونه بيدرو، لفتته لهجة الرجل المصرية وكونه يقيم بملجأ ولا يعرفه هنا أحدٌ، جلس معه يسأله عن حاله فأخبره بقصته التي تفسر وضعه، لا يتذكر من حياته سوى وجوده بالمستشفى بعد تعرضه لحادث لا يذكر تفاصيله بتاتًا، أخبره الأطباء أنه وجد على طريق رئيسي بوقت متأخر من الليل ينزف من جرح برأسه وجسده ممتلئ بالخدوش والكدمات فاقدًا للوعي، نقله أحد المتطوعين إلى مستشفى قريب وهناك

اكتشفت الشرطة أنه لا يذكر شيئًا عن الحادث أو مكانه، كما أنه كان يرتدي بنطالًا وقميصًا رسميًا دون سترته ولا يحمل أوراقًا تثبت هويته فتم احتجازه بالمستشفى تحت إشراف رجال الشرطة، لكنه استطاع الهرب خوفًا منهم ومن احتجازهم له وهام على وجهه حتى وجده أحد المتطوعين فأحضره إلى الملجأ، لذا ما إن سمع عماد حكايته حتى انتابته الشفقة تجاهه، فبيدرو هذا يبدو ذكيًا متعلمًا وعلى استعداد للعمل بأي شكل حتى يتجنب شعور الحاجة والفقر الذي يعيشه الآن، وما أقساه من شعور حين تجبرنا الأيام على جرع ثمالة كأسها المر بعد أن ذقنا عسله وانتشينا به، وربما

هو لطف الله له أن يفقد ذاكرته فلا يستطيع مقارنة ما فقده بما يذقه الآن.

أخبره عماد بأن بيدرو أسر له بتذكره رقم يلح على ذاكرته باستماتة، فجرب كتابته ليجد أن ذلك الرقم هو رقم هاتف بمصر، جرب الاتصال به فكانت الفتاة على الطرف الآخر لا تكف عن البكاء، لذا أنهى المكالمة وقد قرر أنه سيعود بالغد إلى الملجأ ليصطحب بيدرو إلى السفارة؛ فبالتأكيد لديهم حل لمعضلته تلك.

استمع باسل إلى نهاية حديث عماد ثم سأل بلهفة:

أمعك هو الآن؟

وكم كانت خيبة أمله حين أخبره عماد بأنه قد عاد إلى منزله، كاد أن يموت كمدًا وحسرة قبل أن يلحقه

الرجل بجملة أحيت لهفة قلبه «لقد التقطت صورته تحسبًا، يمكنني إرسالها لك الآن.»

وامتطى رد باسل موجة اللهفة قائلًا بأنه بالانتظار، وبالغد يأمل أن يخبره عماد بأي جديد يخص ذلك الغريب، انتهت المكالمة وبقي باسل ينظر إلى الهاتف وخافقه يزداد وجعًا حقيقًا يشعره لأول مرة حتى رن هاتفه بنغمة وصول رسالة، فتحها بيد ترتجف ولسان ثقيل يردد أدعية عشوائية تبدو لمن يسمعها كابتهال شخص ينتظر ليخبروه أن روحه عادت إليه بعد وفاته، وحين رأى الصورة حدق بها وطنين لا يعرف مصدره يرتفع ويرتفع ساحبًا معه أنفاس باسل، ووجع حارق يؤلم صدره كأن النار

تشتعل به حتى أطبق السواد على عينيه فلم يعد يرى.

***

الفصل الخامس عشر

لا شيء يشبه شيء ولا أحد يعوض غياب أحد،

أشياؤنا المختلفة إن ضاعت.. ليس لها بديل.

محمود درويش.

انتهى همام من استجواب ليلة وياسمين فاستقام من مقعده معتذرًا لهما ومنسحبًا بهدوء، لكنه قبل أن يغادر وكبادرة منه عمل على محادثة ابن عم له يعمل بوزارة الخارجية يطلب منه المشورة في حالة كان العائد من بلد أجنبي فاقد للذاكرة ولا يملك إثبات هويته لضياع أوراقه، حينها أخبره عمرو ابن عمه أن على هذا الشخص التوجه لقنصلية بلاده بالبلد الذي يقيم به وسوف يتولون إعادته بعد إخباره بما يلزمه كي يعود، أبلغ ليلة بذلك ووعدها

بأنه قد يساعدهم إن واجهتهم مشكلة في عودة الغائب الذي لم تتأكد هويته بعد.

كان الوقت قد تأخر على استكمال تحقيقاته وهو الذي لم يرتح منذ أن طلع النهار عليه، اتجه بخطوات متعبة إلى سيارته ليستقلها ثم جلس باستكانة على مقعده ومال برأسه المتضخم بما يحمله من معلومات فأراحه على المقود بإرهاق، يشتاق لفراشه أن يرتمي عليه بجسده المنهك فيريحه من عناء سباق مع الزمن خاضه منذ أسبوع أو أكثر ليحل أكثر قضية معقدة مرت عليه، وها هو قد شارف على النهاية دون أن يحصل على إجابات مرضية عن حقيقة ما حدث، استقام في مقعده فأدار سيارته بتراخي ليتحرك جهة مركز الشرطة حيث

سيبيت ليلته في استراحة الضباط كما دبر له زميله، ولكنه حين وصل اتجه نحو مكتب الضابط المسؤول ليعرض عليه قضيته ويطلب معونته فيما سيأتي، فالقادم يحتاج تدخل جهات أكبر ووجود قوات من الأمن تعاونه في مهمته، لن يستطيع العمل بمفرده فيما بعد كما كان في بداية تحقيقاته، فالعميد محمد أخبره أنه قد تم إبلاغ المديرية بمستجدات القضية حتى يكلفوا من يساعده بالعمل داخل المحافظة، كان الروتين هو المحرك الأساسي لأي هيئة خاضعة للمنظومات الحكومية، ولا تختلف منظومة الشرطة عن باقيها.

بكلمات مبسطة شرح للضابط المناوب بالقسم والمكلف بالعمل معه عن مهمته وقضيته، أخبره

أن العميد محمد سبق وكلفه بإنهائها لكنه احتاج مساعدة من مركز شرطة المحافظة؛ فالقضية امتدت خيوطها لتلتف حول أشخاص يقيمون خارج حدود منطقة عمله ونفوذ مركزه، أبدا النقيب كريم تعاونه ووعده بأن يساعده بما يستطيع، واتخذت القضية منحنىً جديدًا؛ فالقادم يحتاج أن تتكاتف كل الجهات المعنية على حل تشابكه.

ترك همام المعلومات التي يريد البحث عنها على مكتب النقيب كريم ثم اتجه نحو الاستراحة يبتغي راحة لجسد منهك، كجواد أنهكه قفز حواجز عالية وكثيرة دون أن يحصل على هدنة يستعيد بها عافيته ومكافأة تشحذ همته، فالطريق وعر وقضيته قاسية القلب لا تهتم بما يكابده.

***

رحل همام من غرفة ليلة وبقيت الفتاتان وحدهما يتطلعان لبعضهما البعض بأسى، ثم انكفأت ياسمين نحو ليلة تحتضنها ودموعها تنساب على وجنتيها ببؤس عجزت معه عن مواساة ليلة على وضعها المحزن هذا، فاضطرت ليلة لمواساتها والربت على كتفها رغم أنها كانت تبكي مثلها، لوحة مجسمة لبائستين التقيتا بمكان أشد بؤسًا من وضعهما وبظروف لا تستجلب إلا الدموع والنحيب، فمنذ أن رحل بلال وهما لم تتطلعا لوجه بعضهما إلا الآن، وفي عيني ياسمين قرأت ليلة كل المشاعر التي عرفت يومًا أن بلال يكنها لصديقتها فازداد وجع قلبها، أما الشوق الجلي في عيني ياسمين

والتساؤلات الحائرة التي تعجز عن نطقها أمام ليلة لم تغفل عن قراءتها، سألتها بلهفة من بين دموعها الغزيرة: هل هو بلال؟ أصدقيني القول ياسمينا أرجوك.

هزت ياسمين رأسها مؤمنة وصوتها المختنق بعبراتها المندفقة بلا انقطاع على وجنتيها: هو بلال الروح والقلب، صوته مهما بعد يسكن فؤادي، وخافقي يخبرني أنه هو، رغم تحيره وتخبطه بالكلام معي إلا أنني أجزم أنه هو، قلبي يؤلمني يا ليلة، يؤلمني لأنني سمعت بصوته رنة خجل وكأنني شخص غريب لا يعرفه رغم سعادتي بأنه حي. أنا لا أريد شيئًا من الدنيا إلاه لكني أخشى أن يعود فلا أكون له! أكاد أموت خوفًا من هذا الهاجس الذي

يهاجمني بأنني سأبتعد عنه كي لا أثقل على حبيب لا يعرف حبيبته، لا أستطيع وصف شعوري تحديدًا لكنك أنت تعلمين، فالوضع ينطبق عليك أيضًا بعودة أخ لا يعرف عن ماضيه مع أخوته شيئًا.

أومأت ليلة بجزع وقد حرك كلام ياسمين مواجعها، تشعر بالامتنان لوجود بلال وبنفس الوقت يزداد أمل بداخلها أن حليم ربما يكون حيًا ويعود أيضًا، ارتفعت أسقف طموحها وأمانيها إلى عنان السماء فازدادت كثافة دموعها وتحدثت بما يثقل قلبها إلى ياسمين الصامتة التي تستمع لها بوجع مماثل، وحين انتهت من البوح صمتت ولم يبق بالغرفة الا صوت شهقاتهما الممتزجة ببعضها حتى عاد صوت ليلة ليتحدث بقلق:

تأخر باسل بالعودة، هل تظنين أنه غاضب مني لأنني تحدثت مع ذلك الشرطي؟

_باسل؟ لا أعتقد ذلك، دعيه ليهدأ فكل الأمور على عاتقيه منذ تعرضك لمحاولة القتل تلك، يمكنك محادثته للاطمئنان عليه إن أردت.

تناولت ليلة هاتفها وجففت عينيها بكفها قبل أن تطلب رقم باسل، لكن الهاتف ظل يرن إلى أن انقطع رنينه، انتابها القلق فأعادت المحاولة وحينها وصلها صوتًا أنثويًا يسأل عن هويتها، أخبرتها ليلة بأنها أخته فاصطدم الخبر الذي أتاها بحواف قلبها ليخلعه من موضعه ويقذفه إلى أرض الرعب والخوف، فقد تم نقل باسل إلى غرفة رعاية القلب لإصابته بذبحة صدرية أثناء وجوده بالمقهى، ولولا

وجود طبيب القلب بالمقهى حينها لكان قد قضى نحبه سريعًا، كان كلامها موجعًا ومفجعًا للغاية، صرخت بياسمين بعد أن قذفت الهاتف من يدها بأن تذهب إليه، تطمئنها عليه وعلى وضعه، فوجودها محتجزة داخل جبيرتها يمنعها من الهروب إليه تطمئن عليه وتسانده بمحنته مرة كما فعل لأجلها مرات، فقانون الأخوة يحتم عليهم أن يؤازروا بعضهم في أحلك المواقف وأشدها تهلكة.

خرجت ياسمين للاطمئنان على باسل وبقيت ليلة تصارع أفكارها وخوفها ووجع قلبها، فما عايشته منذ مضي ستة أشهر إلى الآن لا يتحمله بشر، فكيف بأنثى رقيقة مدللة مثلها أن تفعل، ربما

هكذا تفعل الشدائد بضعاف البشر كي تؤهلهم وترفعهم إلى مصاف الأقوياء.

***

اتجهت ياسمين نحو رعاية القلب كما أخبرتهم الممرضة وهناك وجدت باسل على فراشه وأنابيب المحاليل والأجهزة المتصلة بجسده تخبرها بأنه مريض للغاية، شعرت بالحزن لأجله فمكانته عندها تتمثل بكونه الأخ الأكبر لها كما هو لبلال، كانت تحترمه وتحبه للغاية، وهو ما تأخر عنها أبدًا أو قصر بواجبه نحوها، علمت من الممرضة أن حالته مستقرة وإن هي إلا مسألة وقت وسوف يخرج، يحتاج فقط لأن يغير طبيعة حياته الشخصية وأن يمارس الرياضة وألا يفرط بالقلق، وسوف يكتب له

الطبيب أدوية يستمر عليها لآخر العمر لتقلل حدوث مشاكل بالقلب فيما بعد، كل ذلك سمعته ياسمين بقلق وقد أجبرتها جملة ألا يفرط بالقلق على التشتت، فكيف ستمنعه من القلق على أخيه الضائع بالغربة دون معين، القلق صار صديقًا لهذه الأسرة منذ بعض الوقت، يصاحبهم بصحوهم وبنومهم ويحيط بهم عن يمينهم وعن شمائلهم ولا يملكون دفعه عنهم أو تأخيره.

رفعت هاتفها إلى أذنها وأجرت اتصالها بليلة كما وعدتها، أخبرتها أن باسل بخير وأنه سوف يخرج من العناية قريبًا فحالته مستقرة وقد أنقذه الطبيب الماهر الذي نقله للعناية على وجه السرعة. رفضت أن تستجيب لطلب ليلة بأن تريها

إياه؛ فوجوده محاطًا بكل هذه الأجهزة والخراطيم المتصلة به تدحض كلامها بأنه بخير، وعليها ألا تقلق ليلة فيكفيها ما تعانيه.

انتهت المكالمة مع ليلة فأجرت مكالمة مع والدتها تخبرها بها أن باسل مريض وكذلك ليلة وعليه فسوف تبيت ليلتها جوارها علها تساعدها إن احتاجت إلى مساعدة، ثم اتجهت بخطوات مرهقة نحو غرفة ليلة لتبيت هناك، فاليوم الذي مضى نهاره كان يأبى أن يمضي بسلام، ويصر على أن يقضي على سلام نفوسهم جميعًا.

***

صبيحة اليوم التالي.

قفز همام من فراشه شاعرًا بالراحة بعد نوم ليلة سقط بين أمواجها الهادئة باستكانة لتحمله نحو بر النشاط صباحًا، أسرع ليرتدي ملابسه ثم يتجه بخطوات سريعة نحو مكتب النقيب كريم يستطلع أخبار ما يبحث عنه، وأثناء الطريق الذي يقطعه سيرًا على الأقدام أمسك هاتفه ليتصل على مساعده بمحل عمله يستطلع سير العمل وأخبار المهمات التي كلفه بها، وجد أن غايته قد تحققت فارتسمت ابتسامة جذلة على سحنته التي تفتقر للعناية الشخصية وقد نبت شاربه وذقنه قليلًا، لكن من يهتم!

فالعمل يأتي أولًا ثم حين ينهي قضاياه يعود ليهتم بتفاصيل شخصه الدقيقة، هكذا كان وهكذا عرفه زملائه بكل مكان عمل به، إذ يبدو أن ذهنه وتركيزه يعملان بكفاءة للغاية حين يكف عن تأدية طقوسه المعتادة في الحلاقة والتأنق.

دلف إلى مكتب الضابط فوجده يجلس بأريحية وهناك طعام على مكتبه يهم بتناوله، وما إن رأى همام حتى أشار له بحبور داعيًا إياه لمشاركته الإفطار، ابتسم همام والتحق بكريم يتجاذب معه أطراف الحوار ويتناولان الطعام وقد شعر بالاسترخاء قليلًا بعد توتر الأيام السابقة، ولما لا! فحل القضية على الأبواب كما يتوهم، وما خفي عن البديهة لا يُوضع بالحسبان!.

أنهى تناول الإفطار ثم بدأ العمل مباشرة وقد كان من الكياسة أن يظل صامتًا أثناءه يستمع لثرثرة كريم الغير هادفة، سأل مباشرة عن تحرياته التي أراد إجراءها فوجد أن بعض المهمات أُنجزت والأخرى لم تنجز ولكن ما وصله أوقف أنفاسه للحظات. ظل متطلعًا بالورقة التي دون عليها كريم بيانات المدعو سيد دون أن يحيد بنظره حتى ليحسبه الرائي قد تجمد على تلك الوضعية، ناداه كريم بقلق فاهتزت حدقتاه قبل أن يخلعها خلعًا من على الورقة التي بيده لينظر نحو كريم قائلًا: ألم تلاحظ شيئًا؟

سأله كريم بعدم فهم: بشأن ماذا؟

ثم نهض ليحشر رأسه الكبير حشرًا أمام عين همام ليتطلع للورقة، لكن همام قال بتوتر: الاسم! أخبرتني أنك وجدت سجلات المدعو سيد بالأحداث وأتيت باسمه كاملًا وبكل بياناته، بينما أغفلت أن اسم والده يتشابه مع ذلك الاسم الآخر الذي طلبت منك التحري عنه وأخبرتني أنك لم تصل له بعد. قالها مشيرًا بإصبعه نحو الاسم الذي دونه بالأمس في الورقة والذي حصل عليه من عقد بيع الأرض التابعة لحليم زوج ليلة.

ارتبك كريم قبل أن يتحدث بتوتر شارحًا: لم أنتبه أن الاسمين متشابهان إلا الآن، إذًا ذلك المشتري الغامض الذي أخبرتني عنه هو نفسه والد ذلك

المشتبه به والذي تريد البحث في سراديب حياته! إنها صدفة عجيبة..

قاطعه همام بريبة: ليست صدفة عجيبة إن ربطنا كل الخيوط ببعضها، فلا سبيل لتكوين سلم حبال إلا بإحكام ربط عقده ببعضها، وها أنا أفعل ذلك الآن، ويمكنك تسلق سلم المجد إن ساعدتني بالتحقيقات التي أجريها، فالقضية تبدو من العيار الثقيل، ودويها سيسمع الأرجاء ويخبر كل المتلاعبين أن الشرطة مستيقظة لا تنام.

اتسعت عينا كريم بجذل قبل أن ينهض من مقعده قائلًا بحماس أنه سيساعده بقضيته حتى النهاية، وقد امتلأ خياله بصورة كبيرة له أثناء حصوله على ترقية بالعمل، فلم تواته الفرصة من قبل للعمل

على قضية حقيقية وغامضة مثل هذه القضية، وكثير من الغموض يحرك الشهية لكشف بعض من تفاصيله.

***

سلكا دربًا نحو منطقة سكنية بسيطة تشبه الأرياف على حدود المدينة، وهناك سألا عن عنوان منزل سيد جميل عبد الواحد فأرشدهما بعض الناس وأخبروهما أن سيد لم يعد يقيم هنا، وأن فقط أسرته المكونة من أب قعيد وأم كبيرة العمر وأخت مطلقة هم من يسكنون بالمكان. اتجها نحو المنزل البسيط الحال فطرق همام بابه لتفتح تلك الأخت التي أخبروه أنها مطلقة، كانت متجهمة السحنة تبدو في أسوأ حالاتها وبكاء صغير ينبعث من خلفها

يشيع التوتر بالنفوس بصراخه الحاد، فهم همام سبب انقلاب ملامحها وعبوسها فقد كانت زوجته تمر بهذه المرحلة حين كان طفله صغيرًا لا يكف عن البكاء، تنهد بوجع قبل أن يسأل بلطافة عن وجود سيد بالمنزل من عدمه لكنها بدت منشغلة بصراخ الصغير فدعتهم للدخول لتتركهم وتهرع إلى الداخل. دلف همام يتبعه كريم وبقيا يراقبان المنزل من الداخل والذي أشاع جوًا من الألفة بنفسهما لبساطته ونظافته الواضحة للعيان، بعد قليل عادت الأخت تحمل طفلًا وتهوده كي يكف عن بكائه وهي تسأل بتركيز عن مطلبهما فأعاد همام سؤاله عن المدعو سيد أخوها لكنها هزت رأسها برفض قائلة بأنه لا يقيم معهما فهو متزوج.

أقبلت الأم في هذه اللحظة لترمقهما بوجل قبل أن تسأل عن سبب وجودهما فأعاد همام سؤاله عن سيد ابنها، لكن ردة فعل المرأة ظهرت عنيفة وهي تخبرهما أنه منذ تزوج لم يعد يقيم معهما، بل حصل لنفسه على شقة كبيرة بالمحافظة، تظاهر همام بأنه لا يضمر شرًا له بل يريده ليحصل منه على معلومات تخص السيارة التي سرقت من شركة ابن خاله، فعقدت المرأة حاجبيها دلالة عدم الفهم قبل أن تنفي معرفتها بهذا الحادث، لذا سارع همام بالسؤال عن عنوان إقامته فتطوعت أخته بذكره لهما، بقيت خطوة أخيرة وهي ربط مشتر الأرض بوالد سيد، لكن همام لم يكن يريد إثارة الريبة بقلب الأسرة فقرر أن يحور طريقته قليلًا

ليحصل على مبتغاه. سأل بهدوء: أخبروني أن الوالد مريض، هل يعاني من مرض مزمن؟

تبادلت الأم وابنتها النظرات بحيرة وكأنهما يتساءلان عن أهمية الوالد ليعرف ضباط الشرطة أخباره ويهتموا به، لكن الأم أجابت بحسرة أنه يعاني من شلل نصفي نتيجة جلطة زارت مخه منذ عامين وتركت بصماتها القبيحة على جدران خلاياه العصبية، فكان التعاطف نصيبها من كلمات همام قبل أن يسألها عمن يهتم بشؤونهم إن كان الأب مقعدًا لا يتحرك، أتى دور الأم لتجيب بتفاخر:

سيد ولدي بارك الله بعمره لا يتأخر عنا، فهو من يقبض معاش والده ويحضر لنا المؤون والطعام، بل ويعطينا مصروفًا شهريًا يغطي نفقاتنا ونفقات

أخته وطفلها _قالتها وهي ترمق الأخت بحسرة فتأففت الأخت ونظرت للأرض بضيق_ وحين يأتي كل مرة لزيارتنا يحمل لنا ما لذ وطاب من كل شيء، فهو سخي للغاية.

سألها همام بحذر: أخبرينا عن سبب دخوله الأحداث بصغره، فقد وجدنا له ملفًا بالشرطة.

جاء دور الأم لتسأل بحذر: ألهذا السبب تبحثون عنه؟ تظنون أن له علاقة بسرقة سيارة الشركة التي تطعمه! ولدي ليس غبيًا يا حضرة الضابط، فلن تمتد يده لتطعن من أطعمه العسل بعد أن ذاق طعم الصبار.

_لا لسنا نتهمه، وددت أن أعرف مسمى وظيفته هناك ومتى بدأ العمل بها؟

..لا أعرف ما تقصد بسؤالك، لكنه يخلص كل المسائل المتعلقة بالجمارك من المطار والموانئ، إنه لا يرتاح حبيب قلبي وذلك القاسي ابن عمته يرسله بكل مكان، لكنه يخبرني بأنه سعيد بالعمل وأن علاوة العمل كبيرة تضمن له مبلغًا كبيرًا للغاية..

_ كيف ينهي معاملات والده الشخصية؟ باغتها همام بالسؤال.

سكتت قليلًا قبل أن تستوعب سؤاله فتجيب بتلقائية: معه توكيلًا من والده ليفعل كل شيء، فمنذ أن رقد جميل وكل شيء توقف.

_هل يملك الحاج جميل أراضٍ زراعية؟

..أراضٍ؟! سألت باستهجان قبل أن تقول بسخرية:

الحاج جميل يا ولدي عاش طوال عمره يحارب الفاقة والحاجة ويستظل منهما بعمل لا يغني ولا يسمن من جوع، كان يعمل بناءً يا ولدي، وعمله هو السبب بدخول سيد إلى الأحداث، فقد كان يصطحبه معه إلى العمل أغلب الأحيان، وفي مرة من المرات تشاجر مع عامل آخر بالموقع وتربص به ذات ليلة ليضربه، ولكن لسوء حظه كان الآخر مريضًا فلم يحتمل الضرب ومات، كان سيد طفلًا أهوجًا لكنه طيب القلب.

_ طفلًا ؟! كم كان عمره؟ سألها باهتمام.

.. حوالي خمسة عشر عامًا، فما زلت أذكر بكائي يوم أن نطق بالحكم ليظل بالحبس عامًا ونصف، منهم

لله فقد تغير سيد من ذلك الوقت واختلفت طباعه، صار سريع الغضب وأكثر عنفًا.

_ وكم عمره الآن؟

سألها فأجابته بأنه تجاوز السادسة والعشرين من عمره، وحين سأل عن علاقته بحامد أخبرته بأنه كان يعرفه من زمن الاحتجاز بالأحداث لكنهما لم يتقاربا إلا منذ وقت قريب، ربما عامان لثلاثة فلا تذكر تحديدًا. تطرق معها بالحوار لمعرفة خلفية عمله بشركة الأنهار ثم تطرق للسؤال عن صاحب الشركة وقريبهم المدعو محمد صالح فأعطته المرأة ما يريد، دون همام كل ما حصل عليه وقد شعر أنه حصل على إجابات منطقية لما أراد البحث عنه، عليه فقط أن يربط أن ذلك المشتري الغامض هو

نفسه سيد الذي استغل توكيل والده الذي يحمله ليشتري أراضٍ زراعية لسبب مجهول، لكنه كون فكرة منطقية عما يكون السبب واحتفظ بها لنفسه دون أن يصارح أحدًا، فقد كان يريد استغلال عامل المفاجأة للإطاحة بالجميع، نهض معتذرًا من الأم وابنتها عن إطالة الوقت والإثقال عليهما بالسؤال، لكن كريم سأل بطريقة عشوائية قاطعًا الاعتذار: هل يملك سيد شاليهًا أو استراحة بعيدة عن هنا؟ وهل هو بالبلد حاليًا أم مسافر بالخارج؟ وهل يمكننا رؤية صورة له حتى نعرفه حين نذهب لزيارته؟

أسئلته لاقت حبورًا بداخل همام الذي غفل عن الإلمام بهذه التفاصيل البسيطة وقد فكر أن المثل

القائل (يدًا واحدة لا تستطيع التصفيق) لهو حقيقي مائة بالمائة، فنظرة عيني شخص تكون أضيق من نظرة شخصين وكلما اتسع مجال الرؤية كلما كانت الحقائق أكثر وضوحًا.

***

جلست ليلة على المقعد المتحرك الذي وفرته لها المستشفى تدفعها ياسمين نحو غرفة باسل، فقد أتت سلمى منذ الصباح الباكر لتبقى جوار زوجها الذي أصبح بخير بعد أن تجاوز أزمة الأمس، أما ليلة التي لم تذق طعم النوم إلا لمامًا فقد احتاجت إلى وقت حتى تقنع طبيبها أنها تحتاج للانتقال إلى غرفة أخيها كي تطمئن عليه رغم أن ياسمين كانت تتولى هذه المهمة على أكمل وجه، وصلت الغرفة

فوجدت سلمى تجلس جوار باسل الشاحب الوجه والذي قرأت بعينه نظرة اعتذار وكأنه يعتذر عن القلق الذي سببه لها، فكان ردها عليه بنظرة عتاب ودموع عينيها تصر على أن تنال حظًا من الموقف المشحون بينهما فتنهمر على وجنتيها بصمت، فتح فمه لينطق لكنها قالت تمنعه من الكلام: أنا بخير، كف عن القلق علي دون داعٍ، أنت تحتاج أن تكف عن كل ما تفعله ويجلب السقم لقلبك، أرجوك.

هز رأسه بانكسار وقد شعر بالعجز أمامها، فقد حذره الطبيب من الانفعالات المبالغ بها وأخبره أن يحرص على الراحة والبعد عن التوتر، وكانت هذه النقطة الأخيرة من أصعب ما يمكن تنفيذه، فمهنته

كجراح لا تقوم إلا على احتراق الأعصاب وقتل الخلايا الحسية بالتدرج البطيء، وقليل من ينجو من الضغط العصبي الناجم عن امتهان مهنة كتلك.

اقتربت بالكرسي منه فحيت سلمى التي تجلس صامتة وذبول وجهها يحكي كثيرًا من خبايا روحها وقلقها المكتوم خوفًا من اظهاره كي لا تؤثر على حالة باسم النفسية، فحديث الطبيب لها أجبرها على الخوف وقد تخيلت أنها قد تفقده بأي لحظة انفعال، لن يحتمل قلبها أبدًا مثل ذلك، أما هو فرغم مرضه إلا أنه حاول التظاهر بالقوة، عاتبها على ترك فراشها ومجيئها إلى غرفته فأخبرته أنها بخير، صمت قليلًا قبل أن يتحدث بصوت متعب: افتحي

هاتفي وانظري إلى أول صورة تقابلك بمعرض الصور، امتثلت لأمره وأمسكت الهاتف بينما تعلقت بيها عيون الجميع بين حائر ومترقب وقلق، ما إن فعلت حتى شهقت بقوة وغامت عيناها بالدموع المهددة بالهطول، فأمامها كانت صورة أكثر شخص تحبه على الإطلاق رغم تغير هيئته بعض الشيء، وجهه الممتلئ أصبح نحيلًا وعظام وجنتيه صارت أكثر بروزًا، نظرات عينيه اللامعة الذكية تبدو منطفئة قليلًا وبها بعض من الترقب والحيرة، شعره الذي كان قصيرًا ومرتبًا بالعادة أصبح طويلًا يصل إلى أسفل أذنيه ويبدو أنه لا يهتم بتمشيطه كالعادة، ملابسه واسعة ومتهدلة وكأنها تعود إلى آخر يختلف عنه في البنية الجسدية، كانت

الصورة تنقل لها أسوأ إحساس ينتاب أخت نحو أخيها، فالذي بالصورة هو بلال لكنه آخر غير الذي تعودت عليه واعتادت وجوده بحياتها، يبدو بائسًا متعبًا وحيدًا وضائعًا وهذا أرعبها وأخافها وآلم قلبها للغاية، أعادت الهاتف للطاولة الجانبية كما كان ولكن ياسمين مدت يدها بحركة طائشة قائلة بلهفة: دعيني أراه.

وقبل أن تجيب ليلة كان الهاتف أمام عينيها المحدقتين بوجهه بغير تصديق، مدت يدها تتلمسه وكأنه أمام بصرها وتناجيه بلهفة وشوق: أنت حي، حقًا أنت حي، يا إلهي كم اشتقت لك ولوجهك، كيف أصل إليك وأنا سآتي بالحال، صدقًا سأفعلها فقد تعبت للغاية وأنا أتمنى وألح على

الله أن يعيدك إلى وكأني كنت أعلم، قلبي كان يعلم، لا أعرف كيف ولكنك ما برحت مكانك ولا ضاق قلبي بما ألح به من رجاء.

ظلت تناجيه وتبكيه دون سيطرة على ما تفعل، وكلماتها أفلتت زمام التماسك الذي حاولت ليلة التمسك به فشاركتها الدموع، بينما تشد سلمى على يدها وباليد الأخرى تمسد كف زوجها الدامع العينين يراقب المشهد بقلة حيلة، فقد كانت فكرة العودة فوق كل منطق، وفكرة عودة بلال رغم جاذبيتها إلا أنها كانت مخيفة، فالعائد ربما لن يعترف بوجودهم أو يتقبل مشاركتهم حياة ذرتها الرياح في طيات الذاكرة المهجورة.

***

الفصل السادس عشر

لم يكن البقاء علي قيد الحياة هدفًا للمرء بل البقاء إنسانا.

جورج أورويل.

اتجه همام نحو شقة سيد القابعة بمنطقة راقية بالمدينة، الشقة في برج مرتفع وله حارس يقيم على البوابة يسأل كل غريب يدخل البناية عن وجهته، لكنه حين رأى همام وبصحبته النقيب كريم يدخلان المكان نهض بوجل وترحيب مبالغ فيه، أشار له همام بيده ثم صعد باتجاه الطابق الذي أخبرته أخت سيد حزينة الوجه أنه يقيم به، وهناك رن الجرس عدة مرات دون مجيب ثم طرق بيده على الباب ولكن دون جدوى، عادا ليهبطا إلى الأسفل

وهذه المرة كانت وجهتهما حارس البناية الذي عاد ليقف مترقبًا حتى سأله همام عن سيد وإن كان يعلم شيئًا عنه أو عن مواعيد عودته إلى شقته، لكن الحارس أخبره بأن الساكن المدعو سيد قد سافر منذ عدة أيام وكالمعتاد فقد رحلت زوجته لتقيم عند أهلها حتى موعد عودته، اتصل همام برقم أخت سيد الذي حفظه على هاتفه قبل رحيله من منزلهم ليحصل على عنوان أهل زوجة أخيها، ثم غادرا البناية ليقف هو وكريم يتشاوران بخطوتهما القادمة في هذا التحقيق العصي. اتفقا على أن يبحث كلًا منهما باتجاه ويتواصلان مع بعضهما حين الحصول على معلومات قيمة تفيد التحقيق، فمن جهته كان همام يريد معرفة كل شيء عن

المدعو محمد صالح وذلك الأخ الغامض الذي يدير الشركة بالعاصمة والذي أخبرهما عنه عبد الفتاح، بينما سر الأرض القابع بالمدينة الصغيرة حيث يعمل يناديه للبحث خلفه، لذا ترك ما يتعلق بشأن محمد صالح للنقيب كريم واستقر رأيه على العودة إلى المدينة حيث الأرض التي تحيط بها الأسرار، فقد أرجأ مهمة البحث بمنزل ليلة حتى عودته، كانت هذه إحدى مساوئه، لا يثق إلا بنفسه وبما يفعله، ويشعر أن إيفاد الآخرين لإكمال مهماته لن يفضي إلى نفس النتيجة التي يريدها إن أتم مهمته بيده، وكانت إحدى أسباب تعاسته أنه يحتاج أن يزيل من على عاتقه بعض الأحمال الثقيلة حتى يستطيع المضي قدمًا، لكنه لا يجيد فعل ذلك.

اتجه من فوره عائدًا إلى مدينة عمله وقد اتخذ قراره بأن الليلة لن يهدأ له بال حتى يعرف سر الأرض، أجرى مكالمة للضابط المعاون له كي ينتظره بالقرب من منزل ليلة ومعه المفاتيح التي حصل عليها من متعلقات القتيل حامد، هناك سر وباله لن يهدأ أو ينام قرير العين إلا بعد معرفته، ثم إن لم يفعل ذلك سريعًا فقد ينتبه المتورطون بشركة الأنهار إلى ما يفعله ويطمسون أسباب جريمتهم التي ارتكبوها بدم بارد وقلوب متحجرة، رغم أن الحقائق باتت ساطعة أمام عينيه الآن إلا أنه كان يريد دليلًا ملموسًا عليها، فهكذا هو القانون، لا إدانة بدون أدلة، وقد يكون ذلك عادلًا إلا أنه بأغلب الأحيان بابًا خلفيًا لفرار المتلاعبين بالقانون بما

يملكونه من أموال، فقانون الحياة يفرض سطوة المال فوق كل شيء.

جال بخاطره الاتصال بليلة يطمئن على ما آلت إليه أمورها وأمور أخيها، فمزاجه لم يكن رائقًا ليتصل بباسل فيهاجمه بعد ذلك الموقف السخيف الذي جرى بينهما بالمشفى، وكأن موضوع عودة فاقد الذاكرة من إيطاليا صار همًا إضافيًا يتحمله فوق كل همومه المتراكمة. أمسك هاتفه فأجرى اتصاله ووضع الهاتف على ركبته حتى لا يمسكه أثناء القيادة، فهو يكره ارتداء سماعات الأذن الخاصة بالهاتف ولا يطيقها، طال الرنين لبعض الوقت قبل أن يصله صوتها، تبدو متعبة أو باكية، لكنها تحدثت بهدوء وأدب تطمئن على أحواله فطمئنها، هناك

دفء خاص بات يشعر به نحوها، وكأن عدوى حب حمايتها انتقل له من أخيها باسل فشعر بالمسؤولية تجاهها، سألها إن كانت هوية الغائب قد أميط اللثام عنها فأجابته بفرحة حطمت التعب بصوتها أن بلال هو الناجي من الحادث، لكنها عادت لتخبره بألم أن باسل تعرض لذبحة صدرية ولا تعرف كيف سيستطيعون إعادة بلال للوطن مرة أخرى، انتابه الحزن لأجل باسل وقد أدرك أن ذلك الضغط المهول الذي مر به كان الضربة القاضية لقلب عافر كثيرًا حتى يخبئ حزنه، تحدث مواسيًا دون أن يقدم لها عرضًا بالمساعدة، فمن شيمه ألا يعد إلا بما يستطيع تنفيذه، وقد خطر له أن يستغل منصب ابن عمه فيبحث عن سر ذلك الحادث الذي

تسبب بما حدث لبلال وزوج تلك البائسة التي تستمع لصمته يلوك أفكاره دون أن تقطعه، تنحنح باعتذار متحججًا بأنه انشغل بالقيادة قبل أن يخبرها أنه سيحاول مساعدتها إن أمكن، ثم أنهى المكالمة ليتصل بابن عمه مباشرة.

.. مرحبًا يا عمرو، أود منك خدمة.

_ أنت مرة أخرى! ومن سيدفع ثمن خدماتي تلك؟

قالها ممازحًا فقد كانت علاقتهُما مميزة رغم انشغالهما كثيرًا وبعدهما عن بعض، لكن همام ضحك ثم عاد يتحدث بجدية:

.. أخبرني يا عمور، هناك شخصان تعرضا لحادث بإيطاليا وماتا، كان هذا منذ ستة أشهر أو يزيد، السفارة أبلغت ذويهما بعد حصولها على هوياتهما

وجوازي السفر من الشرطة الإيطالية حسبما فهمت، ثم بدأت أحقق في جريمة قتل متعددة الأطراف وكلها بالقرب من منزل أحدهما والذي هو أيضًا زوج لأخت الثاني، هل أنت متابع؟ حسنًا نأتي للمهم.. التحريات قادتني لشركة تعمل بالاستيراد والتصدير ولها تعاملات مع الخارج بالأخص إيطاليا وإسبانيا، وأنا أشك أن هذا الحادث مدبر للتخلص من أحدهما أو كلاهما لا أعرف بعد، منذ يومين أتى اتصال لأسرة الرجلين يخبرهم أن هناك شخص فاقد للذاكرة وربما هو قريبهم، اليوم تأكدتُ أنه أخو الزوجة ولا أعرف شيئًا عن زوجها بعد، أود التأكد من هوية المفقودين وكيف تسلمت السفارة

رفاتهم هناك أو مراسم دفنهم، أي شيء يعود إلي بمعلومات تخص قضيتي.

استمع له عمرو بشغف وحين أنهى طلبه أطلق صفيرًا قبل أن يقول بمرح:

_ أود أن أعرف كيف تقع على هذه القضايا الملغمة بالمفرقعات والقنابل يا رجل! حسنًا لحسن حظك الملحق الثقافي بالقنصلية هناك صديق لي، سوف أرى ما أستطيع فعله لأجلك لكن.. تعرف المقابل بالطبع؟!

ضحكة همام جلجلت في فراغ سيارته قبل أن يجيب سريعًا:

نعم عزومة غداء ثقيلة وتشمل جميع أنواع الطيور مع جميع أنواع المحاشي، أعرفك أيها النهم. وعاد ليكمل طلباته بصوت واثق:

وحيث أنك سوف تقضي على مرتب شهر كامل مقابل خدماتك فسوف أطلب المزيد، أريد منك إعادة ذلك الرجل إلى الوطن وسوف أرسل لك كل بياناته من هنا مع صورة هويته حتى أسهل الأمر عليك.

وعده عمرو بأنه سيفعل وعليه أن يرسل الأوراق سريعًا ثم انتهت المكالمة وكل منهما يسعى لإنهاء ما كلف به.

عاد ليجري اتصالًا بليلة مرة أخرى فوصله صوتها متعجبًا؛ لكنه أوضح سبب الاتصال بأنه يحتاج

بيانات أخيها بلال وأي أوراق تمثل هويته أو جواز سفر قديم له، أخبرته بفرحة عارمة وقد خمنت بأنه سيساعدها فرفرف قلبها فرحًا لذلك: حسنًا اليوم إن استطعت التصرف سأفعل وإلا سأنتظر الغد حتى ترسلها ياسمين لك حين تعود.

صوتها الفرح أعاد له بعضًا من إنسانيته التي كاد ينساها؛ ففي خضم معاركه الشرسة مع كل هؤلاء المجرمين المحيطين به نسي أن هناك وجهًا آخر للسعادة غير النجاح في قفل ملفات القضايا بالقبض على المجرمين، ذلك الوجه المتمثل بإدخال السعادة على قلوب من احتاجوا مساعدة فقدمها عن طيب خاطر، وكأن وجود ليلة جعله يدرك أنه قد نسي أشياء كثيرة كان يحبها فيما

سبق، تسللت ابتسامة خائنة إلى ثغره متخيلًا نجاحه في إعادة بلال إلى الوطن، فقد اشتاق تغييرًا يكسر رتابة حياته حيث يمضي في دهاليز قضاياه بجد حتى أجهده التعب ونال منه ظلام تلك السراديب المغطاة بعفن قلوب من يطاردهم.

***

اتجه كريم من فوره نحو مركز الشرطة حيث يستطيع أن يحرك زملائه لجمع خيوط القضية الجديدة التي كلف بها، فقد تحدث همام مع الضابط المسؤول العميد محمد ليوصي رؤساء كريم بإعطائه صلاحيات النفوذ لبعض الامكانيات التي تساعده بالعمل على قضيته، وكان له ما أراد إذ أن ملف همام بالشرطة يشفع له كونه مجدًا

ونشيطًا ويعمل بأقل التكاليف، بدأ بإرسال بعض رجاله لجمع المعلومات عن محمد صالح بكل طريقة متاحة، ومعرفة اسم ذلك الأخ المختفي من الصورة والذي يقطن بالعاصمة، ثم حين رتب أموره بمكان عمله اصطحب معه رجلي شرطة ليتجه نحو منزل زوجة سيد الهارب، كان يريد أن يثبت لهمام ولرؤسائه أنهم أجادوا القرار باختياره ليشارك همام بقضيته، وهناك حصل على بعض المعلومات لكن الزوجة أكدت أن سيد مسافر للعمل بالخارج، ورغم ذلك فقد قرر كريم أن يتجاهل تأكيدها ذاك فربما كانت لا تعلم الحقيقة أو أنها تجيد الكذب والتستر على زوجها وعليه أن يكمل ما بدأه وسأل أخت سيد عنه، عاد إلى المركز مرة أخرى فأجرى

اتصالًا رسميًا مع مركز الشرطة بالمدينة الساحلية التي تقع بها الاستراحة الصيفية لسيد وطلب منهم إلقاء القبض عليه وإرساله إليهم إن وجدوه؛ فهو متهم بجريمة قتل. أنهى مهماته وكان الوقت قد تأخر عن موعد عودته إلى منزله لكن حماسه دفعه للبقاء، قرر أن عليه العودة إلى منزله الآن بعد أن أنهى تحرياته، وبطريقه أجرى اتصالًا جزلًا بهمام:

_ مرحبًا سيادة الرائد، أنهيت بعضًا من الجزء الخاص بي من القضية، فقد جمعت بعض المعلومات عن المدعو محمد صالح، هو محامي فطن كان يتولى القضايا الخاسرة ليحيلها إلى نجاحات ساحقة تضاف إلى رصيده، ورغم مهارته فقد كان زملائه يخافونه أو ربما لا يحبونه، ترك

المحاماة منذ عدة سنوات ليست بالبعيدة لكن لا أستطيع الجزم بعددها، ثم بدأت ملامح الثراء تظهر على هيئته، وعطر المال يفوح من كل جيوب حياته، وحينها ظهر بإدارة شركة الأنهار والتي يملك نصفها أما النصف الآخر فهو لشريك لا يظهر نهائيًا بالأروقة. الشركة كانت صغيرة وتقع بالعاصمة تحت مسمى آخر ثم أتى محمد صالح ليرأس إدارتها ويحولها بغضون وقت قصير إلى شركة كبيرة نوعًا ما وبرأس مال كبير، لقد أرسلت رجالي لجمع المعلومات وهذا ما حصلوا عليه، لكن الخبر الأهم أم الأسوأ تحديدًا هو ماذا؟.. احزر أنت؟

.. أخبرني يا كريم دون حزرات وتخمينات فأنا أيضًا بخضم مهمة عجيبة الآن. قالها همام متوجسًا ومتأففًا فقد كان يريد التعجيل بالمعرفة.

أتاه صوت كريم معتذرًا قبل أن يسترسل في مفاجآته: آسف، وجدت أن شريكه يدعى عادل نصر الدين، ألا يذكرك ذلك بأحد؟

سأل همام بترقب: أتريد أن تخبرني بأنه رجل الأعمال المشهور وعضو مجلس النواب؟

قال كريم بحماس: نعم هو بعينه، تعرف أنه كان رجل أعمال منذ عدة سنوات لكن لم يكن مشهورًا للغاية، ومنذ عدة سنوات قريبة ارتفع اسمه إلى مصاف رجال الأعمال وله شركات كبيرة يديرها بنفسه بينما التحريات في السجلات التجارية تخبرنا

بأنه عضو مساهم بشركة الأنهار دون أن يكون له دور فعلي حقيقي، وكأن مشاركته أتت لتعطي الشركة صفة شرعية بوجودها تحت سطوته.

.. همممم. همهم همام بعدة كلمات غير مفهومة قبل أن يسأل بتعجب: هل هو أخ لمحمد صالح كما أخبرني أحدهم؟

حقيقة لست أعرف بعد، ما إن تصلني أخبار بذلك سأخبرك، هل توصلت لشيء بخصوص تحرياتك؟

.. لا أود أن أصدمك، لا شيء حتى الآن، المفاتيح لا تحوي واحدًا يمكنه فتح أبواب منزل الضحية التي أخبرتك عنها، بالواقع لا شيء لدي ضد أصحاب المنزل إلا إن ظهر ما يخالف الواقع ويدحض الأدلة التي جمعتها إلى الآن، فالأرض قد تم بيعها وخرجت

من حوزتهم، والمنزل لا شيء به يخبرنا أن المجرم له علاقة به، لكن..

صمت يفكر قبل أن يقول: وجدت على حدود الأرض التابعة للمشتري الذي عرفنا اسمه غرفة صغيرة لكنها مهدومة ولا يوجد من يحرس الأرض كما أخبرتني السيدة ليلة، ولأن الوقت قد تأخر فلم أجد من أستطيع أن أسأله عن مدى صحة شهادتها، لكن بالصباح سوف أتصرف، فقد خطرت لي فكرة..

صمت وكانه يفكر بجدوى إخبار كريم بفكرته من عدمها ثم اتخذ قراره بأن يتجاوز التوضيح ليكمل باقتضاب: لا عليك، غدًا سأعرف إن كان تفكيري صحيحًا أم خاطئًا.

أجابه كريم بثقة: سننجح بإذن الله، أنا سعيد بحق لأنني توليت التحقيق بهذه القضية معك، فالعمل معك شرف كبير للغاية.

علم همام أنه عرف عن ماضيه والحادث الذي تعرض له، فحين انتقل إلى هذا المكان كان لا يريد وجوهًا معروفة تذكره بما حدث، ولا يود أن يعرف الناس مأساته فيعاملونه بشفقة، لكن يبدو أن أمانيه ذرتها الرياح وضيعها واقع الثرثرة الملازم لجنس بني البشر، أجاب كريم بلباقة وبكلمات موجزة ثم أنهى المكالمة، لا يجب أن يسقط في بئر الغضب الآن، فخلفه قضية تحتاج كل تركيزه؛ والسقوط بمتاهات الغضب يحيد به عن الهدف القويم.

***

استقر باسل على فراشه بعد أن تم إجراء الفحوصات اللازمة للاطمئنان على حالته الصحية وحالة قلبه واستبعاد الأسباب الخطيرة المسببة للذبحة الصدرية التي فاجأته بالأمس، كان محاطًا بأخته من جهة وبزوجته من جهة أخرى، أما ياسمين فقد رحلت لأن والدتها أخبرتها بأن عليها العودة إلى المنزل للمبيت؛ فلا يصح من وجهة نظرها أن تبيت ابنتها ليلتين متتاليتين خارج منزلها. وعدتها أن والدها سوف يذهب لزيارة باسل بالغد ويمكنها الذهاب معه مرة أخرى وعليه فقد اعتذرت منهم على وعد بالعودة صباحًا.

بقيت ليلة ترفض العودة إلى غرفتها، وحين أجبرتها آلام فخذها على العودة للاستلقاء بفراشها أقسمت على باسل أن يطمئنها على حاله حين تهاتفه، وفي حال أتاه اتصال من بلال أن يناديها، فمن حسن حظها أن غرفتها بنفس الطابق حيث احتجز باسل، وها هي سلمى قد أعادتها للغرفة على مقعدها لأن المصري الشهم المدعو عماد قد أجرى مكالمة لهاتف باسل حتى يسمح لهم برؤية بلال أو بيدرو كما يطلق عليه، وبقلوب تنبض بالحماس المغطى بأطنان من الخوف تطلعت ليلة وباسل إلى شاشة الهاتف ينظران بشوق إلى ذلك الذي يطالعهما بابتسامة خجولة ونظرات تائهة، فقد فهم من عماد أن هاذين من أسرته بمصر لكنه لا يتذكر أي شيء

يخصهما، هناك حنين بقلبه يجذبه لوجه الفتاة النحيلة التي تنظر له بلهفة وشوق ولسانها لا يردد سوى اسمه متبوعًا بابتهالات وشكر لله «بلال حمدًا لك يارب، بلال حي فلك الشكر»

أما الرجل الذي يبدو مريضًا فكان يتحدث بلهفة وعجز يطمئن على أحواله ويسأله كيف يمضي أيامه، أجابهما بخجل أنه بخير وعجز عن وصف معاناته في كسب لقمة عيش تقيم صلبه إلا بمشقة الأنفس، حاجز خفي يمنعه من الاندماج معهما والتحدث بأريحية؛ فذلك الضباب الذي يغلف عقله وذكرياته لا يسمح له إلا بمعاملتهما كالغرباء، أتى دوره ليسأل عن صاحبة الرقم الذي كان محتفظًا به في ذاكرته بسابقة تبدو عجيبة على حوادث فقدان

الذاكرة النفسي المشابهة لحالته، لكن لطف الله يأتي على هيئة هبات خفية لا نملك لها تفسيرًا ببعض الأحيان حتى وإن حاولنا بالطريقة العلمية والمنطقية، أجابه المدعو باسل بأنها خطيبته ياسمين ولقد رحلت على أن تعود بالغد مرة أخرى، تبادلا أرقام هواتفهما ثم عاد عماد إلى الصورة ليتحدث بشهامة عارضًا عليهما أنه سوف يصطحب بلال بالغد إلى السفارة وسوف يخبرهما بما سيحدث، وانتهى اللقاء على وعد بعودة، لكن اللقاء لم يخمد مواجع قلبين أرقهما الفراق ذات مرة، وكان اللقاء يحمل مرارة الحنظل بحلوقهما؛ فوجع النسيان أمّر من كل فراق.

***

مر يومان منذ ذلك الصباح الذي نفذ فيه همام تلك الفكرة التي خطرت له ليلة مكالمته مع كريم، لم يخبر أحدًا بفكرته قبل أن ينفذها حتى يضمن ألا تكون صورته مهتزة أمام الجميع إن فشلت مساعيه، ففي الصباح اتجه على رأس قوة من الشرطة مصطحبًا سيارة لرفع انقاض الحجرة الصغيرة التي أخبرته ليلة أنها مخصصة للخفير أو الحارس الذي يحرس الأرض، وهناك قابل جمعًا من الناس الذين وقفوا يتابعون ما يفعله بشغف وفضول، وأثناء رفع الانقاض بدأ يستجوب ملاك الأرض المجاورين لأرض المشتري الغامض لهم وكلهم أجمعوا أن المشتري كان رجلًا أشقرًا ضيق العينين أتى مع السمسار ودفع سعرًا مغريًا

للأرض، سأل همام بفضول عن سبب شرائه للأرض فأجمعوا كلهم أن الأخبار أتتهم بأنه سيستغلها بزراعة الخضار المصدر للخارج، واحتار همام، فقد علم منذ بدأ تحقيقاته أن الأرض سيتم استخدامها لإنشاء مزرعة دواجن، التناقض في الإجابات نبهه أن الجميع لا يعرفون شيئًا عن الحقيقة بل هي محض تخمينات، سأل عن الخفير الذي يحرس الأرض فأخبروه أنه رحل ذات مرة منذ عدة ليالٍ ولا أحد يعرف لماذا، حتى غرفته هدمت دون سبب واضح، فقد أتى المزارعون لأرضهم صباحًا ليجدوا أن الرجل غير موجود والغرفة تحولت لأنقاض، وهنا عرف همام أن السر يكمن في هذه الانقاض، كانت العربة قد أنهت رفع الطوب

المهدوم فاتجه همام نحو الأرض وطلب من الرجال الحفر، وهناك كانت المفاجأة كما توقعها تمامًا، سرداب تحت الأرض يمتد لعدة أمتار إذ يبدو بأن هذه الحفر تتجه نحو أسفل الأرض لسبب ما، والسبب لا يخفى على أحد إذا ما جمعنا المعطيات بحسبة رياضية بسيطة، جثث أطفال زائد حفر في أرض تجاور النيل زائد ثراء فاحش، فيكون الناتج..

تعالت الأصوات المتعجبة وضرب جميع الواقفين كفهم ببعضهم من الدهشة، فلم يتخيلوا أبدًا أن الأرض لم تكن لإقامة مزرعة أو لزرع محصول، وإنما كانت للبحث عن كنوز بناها الأجداد بعرق جبينهم فأتى هؤلاء المدنسين ليدنسوا قبورهم ويبيعوا ثرواتهم بسعر زائل ومال لا يفيهم حقهم، وما أكثر

مدنسي الأعراض منعدمي الضمير الذين استباحوا كل فعل قبيح، حتى وإن أزهقوا الأنفس في سبيل ورقات خضراء ترفع مقاعدهم بالدنيا بينما تبخسهم درجات بالآخرة. حينها تم إبلاغ رؤسائه بما وجد، وتم تصعيد الأمر ووضع حراسة لحماية الأرض حتى يبعدوا المتطفلين الذين تسول لهم أنفسهم بإكمال ما بدأه هؤلاء معدومي الإنسانية أو يدفعهم فضولهم للتسلل ورؤية ما تم حفره وتعريض أنفسهم للموت ردمًا تحت أطنان التراب.

وها هو اليوم يستمع إلى كريم الذي يحادثه ليخبره بأن مساعيه خلف سيد أتت بثمارها، فقد تم إلقاء القبض عليه أثناء اختفائه بالمنتجع السياحي لكن

بمنزل غير الذي أعطتهم أخته عنوانه، فقد وجدوه بمنزل آخر يقع بنفس المكان ويبعد عنه قليلًا، ولولا فطنة حارس المنتجع لما انتبه أن المقيم بالمنزل الصيفي (الشاليه كما يطلق عليه) المجاور هو نفسه من تبحث الشرطة عنه، وقد وجدوا أن ملكية ذلك المنزل باسم شركة تقع بالعاصمة. أخبره كريم أن شرطة تلك المنطقة أرسلت لهم سيد ومن المتوقع أن يصل الليلة، فأخبره همام بأنه قادم لمتابعة التحقيقات، فلن يفوت فرصة مثل هذه. أنهى المكالمة مع كريم لينهض من مقعده متجهًا نحو مكتب رئيسه العميد محمد مطلعًا إياه على آخر المستجدات ويخبره بأنه بطريقه إلى المحافظة لمتابعة التحقيق مع المشتبه به، وبالطريق أتاه

اتصال من عمرو فأجابه سريعًا وكله أمل بالحصول على أي معلومة تساعده، وصله صوت عمرو المتعجل:

مرحبًا إتش، انظر لقد تحدثت لصديقي هناك فأخبرني أن الوضع لن يكون بهذه السهولة، لكن سأخبرك أمرًا، تحقيقات الشرطة هناك وجدت جثماني شخصين بسيارة تعرضت لحادث اصطدام بشع بشاحنة كبيرة دهست مقدمتها فلم يتبق من هيئتهما ما يدل على ملامحهما، كان أحدهما يرتدي سترته وبها أوراقه الشخصية التي تحمل اسمه عبد الحليم، أما الآخر فكانت سترته ملقاة بالمقعد الخلفي وتحمل أوراقه أيضًا باسم بلال، لكن..

انظر ما وجدوا! المكان الذي تم التقاط ذلك المدعو بلال لنقله إلى المستشفى بعد أن وجد غائبًا عن الوعي يقع على مسافة كيلومتر من موقع الحادث، لا يعلمون كيف سار بحالته تلك من موقع الحادث إلى ذلك المكان، لكن لأنه تم التقاطه قبل أن تأتي الشرطة إلى مكان الحادث فلم يربط بينهم أحد، ولولا ظهوره وطلبك بأن اتحرى لك عن الأمر لما ربط أحد بينهم.

علم همام أن سر الحادث لن يُعرف إلا إذا استعاد بلال ذاكرته أو اعترف المخططون له، وأمل أن تحقيقاته مع سيد ستُجني ثمارها بالنهاية، فلقد أتعبته القضية هذه حد الانهاك البدني والنفسي على حد سواء، شعر برغبة أن يحادث ليلة دون

هدف واضح، كان يفكر بإلحاح أن عودة ذاكرة بلال سوف تعينه كثيرًا، هذا إن كان بلال يعلم شيئًا عن سبب الحادث، فربما كان وجوده كشاهد مفيدًا في حال أنكر سيد الاتهامات الموجهة إليه، ولم يكن يعلم أن اللحظات الأخيرة بالسيارة قبل الحادث كانت بداية معرفة بلال بما تورط به حليم، لكن القدر أراد أن يضع نهاية مخالفة للموقف العاصف الذي يدور بالسيارة وأن تأتي النهاية بإزهاق حياة الجلاد وضحيته.

نفذ أمنيته الملحة فأمسك هاتفه يطلب رقمها والتي أجابت اتصاله بلهفة من ينتظر شيئًا أو خبرًا ينعش حياتها، قالت بلهفة: هل لديك أخبار؟

بعض الأخبار وليس كلها، لكن لا جديد إلى الآن، وأنت؟

وصله صوتها بلهفة فرحة محلقة على أجنحة السعادة:

بلال رأى ياسمين فقال شيئًا نعرفه، سألها بلهفة لا تناسب حالة فقدان ذاكرته التي وصفها الأطباء وكأن حبه لها غير خاضع للمنطق الطبي أو العلمي..

تابع همام كلامها بتركيز شديد وفضول عارم قبل أن يسأل: ماذا قال؟

أخبرها بوصف لملابسها التي كانت ترتديها ليلة سفره حين ذهب ليودعها، أخبرها أنه كان يتذكرها

بلا ملامح واضحة في ذهنه، لكن ما إن رآها حتى ربط وجهها بالصورة الضبابية التي تلح على ذاكرته..

تابع همام باهتمام وكلامها لا يحمل له توضيحًا فسألها أن تدخل في بيت القصيدة مباشرة، أجابت بثقة: هذا يعني أن ذاكرته بطريقها إلى العودة، تحتاج فقط لما يحفزها، باسل أخبرني أن عودته للوطن قد تعيد له ما فقده.

وقد كانت هذه الأخبار هي ما يبحث عنها همام بلهفة، قال بفرحة عارمة: حمدًا لله وشكراً لك يا ليلة على هذه المعلومات المشرقة، لا تعلمين كم أسعدتني بها.

وكانت كلماته التي نطقها بخضم انفعاله لها صدىً غريبًا بقلبها الذي اعتاد الحزن لفترات طويلة.

ليلة جموح

الفصل السابع عشر

الغربة أن تفقد حديث من تحب.

غسان كنفاني.

دار التحقيق مع سيد في أجواء مشحونة، فقد كان المدعو سيد يتحلى ببرود عجيب وثقة بالنفس مبالغ فيها، أنكر كل الاتهامات الموجهة له ببرود شارف حد الاستفزاز، وأنكر اختفائه بالمنتجع الصيفي مبررًا أنه لم يخبر زوجته بوجوده داخل البلاد لأنه أراد أن يمضي عدة أيام بعيدًا عنها وعن متطلباتها التي توجع رأسه.

علم همام أنه لن يصل معه إلى مبتغاه فانسحب من الاستجواب مؤشرًا برأسه لكريم كي يتبعه، كان يحتاج لترتيب أفكاره وتفنيد اتهاماته حتى يحصره

جاد شيماء

بزاوية لا يستطيع الفكاك منها، فخرج من الغرفة ليتجه نحو مكتب كريم بضيق وتأفف يدير كل المعلومات برأسه عله يجد مربط الفرس.

استقر على المقعد بغيظ مشيرًا لكريم أن يحذو حذوه قبل أن يتحدث بضيق:

لوح الثلج هذا يحتاج إلى طريقة أخرى تدفعه للكلام.

تحمس كريم قائلًا: لأنك تستخدم الطرق العادية بالاستجواب، يحتاج لبعض التحيات والسلام القوي حتى ينطق.

رمقه همام ممتعضًا قبل أن يتحدث:

لا ألجأ للتحيات والسلامات من البداية، أحتاج وسيلة ضغط فعالة تدفعه للنطق دون أن نمسه، فأنا أحبذ بعض الاحترام حتى لو كان أمامي وغدًا لا يستحق.

فكر كريم وإن كانت ملامح وجهه تشي بعدم اقتناعه لكن همام قال ببهجة:

وجدتها، اتبعني وعليك أن تنتهج درب الشرطي اللطيف، فسوف أبدو قاسيًا معه.

عارضه كريم متذمرًا:

دع هذا الدور لي فسوف أجيده للغاية، لقد تعودت على السير بدربه منذ أن عملت بسلك الشرطة.

امتعض همام لكنه قال بهدوء: وهو لك.

وبغرفة الاستجواب عاد همام وكريم فجلسا على المقاعد المقابلة لسيد الذي رمقهما بابتسامة مستفزة قائلًا ببرود: ألن أخرج من هنا؟ لا أجد سببًا لاحتجازي دون اتهامات حقيقية ضدي.

قال همام بهدوء: إن ساعدتنا سنساعدك على الذهاب بهدوء، وإلا فلا تلومن إلا نفسك حين تجد أن كل هذه الجثث مربوطة بعنقك! فلدي شهود يعلمون أنك مشتري الأرض التي وجد بها عددًا من الجثث المدفونة بباطنها.

امتقع وجه سيد لكنه تكلم بسخرية: كذب، لا أملك أرضًا وليس هناك جثث بمكان أملكه.

أجاب همام بلطف لا يعكس انفجارات الغضب داخله: كن متعاونًا معنا وسوف نجد لك مخرجًا،

لدي من الأدلة ما يورطك بعمليات مشبوهة خاصة حين نظهر للمحكمة أنك المسؤول عن صفقة شراء الأرض باسم والدك القعيد، أتحب أن تزج به إلى السجن كون الأرض تابعة له؟!

أتى دور كريم ليتحدث بقسوة مظهرًا موهبته في ابتزاز المشاعر: وفي هذه الحالة سوف ترى بعينيك والدك وهو يسحب من هنا لهناك بين تحقيقات النيابة والمباحث وشرطة الآثار والجنايات، صدقني سيظن الجميع أنه مدعي المرض ولن يقبلوا سوى بعرضه على قائمة طويلة من الأطباء واحدًا تلو الآخر حتى يتأكدوا من حقيقة إصابته، وحين ينتهون سيكون قد مات حتمًا بسبب كل هذه المهزلة التي عرضته لها.

أمن همام على كلامه بلطف: لا تخفه يا حضرة الضابط، دعه يفلت بفعلته ويورط الأب المريض بدلًا عنه، يبدو أنه لا يكترث لأمره بالفعل.

تطلع سيد لوجهيهما بتوتر، والده كان نقطة ضعفه، فمنذ صغره كره طيبة والده وتعرضه للتنمر وعدم مقدرته الدفاع عن نفسه، لذا مدفوعًا بذلك الحب الذي يكنه له وبالغضب الذي يسري بعروقه كما الدماء، أخذ على عاتقه مهمة الرد على من يسيء له، وقد كانت بداية دخوله إلى الأحداث مسببة بتلك الطبيعية الدفاعية التي تنتابه نحو والده وضعفه، لذا قال بغضب وقد خرج من شرنقة استفزازه وبروده: دع والدي خارج اتهاماتك ولا تقرب له وإلا لن تلوم سوى نفسك حينها.

اقترب منه كريم متحدثًا بقسوة: أوتجرؤ على إلقاء تهديداتك هنا جزافًا بداخل مبنى الشرطة؟ يا لك من وقح!

أتبع كلامه بصفعة قوية على قفا سيد انتفض لها الأخير وقفزت عيناه من محجريهما على إثرها فاحمر وجهه وانتفخت أوداجه، لكن همام نهض من مقعده موبخًا كريم ومتمعنًا بدوره كونه الشخص الأكثر لطفًا: لا تضربه يا حضرة النقيب، دعنا نأخذ حقنا بالقانون، أضف إلى المحاضر المقيدة ضده جنحة التعدي اللفظي على ضابطي شرطة أثناء قيامهما بعملهما، فنحن المسؤولون عن تنفيذ القانون لا اختراقه.

قالها ثم نادى على العسكري المكلف بكتابة التقارير ليمليه بصوت بارد مستفز: وأنه في اليوم (..) وأثناء استجواب المتهم المدعو سيد جميل فقد تم تعديه على الضباط المستجوبين..

قطع كلامه ليقول موجهًا حديثه لسيد: أضف إلى تهمة قتل المدعو حامد ودفن الجثث بمنزل السيد عبد الحليم والقيام بأعمال غير مشروعة من البحث عن الآثار والاتجار بها، وحيث ذلك فسوف تقضي ما تبقى من العمر خلف القضبان، هذا إن لم يلتف حبل المشنقة حول عنقك أو يتم طعنك لتموت غدرًا بالسجن قبل عرضك على النيابة، صدقني من تحميهم لا يستحقون قطرة من دمائك تنزفها لأجلهم، فاليوم تم التعرف على وجه المدعو

ليلة جموح
جار شيماء

محمد صالح بالمطار ومنعه من السفر حتى تنتهي التحقيقات، وإن لم تتحدث فستصبح كبش فداء له ولغيره.

تطلع بوجوههم المحيطة به تستنطقه بما يخبئه، لكن ما يعرفه لن ينهي القضية ويسعد الجميع، بل سيلف حبل المشنقة حول رؤوس الجميع وأولهم رأسه هو.

وها هو الآن كالغريق الذي سقط وحده ولا يجد من ينقذه منهم، هل إن وشى بهم سيخرج منها أم سيدان معهم؟ هل إن صمت سيحظى برضاهم ويحاولون إنقاذه؟ لكن هذا الضابط يخبره أن ابن عمته العزيز أوقف أثناء رحيله، إذًا فقد تمت التضحية به ووضعه ككبش فداء! كان يفكر بصمت

وتلك البسمة المستفزة تحوم حول ثغره وقد ضيق عينيه الزرقاوتين بمكر يحسب مقدار تورطه وما يجب عليه التحدث به أو إخفائه، فهو ليس بالمغفل الذي سيقر ويكشف كل أوراقه.

أخيرًا تحدث بمهل وتأنٍ قائلًا:

عليك أن تعدني بإخراجي من كل هذه الفوضى وسأخبرك بما تريد.

علم همام أنه لا يملك أدلة قوية ضده وبدون إفادته لن يحصل على شيء، لذا سارع بالكلام مؤمنًا:

سأبذل جهدي لإخراجك منها حسبما يكون موقفك، بالطبع لا براءة كاملة، فجرائم القتل لا يمكن تجاوزها جميعها.

هز رأسه مبتسمًا بسخرية ولا مباليًا ثم أشار برأسه جهة كريم قائلًا بنفس البرود المستفز: ولا أريده معك أثناء إدلائي بإفادتي، هذا أو لن أتحدث.

تطلع همام نحو كريم الذي نظر بوجه سيد بحنق قبل أن ينهض بقوة قائلًا بغضب: سأراقبك وأي تلاعب تود لعبه مع زميلي سأجده وحينها سأعاملك بمقدارك. ثم مال نحوه متداركًا بفحيح مخيف: كحشرة لا فائدة لها سوى دهسها تحت قدمي.

قالها ثم خرج صافقًا الباب خلفه بعنف تاركًا همام ينظر لسيد بترقب وقد أوجس خيفة من كل ما يحدث.

***

كاد همام أن يصفق إعجابًا لكريم، لكنه تمالك نفسه ليستقر بهدوء على مقعده قبل أن يطلب من سيد التحدث منبهًا إياه بأن المصداقية هي أساس الحوار.

وتوالت الاعترافات، كانت بالمجمل كل أصابع الاتهام تشير إلى الراحل حامد، فكونه قد قتل يجعل الأمور أسهل بإلقائها على عاتقه ولن يستطيع الإنكار، لم يكن هناك ما يشير إلا إلى ما سبق وفهمه همام أو خمنه وحده، وكانت المفاجأة من نصيبه حين اعترف سيد ببعض الأمور التي خفيت عليه، كان نص الاعتراف كالآتي:

اشتريت الأرض سعيًا لإضافتها إلى ما تملكه شركة الأنهار حيث أنها كانت تخطط للتوسع والقيام

بزراعة محاصيلها التي تصدرها للخارج، كان الشراء باسم والدي لتجنب التفتيش الضريبي وتلك الشئون العائدة إلى التهرب من دفع الضرائب _ولم تكن هذه فكرتي بالمناسبة_ فما أنا إلا مؤتمر بأمر صاحب الشركة، لجأت إلى حامد لأنه كان يعمل كسمسار للأراضي الزراعية وأخبرني أن هناك أرض يعرفها وتستحق الشراء بأي مبلغ، فالعائد منها أضعافًا مضاعفة نظرًا لخصوبتها وجودة موقعها. بالطبع وافقت بعد أن رأيت موقعها وحجمها ثم أوكلته الأمر بموالاتها ومراعاتها حتى نؤهلها للإنتاج وزراعة المحاصيل التي نحتاجها بمصانعنا، ولا أعرف ما فعل بها بعد ذلك.

سخر همام: ولم تعرف ما يفعله هناك! أخبرني إذًا كيف كنت معه أثناء حصوله على الطفلة الشقراء صاحبة العيون الزرقاء قبل أن تقتل ويتم دفنها بجوار الأرض التي اشتريتها باسم والدك؟

أنكر سيد معرفته بذلك ثم حين ضغط همام عليه تغيرت أقواله بعض الشيء، اعترف أنه كان مع حامد للحصول على الطفلة وأنكر معرفته لأسباب حصوله عليها حينها فقد ظن أنها للتسول أو ما شابه، إلا أنه أقر بأنه كان يعلم أن حامد يبحث عن الكنوز الأثرية بباطن الأرض ويسعى لكسب المال من ذلك الطريق، فقد أخبره حامد حين مرة في إحدى جلسات السمر بينهما أن هناك عرافًا أتاه ليخبره بوجود مقبرة تحوي من الكنوز ما يسيل له

اللعاب لكنه يحتاج لتحقيق بعض الطلبات كي يستطيع فتحها، فعلم همام أن هؤلاء الأطفال مذبوحي الأعناق والمدفونة جثثهم خلف منزل ليلة كانوا قرابينًا شيطانية وضحايا لجشع ذلك الدجال الحقير والبغيض حامد الذي لم يتورع عن قتلهم بدم بارد من أجل خرافة دجال مأفون. استبد الغضب بهمام خاصة وأن سيد اعترف بأنه علم أن حامد فعل ذلك لكنه لم يكن شريكًا له، وأن شركة الأنهار غير مسؤولة عما يحدث من خلفها، فلا أحد يستطيع ربط تلك الجرائم بالشركة أو بأحد مالكيها، ووصل همام إلى طريق مسدود. أما عن علاقته بصاحب المنزل حليم وبلال فقد أخبره سيد أنه لا يعلم شيئًا بخصوصها، ربما أتى ذات مرة على

ذكر ذلك البيت المجاور للأرض والذي مات قاطنيه بحادثة ما فأصبح مهجورًا وأنه يجد اللذة باقتحامه بين الوقت والآخر لينام به إن شعر بالملل من شقته، لكن لم يبلغه بأي شيء له علاقة بهما أو بمعرفته بالحادث الذي تعرضا له، كاد همام أن يجن؛ فمن توقع أنه ورقته الرابحة في سير تحقيقاته كان هو حجر عثرته وتوقف قضيته.

انتهت التحقيقات مع سيد بلا شيء، فتورطه بالأمر لا يعدو كونه تستر على مجرم انتهت حياته بالفعل ولم يعرفوا حتى من فعلها، فالسيارة التي صدمته لم يجدوا لها أثرًا وسيد أنكر معرفته بكل شيء وأي شيء، علم همام أن ذلك الطريق انتهى به إلى

حائط مرتفع ولا سور يستطيع تسلقه لجلب الحقائق.

أنكر أصحاب الأراضي المجاورة رؤيتهم لسيد بالمكان، واتهامات جمالات لسيد بأنه اشترى منها طفلة من قبل عادت وأنكرتها معللة ذلك بأنها لا تتذكر ذلك الحدث، الشهود في موقع حادثة حامد أنكروا رؤيتهم لقائد العربة التي صدمته، لا شيء بقي ليكملوا به احتجازهم لسيد فأخلوا سراحه بضمان محل إقامته.

وعاد همام إلى نقطة البداية، لا ليس تحديدًا إلى الصفر؛ فعلى الأقل قرر رئيسه إغلاق ملفات القضية بعد إلصاق التهم بالمتهم الأساسي حامد، فهو المتورط الوحيد بكل الأحوال ولا دليل على

وجود غيره، تم رسم سيناريو كامل للأحداث يدور حوله وحول فعلته، وبقي العديد من الأمور التي تحتاج لتوضيح محل غموض كشفرة لم تحل؛ فقد رحل ورحلت كل قاذوراته معه ولم يبق أحد ليفسر كل ما وجدوه ضده أو فعله بيوم من الأيام، حتى ذلك الدجال الذي أخبرهم سيد عنه لم يعرفهم على هويته بحجة أنه لا يعرفه ولم يصادف أن سمع أكثر مما أخبرهم به، فكل ما يملكه مجرد محادثة دارت بينه وبين حامد بإحدى جلسات تعديل المزاج كما يطلق عليها، وبجلسات كهذه لا يتم أخذ الكلام الصادر من الأفواه على محمل الجد؛ إذ أن العقول تكون شبه مغيبة والأفواه تثرثر بما يخطر لها.

حاول همام أن يقنع رئيسه بأن سيد وشركة الأنهار لهما يد فيما حدث، وأن الكل متورط بالاتجار بالآثار وإلا لما كانوا أشركوا معهم عضو مجلس النواب المعروف باسم عادل نصر الدين، لكن العقيد محمد رفض أن يسمح له بإكمال اتهاماته ووصفها بالخرقاء؛ فرجل بحجم علاقات عادل يجب أن يحسب الجميع حساباتهم قبل أن يقتربوا منه خطوة؛ فلا حاجة لاتهامات دون أدلة تودي بالجميع إلى طرق شائكة.

بقي همام يرزح تحت نيران الغضب التي تأكل قلبه وتلهب عقله، فلم يكن ليتخيل أن سعيه ولهاثه خلف الحقائق كل هذا الطريق سيصل به إلى جثة غارقة تحت الماء عزى موتها إلى حادثة صدم

وفرار، ثم اختفاء السيارة التي صدمتها وكأنها ذابت في المياه أو انشقت الأرض وابتلعتها.

***

اتجه إلى مقعده في الطائرة العائدة به إلى بلاده، جلس بهدوء يخالف ما يشعر به في داخله والصراع المشتعل بعقله وقلبه، فقد أنهت القنصلية استخراج وثيقة سفر تسمح بعودته إلى بلاده، ووفر له باسل ثمن تذكرته وحجزها له عماد ذلك الصديق الذي وقف جواره اليومين الماضيين دون أن يعرفه من قبل، لكن تلك المواقف هي من تظهر الأشخاص الذين يستحقون الحصول على لقب صديق من غيرهم، وقد يكون الصديق الذي

تعشمنا به طويلًا أول من يطعننا بظهرنا وقت أن نضعف ونستكين.

جلس وعقله ينبض بعنف، منذ أن حادث ياسمين وحالته غير عادية، فقد كان قبلها لا يعاني شيئًا سوى شعوره بالتيه، ربما لأنه استيقظ ذات يوم فوجد أنه لا يذكر شيئًا بتاتًا عن نفسه أو حياته التي أمضاها قبلًا، أتعبه هذا بالبداية ثم تأقلم على ذلك الوضع بعد حين، لكن حين رأى أسرته اختلج عقله بموجات من الذكريات المبهمة، شعور بالوجع بات يشعر به، وحركة استنفار غير عادية صارت تضج برأسه وكأنه يحاول اعتصار ذاكرته لتنضح بذكرياتها التي ضاعت، ثم أتت هي بكل هدوء تختال على أمواج من راحة البال لتهدئ من فوران

عقله، كل ما يحيط بها يتذكره بهدوء وكأنه رؤى ليلية تأتي لتنعش ذاكرته بلطف كنسمات الهواء العليلة، فيتذكر بعض التفاصيل البسيطة التي تخصها وإن لم تكن كلها واضحة، بل هي كندف السكر التي تهبط على ذاكرته فتشعره بالحلاوة والفرحة التي ضاعت منه. عائدٌ هو من الموت، عائد وكأنه ما عاد، فلا ذكريات لحياة عاشها من قبل تلوح بأفق ذاكرته، ولا وجه من وجوه الأحباء يطمئنه بأنه ليس وحده إلا وجهها هي، به استكانة وراحة تجبره على أخذ هدنة من اصطدام ذاكرته المستمر بذلك الحائط الذي بُني حولها ليلة الحادث. وعلم بسره أن تلك الليلة حملت داخلها خوفًا أجبره على بناء ذلك الجدار حتى ينساها.

وصل أخيرًا إلى مطار العاصمة، وجد بانتظاره شابًا أسمرًا مصفف الشعر ومهندم الملابس ومن المعاملة التي يقابله بها الجميع فهم أنه يشغل منصبًا رغم ملابسه المدنية، قدم نفسه له باسم يحمل رتبة رائد، «الرائد همام ولقد أتيت لاصطحابك من المطار، أنا صديق لأسرتك.»

رمقه بلال بتوتر وخوف غريب يتصاعد إلى قلبه، لا يعرف سببه لكنه شعر بأن عليه أن يخاف كون شرطي أتى لاصطحابه، ربما ذكره المسمى الوظيفي له بهؤلاء الضباط الايطاليين أثناء محاولة استجوابه لمعرفة حيثيات الحادث الذي مر به، عادت كلمة الحادث تدوي بعقله بعنف وتصاعد التوتر والخوف الذي يشعر به دون مبرر، تعرق

وشحب وجهه وصار تنفسه عسيرًا حتى انتبه همام لحالته فاصطحبه إلى مقعد وأجلسه عليه ليهدأ وتعود أنفاسه للانتظام مرة أخرى. أخبره بلال بكلمات متلعثمة أن هذه الحالة تنتابه منذ الحادث ولا يعلم سببها فأبدى همام تفهمًا قبل أن يعاودا إنهاء معاملات الوصول والخروج إلى خارج صالة الوصول.

وهناك كان الجميع بالانتظار، باسل وجواره ليلة على مقعدها المتحرك وخلفها ياسمين المعنية بدفع المقعد، أما سلمى فلم تأت لأنها كانت مع الأولاد بمنزلها تحضر الطعام للجميع؛ فقد اعتبروا عودة بلال مناسبة عائلية تستدعي التجمع

والاحتفال، وكيف لا وهم قد عانوا كثيرًا وآن الآوان لبعض الراحة لقلوبهم المتعبة المتألمة بالفقد.

وقف همام جانبًا يشاهد اللقاء المشبع بالعواطف وعلى ثغره طافت مشاعر جمة، فلا أجمل من مشاهدة قناع المرض والخوف ينزاح ليشغل مكانه لهفة وشوق وحب ودموع، الدموع تنساب من الأعين والابتسامات تزين الثغور والأحضان تتقاذف الغائب يمينًا ويسارًا رغم تجمد العائد وتجاوبه الضعيف مع فرحتهم. بقي همام يتابع بصمت ورغمًا عنه تشبثت عيناه بوجهها الصبوح الذي زاده الفرح نضارة وجمالًا، لأول مرة يراها بهيئتها تلك، ترتدي ملابس أنيقة وحجاب مرتب يخفي خصلات شعرها التي يعرف لونها حق

المعرفة من زيارته لها بالمستشفى، وجهها المتعب المتألم صار مشرقًا تغزوه بهجة وتجمله ضحكة عفوية تظهر غمازتيها الغائرتين الجميلتين، فكر بسره أن بعض الحمقى يقولون أن الغمازات عيب خلقي بتكوين العضلة الموجودة بالخد! إن كانت كل العيوب الخلقية تخلف جمالًا مثل هذا فمرحبًا بها. قطع حبل أفكاره وتأملاته اللامتناهية اقتراب باسل منه ليحتضنه بقوة قائلًا بحبور خلفته فرحة الدقائق الماضية: حقًا لا أعرف كيف أشكرك على كل ما فعلته لأجل عودة بلال، وأود شكر ابن عمك الذي سهل عودته من الخارج، أخبرني كيف أرد دينك هذا فهو معلق برقبتي إلى يوم الدين!

ضحك همام بإحراج قائلًا لباسل ألا يبالغ، فما فعله ليس شيئًا صعبًا على أية حال.

أتى دور ليلة وياسمين ليتحدثا إليه، ما زالت ياسمين تشعر بالرهبة منه منذ ذلك اليوم الذي استجوبها به ورغم ذلك قالت بامتنان: نحن حقًا شاكرين لك كل ما فعلته لأجل عودة بلال، لن نوفيك حقك مهما تحدثنا.

أما ليلة فنظرت لوجهه بفرح، وهذه المرة لم تره كشخص أعاد لها عزيزًا ضاع، بل رأته كشخص أعاد لها روحها التي ضاعت طويلًا وكانت استكانتها على يده، فكان مثل خلاصها من وضع فقدت الأمل بالخروج منه. أتى دورها لتتحدث بفرحة: بالفعل

أخبرنا كيف نرد جميلك الذي طوقتنا به بداية من هذه القضية ووصولًا إلى مكاننا هنا؟

البهجة المتسربة بالأجواء انتقلت عدواها إليه فابتسم بمرح متحدثًا للجميع ومخصصًا لليلة: لم أفعل إلا واجبي، حتى واجبي قصرت به ولم أستطع إلقاء القبض على كل المجرمين، فقد نفدوا بفعلتهم وخسرت كل ليالي السهر والاجهاد اللذان راحا أرضًا على ما يبدو. ثم نظر لبلال مكملًا بمرح: لكني سعيد لكوني استطعت خدمتكم بإعادة الغائب ورسم البهجة على ملامحكم، وهو ما أجده تكفيرًا عن فشلي بحمايتك منذ البداية ووجودك بالوضع الراهن. قال جملته الأخيرة موجهة لليلة.

وفي غمرة المرح غفل الجميع عن مراقبة وجه بلال المتقلص، فذكر المجرمين والقضية حركا بداخله غثيانًا مبهمًا وأشعلا رغبة بالتقيؤ، شعر بالإعياء فلوح بيده لافتًا أنظارهم إليه قبل أن يميل ليستند على كتف همام الأقرب مكانًا منه قائلًا بتعب: دعونا نرحل من هنا، أنا متعب ولا أقو على الوقوف كثيرًا.

أسنده همام واتجها نحو سيارته المصفوفة بمكان قريب؛ فقد تولى مهمة إحضارهم إلى المطار بسيارته لأن باسل مازال متعبًا ولا يريد القيادة بالوقت الراهن. جلست ليلة بالمقعد الأمامي نظرًا لوضع رجلها أما البقية فقد استقروا بالخلف واحتل همام مقعد القيادة.

عم الصمت بالأجواء فقد بدا أن بلال يعاني كثيرًا ولا يريد التحدث واكتفى الآخرون بمراقبته في توتر وقلق، الشخص الوحيد الذي عرف تفسير ما يحدث مع بلال كان باسل، والأوحد الذي كان تفكيره منشغلًا بشيء آخر عدى كون بلال بخير هو همام، فقد شرد ذهنه لأبعد من ذلك، كان بقرارة نفسه يؤمن بالعدالة وأنها يجب أن تأخذ مجراها، ولأن مجراها لم يوجد بعد من وجهة نظره فقد أخذ على عاتقه حفره بنفسه، وكان هذا سره الصغير بالإضافة إلى السر الآخر الذي بدأ يتكون داخله في هدوء ويخشى الاعتراف به لنفسه حتى وإن ظل يراقبها بصمت.

***

انتهى التجمع حول مائدة الطعام بهدوء، فرغم الفرحة التي تحلق في سماء الغرفة إلا أن الصمت كان رفيقهم منذ عادوا إلى المنزل واستقبلتهم سلمى بحفاوة، حاول همام التملص من دعوتهم له لتناول العشاء ولكن كما يقال (الكثرة تغلب الشجاعة.) وهو قد فقد شجاعة الرفض أمام اصرار الجميع عليه بتناول الطعام معهم، كانوا يعاملونه كما لو كان فردًا منهم يدفعهم لذلك امتنانهم بعودة بلال التي ساعدهم بها. أما بلال فقد اكتفى بتجنيب عينيه الالتقاء بعيني أي منهم، كان يبدو عليه الخجل والضيق وعدم الراحة وكأنه حل بمنزل ليس بمنزله، فقد تعود الفترة الماضية أن يظل وحيدًا ينام على فرشة متهالكة ويأكل طعامًا بالكاد

يشبعه، أما عن معاملة الآخرين له فقد اعتاد الأنفة والنفور ونسي في خضم تلك الحياة أن هناك جانب آخر عاشه من قبل في كنف أسرة محبة وبيت متفاهم وسعة حال لا تتوافر للكثير.

اعتذر منهم وانسحب ذاهبًا إلى المرحاض وما ذهب إلا لحاجته للاختلاء، فالجميع يحاوطه وكأنه سيهرب بأي لحظة، يظنونه مغفلًا ليفعلها؛ وهو ما لن يفعله عاقل أبدًا؛ أن يهرب من الأمان إلى ظلمات الشوارع وضيق الأرصفة ولسعة الجوع والبرد. يحتاج فقط لبعض الخلوة يستجمع بها أنفاسه ويتغلب على ذلك الصداع الذي يدق عظام جمجمته وكأنه يحاول أن يكسرها، مر على الطفلين هادئي الطباع اللذان رآهما حين قدومه وقدموهما له على أنهما

ولدي باسل أخيه فحياهما قبل أن يسألهما عن المرحاض، أشار له جواد إلى مكانه فتوجه نحوه ليستقر به بعض الوقت. طال بقائه بالحمام فقلقت ليلة التي كانت تتحدث مع ياسمين بصوت خافت منذ قليل لتسأل باسل عما ألم ببلال؛ فبصفته طبيب الأسرة الوحيد كان الجميع يلجأ له ليحل لهم كل مشاكلهم الطبية وغير الطبيبة، التابعة لتخصصه والتي لا تمت لتخصصه بصلة وكأنه حين حاز شهادة الطب حاز معها شهادة عامة بمعرفة خبايا الحياة.

أجابها باسل بثقة: هو بخير، يعاني من متلازمة فقد الذاكرة النفسي نتيجة تعرضه لصدمة، وهو الآن يعاني من محاولة عقله استرجاع تلك الذاكرة

الضائعة فيسبب له ذلك الضيق والضعف والسقم، لو يهدأ فقط ويبتعد عن تلك المحاولات ويجبر عقله على التريث فقد تعود لوحدها.

طال الحديث بينهم وقد تولى باسل دفة الحوار يناقشهم بوضع بلال الطبي والكل يستمع له بشغف ولكل منهم هدف بداخله، فياسمين تريد الاطمئنان على مكانتها بقلب بلال وأنها ستظل ملكة متربعة على عرشه لوحدها، تخاف أن تخسره مرة أخرى ولن يحتمل قلبها هذا. وليلة الأخت الحنونة التي تريد التأكد أن أخيها سيعود كما كان، صديقها المقرب وتوأم روحها كما اعتادت، تخاف أن يبقى ذلك الغريب الذي عاد من الخارج تائهًا يرمقهم بقلق ويخشى اقترابهم منه. أما همام

فبداخله رغبة خفية أن يستعيد بلال ذاكرته ليخبره بمعلومات جديدة تنير له أفقه وتقصر عليه الطريق الذي نوى السير به وذلك من أجل تحقيق العدالة، فدماء هؤلاء الأطفال ما زالت عالقة برقبته، ودم الفتاة المطعونة أمام ليلة لم يعد بعد، ربما هدفه لم يكن عاطفيًا مثل الجميع لكنه يجد أن رغبته بعودة ذاكرة بلال أكثر إنسانية من رغبة أسرته المدفوعة بالعاطفة نحوه.

وأثناء انشغالهم بالحديث الاسري الدافئ خرج بلال من المرحاض لكنه وجد بداخله رغبة تدفعه للتلكؤ بعيدًا عنهم. اتجه بهدوء نحو رف الديكور الذي يشغل جزءًا من الجدار أسفل شاشة التلفاز المسطحة المعلقة على الحائط ليتأمل التحف

المتراصة عليه بنسق جميل، فكر بداخله أن صاحبة المنزل تتحلى بحس فني أنيق ومرتب، اتجه بعينه نحو الرف الجداري الأصغر ليجد صورًا مؤطرة لعدة أشخاص، أمسك الصور يتفحصها باهتمام ليرى مجموعة من الصور تجمع الكل أو بعضهم، وكان وجوده بكل الصور هو الغالب، ابتسم لمرأى وجهه الحليق في إحدى الصور والذي يختلف عن مرآه الآن ثم انتقل الى الصورة التي تليها يتأملها، لكنه حدق بها وطنين لا يغادر أذنه بدأ بالارتفاع تدريجيًا ولمحات سريعة لصور اللحظات الأخيرة تنبثق بذهنه بطريقة خاطفة تصيبه بالدوار، سقط الإطار من يده فتحطم زجاجه ولكنه انثنى إلى الأمام يمسك رأسه بكلتا يديه كمن أصابته صاعقة داخلية

مجهولة فآلمته دون أن يأبه للزجاج المحطم أرضًا، اندفع الجميع نحوه بخوف متسائلين عما ألم به فصرخ بهم بصوت لاهث أنه يريد الذهاب إلى الفراش، فالصداع الذي يعاني منه يوشك على تفجير شرايين مخه وتحويلها إلى أشلاء.

أسرعوا لتنفيذ طلبه بينما مال همام يمسك الصورة المحطم إطارها فيحدق بها قليلًا بتوتر يراقب ملامحها السعيدة ونظرة الحب تلتمع بعينيها لمن يجاورها، ثم انتبه إلى أن ما حصل منذ قليل لا تفسير له إلا شيء واحد..

وضع الصورة على الرف وأخذ يراقب ظهر بلال المحني أثناء استناده على باسل بطريقه إلى غرفته وقد خيم عليه هاجس بأن بلال بات يعرف ما حدث

له من قبل، وكان تخمينه ذاك يحتاج إلى طريقة فعالة لإثباته، فهل ستواتيه الفرصة؟

الخاتمة

فيتأكّد لي مع كلّ صباحٍ

أنّ في هذه الحياة رغم كل شيءٍ ما يستحق الحياة.

رضوى عاشور.

مر شهران أو أقل قليلًا منذ أن أغلقت ملفات القضية وإثبات التهم جميعها على حامد، لكن القضية لم تغلق بعقل همام، بقي يجتر غيظه ويلوكه بحسرة ضياع قضيتين متتاليتين بحياته دون أن يحقق العدالة كما يصبو أو كما يليق بذكائه ويشبع بعضًا من غروره المهني، ولأنه تعلم من قضيته السابقة أنه الخاسر الوحيد إن بقي يبكي فشله وينعي حاله، فقد قرر أن ينسى كونه شرطيًا ويستخدم عقله بطريقة المجرمين، وعليه أن يفكر

تمامًا مثلما يفعلون، فالمجرم مهما أمن العقاب وأفلت من الوقوع بجريمته لن يتوقف، ليس غباءً منه ولكنها طبيعة المقامرة التي تجري بعروقه، وبعض الغرور الذي يصيبه نتيجة إفلاته المرة الأولى فيهيأ له أنه يستطيع الافلات كل مرة، وكان على همام أن يهيئ لهم بيئة آمنة خادعة تدفعهم للاستمرار بغيهم حتى ينال رقابهم تحت يده فيحكم الإمساك بهم.

رسم خطة تسير بدرب غير مستقيم، خطة وضعها للالتفاف على روتين النظم الحكومية العقيمة، فتحقيق العدالة يحتاج بعض الأحايين بطلًا مقنّعًا مثل زورو، وكان عليه أن يوجد قناعًا خاصًا به. وفي أثناء خطته التي سار بدربها يعاونه كريم الذي

نشأت بينهما روابط صداقة مهنية إثر تعاملهما السابق، أرسى دعائم البحث على ذلك الدجال الذي استعان به حامد كما أخبرهم سيد، توقع همام أن عدد الدجالين محدود ولا بد أنه يقيم قريبًا من نطاق تعامل حامد، فكانت قرية حامد والقرى المجاورة لها هي مركز بحثه الخفي في سكون دون لفت الأنظار، أطلق رجاله يتحققون من أسماء كل الدجالين ومعرفة إذا ما كان أحدهم له باع طويل بالسحر الأسود أو ما شابهه، والبعض الآخر أرسلهم للتقصي خلف نبش الأراضي سعيًا للحصول على الآثار واستجواب كل أصحاب الأراضي المجاورة للحاج علي وتلك التي يملكها سيد، خاصة وأنه يعلم أن هذا الهوس بات ملازمًا لعامة الناس نتيجة

تفشي الفاقة والحاجة يصاحبهما تدني الثقافة والاختلال الواضح في القيم والأخلاق حتى أصبحت الأنفس تستحل كل قبيح، بل ويوجدون له مبررًا وغاية.

وعلى صعيد آخر فقد توطدت الصلة بينه وبين بلال، بقرارة نفسه علم أن بلال يخفي سره ويتمادى برسم دوره بفقدان ذاكرته وهذا حيره للغاية، فلم يصر بلال على ذلك الدور الذي يرسمه رغم أن كل المعطيات تشير إلى العكس!

ربما كان ذلك السر الذي يخفيه بلال هو مبعث اهتمامه بالتقرب منه، أو ربما نشأت أواصر المودة بينهما منذ تلك الليلة التي استقبله بها بالمطار

وتكفل الجميع برسم دور البطل المغوار له بعين بلال فسعى للتقرب منه عرفانًا بجميله!

كان يتردد عليهما مرارًا وتكرارًا، ولم يفطن أن سبب زيارته لهما تخصها هي، فالبسمة التي تقابله بها ونظرة الانبهار التي يراها بعينيها كل مرة أعادت له إحساس الصبي الذي يعجبه نفخ عضلاته أمام الفتيات، لا سيما إن كانت تشبه ليلة جميلة تنير سماءها النجوم. والليلة حين أنهى عمله واتجه نحو منزل بلال وقد عقد النية على المواجهة لم يخطر بباله أن الأمر يخصها أيضًا، طرق الباب ففتحت له هذه المرة ولم يفتحه بلال كما اعتاد، استقبلته ببسمتها الحلوة والتي أزاحت كثيرًا من ظلال الحزن التي ما زالت تموج بعينيها فابتسم مرحبًا،

مازالت على مقعدها المتحرك ولم تبرأ بعد، لكن إصابتها لم تمنعها من التحرك بالكرسي والبقاء جوار بلال تساعده على استعادة عمله السابق، حياها همام بهدوء قبل أن يسأل بحذر:

هل بلال هنا؟ مررت على محل عمله فأخبرني الصبي الذي يعمل معه بأنه لم يأت اليوم فمررت لأطمئن على حاله.

ابتعدت بكرسيها المتحرك للخلف تدعوه للدخول قائلة بقلق: هو بالداخل، أخبرني أنه متوعك يعاني من الشقيقة (الصداع النصفي) التي كانت تزوره بالماضي ولم يخرج منذ الصباح، ربما إن ناديته لمقابلتك فقد يخرج. قالتها ثم استدارت بالمقعد

نحو الداخل مشيرة له بالدخول نحو مكان استقبال الضيوف لكنه تكلم بخفوت: انتظري.

استدارت نحوه بترقب تستطلع سبب همسه فاقترب خافضًا صوته أكثر: هل تجدين فارقًا بينه وبين بلال الذي تعرفينه من قبل؟

لم تفهم سؤاله جيدًا أو يصلها مغزاه فقالت بتوتر: لا أفهم، وضح لي!

.. أسألك بخصوص ذاكرته، هل تجدين صعوبة بتذكيره بالأشياء من ماضيه؟

احتارت بم تجيبه وترجمت حيرتها لجمل متخبطة: أشعر أنه مشوش بشأن بعض أحداث الماضي، في علاقته مع ياسمين يكاد يكون طبيعيًا وليس كما أتخيل، لكن لدي تفسير منطقي لذلك.. ربما

السبب حبه لها، فكان حافزًا لاسترجاعه طبيعة العلاقة بينهما، لكن من جهة أخرى أشعر بغرابة تصرفاته خاصة فيما يخص ذكرى الراحلين.

قالتها ثم صمتت كثيرًا وشردت فاحترم همام صمتها وشرودها وقد فهم أنها تقصد زوجها بالأخص. نظرت نحوه فرأى لمعة الدموع بعينيها لكنها بدت متماسكة عن ذي قبل وقالت بلهجة معتذرة: يرحل الراحلون ويتركون بالحياة فراغًا لا يملئه أحد، حتى وإن تجاوزنا رحيلهم تبقى ذكراهم تحمل لنا كثيرًا من الألم.

كان همام يفهمها حقًا ويفهم ما يفوه به لسانها دون عناء، فهكذا هي قوانين الفقد، لا يشعر بمصابك إلا من ذاق من نفس كأسك، وتبقى كل تجربة تختلف

عن الأخرى باختلاف الأشخاص وردود الأفعال. لم يتفوه بكلمة وظل يهز رأسه مؤمنًا وغصة غبية تخنق صوته فخشي أن تسمعها إن تكلم، صامت كالقبر فيما يخص مشاعره وبالأخص تلك الذكرى التي تذكره بفشله، لكنها ابتسمت بإحراج مغمغمة دون أن تنتبه لصمته الذي طال: اعذر روح التفلسف التي تتلبسني بعض الوقت، أجيد كتابة الخواطر نوعًا ما وقراءتها.

ثم عادت لتكمل كلامها فيما يخص بلال: أرى أنه طبيعي في بعض الأحيان ومشوش بأحيان أخرى، لكن على أية حال هو هنا، ووجوده هو كل ما يهمنا، ولن أنسى الفضل لك بإعادته لنا على وجه السرعة، ولو ظللت أشكرك طول العمر لما وفيتك

حقك، لو فقط أعرف ما حدث هناك بالخارج لهما؟ طرحت سؤالها بطريقة عرضية وكأنها أمنية تود تحقيقها لكنها لا تأمل بالكثير نحوها، هزت رأسها ثم ابتسمت مرة أخرى مشيرة لهمام بأن يستريح ريثما تنادي بلال ثم اتجهت نحو غرفته، وجلس همام على أول مقعد قابله وداخله مشاعر متخبطة ومذبذبة، كان قد اعتاد وجوده بالبيت هنا، وما ساعده على ذلك أنه لا يملك مكانًا آخر بهذه المدينة يتجه إليه، فوقته خارج نطاق العمل خاوٍ كخواء حياته، يقضيه وحيدًا بأغلب الوقت يتابع التلفاز بشرود أو يتصفح هاتفه بلا هدف، ومنذ اقتراب بلال منه على استحياء أولاً حتى ازدياد ترابطهما إلا وقد شعر بالهدوء يتسرب لداخله

ويتشبع به، وبات شعور الألفة والاستكانة ملازمان له أغلب وقته، وها هو يأمل ببعض النجاح في عمله على طريقته هو لا كما تقول الملفات حتى يصل بداخله إلى الشعور بالاكتمال.

***

اقترب بلال من موضع جلوس همام فحياه ثم جلس مجاورًا له، علاقة غريبة تجمعهما لا يتخللها الكثير من الكلام بل يغلب عليها الصمت والهدوء والتفاهم بنظرة واحدة، قد يشاهدان فيلمًا أو حلقات مسلسلة لبرامج وثائقية على ناشيونال جيوغرافيك، وقد يشغلهما بعضٌ من أحداث العمل التي تقابل كلاهما فيحكيانها لبعضهما باقتضاب، لكنهما كانا مرتاحين هكذا وكأنهما

يأنسان بالصمت في الأجواء وكل منهما مستسلم لأفكاره الخاصة، اليوم كان همام يريد شيئًا آخر غير الصمت، كان ينبش عن الحقيقة، يحتاج بشدة لمعرفة أن القضية التي تولاها لم تنتهي تلك النهاية التافهة والتي لم يعاقب بها إلا المجرم الأضعف والذي قضى حياته بالفعل جزاءً لما اقترفت يداه.

سأل بهدوء: هل ذهب الصداع؟

بنفس اللهجة الهادئة أجاب بلال: نعم هي نوبة أمر بها وأعلم بدايتها قبل أن تظهر، شخصت من قبل بأنها الشقيقة (الصداع النصفي) وأصبحت معتادًا على زيارتها بين الحين والآخر.

أتى دور همام ليسأل بنفس الهدوء ولكن تخلله الحذر: كنت تتعامل مع هذه النوبات منذ عدة سنوات كما أظن، فمن كلامك بدا لي أنك معتاد عليها.

تطلع بلال بوجهه يستشف ما خلف سؤاله فابتسم له همام بمكر وأشار لرأسه غامزًا، بادله بلال الابتسامة قبل أن يقول بصوت خافت وقد فهم إشارة همام ولم يحتاج للإنكار: نعم منذ ثلاث سنوات.

لكزه همام بكتفه ممازحًا: كنت أعلم صدقني. ثم سأل بحيرة: لم كل هذا؟ هل تخشى أن تعترف بعودة الذاكرة لك؟

قال بلال ببساطة: لأجلها، لم أرد أن أدمر صورته بشريط حياتها الذي حفظته بقلبها، لكن كيف عرفت؟

_ منذ عودتك من السفر حين رأيت صورة زفافها، شعرت أن صورته هي ما أعادت لك بعضًا من الذكريات، لكن لم أكن متأكدًا من ذلك إلا بعد مرور الأيام واقترابي منك، فقد وضعت لك بعض الأسئلة المفخخة وأجبتها أنت بكل بساطة.

.. أكنت تراقبني؟

_ ليس تحديدًا، وجدت أن صداقتك تستحق التنازل عن بعض طموحاتي بمعرفة ما تخفيه لذا لم ألح بالسؤال من قبل، لكن الآن أود معرفة كل ما خبأته هنا. قالها مشيرًا بسبابته نحو رأس بلال

ومكملًا ببعض الحماس: فاليوم تحديدًا أتيت لك لأنني عرفت الكثير، أحتاج لإكمال الصورة التي أركبها بمخيلتي لسير القضية، ولكن ينقصني الجزء الخاص بك في قطع البازل التي أكونها منذ بعض الوقت، هذا ما أود معرفته كي أستطيع القول أنني نجحت.

عدوى الحماس انتقلت إلى بلال فسأل: هل استطعت إلقاء القبض على من فعلوها؟

_ لم أفعل بعد، وددت أن أسمع قصتك وحتمًا ستفيدني في سير القضية، لكن أحتاجك بصفة رسمية وبمحضر رسمي تدلي به بأقوالك، فسيكون كلامك داعمًا لي للغاية.

.. لكن لست أريد أذية أحد آخر، يكفي ما حدث لحليم.

_ لن يتأذى أحد هذه المرة، فالأيام القادمة ستحمل فضيحة مدوية ترج الأخبار.

سكت بلال واجمًا ثم تحدث بخفوت: لا أريد إزعاج ليلة.

_ صدقني تحتاج لمعرفة الحقيقة حتى تتجاوز ألمها قليلًا.

.. وربما لو علمت لانتكست وانهارت، فأنت لا تعرف مكانته بقلبها.

وخزة مرقت بقلب همام لكنه تجاوزها قائلًا بحكمة: لن نعرف ما سيحدث إلا إن جربنا، وأؤكد لك أن

تعرف منك خيرًا من أن تعرف صدفة أو ينتابها الريب لمعرفتها أنك أخفيت عودة الذاكرة عنها طويلًا.

فكر بلال قليلًا قبل أن يقول باضطراب: كلامك حق، سأفعل بعد أن أزورك بمكتبك بالغد.

_ أخبرني الآن ماذا حدث، سيكون الكلام من صديق لصديق وليس بصفة رسمية..

.. الحكاية تبدو صعبة التصديق إلى الآن، بمخيلتي لم أظن أن حليم قد يتورط بمثل هذا أبدًا لكنه حدث، يبدو أن تلك الصور التي نكونها بمخيلتنا عما يستطيع غيرنا فعله وما لا يستطيع قد تكون مثالية جدًا في زمن باتت المثاليات به عملة نادرة.

صمت وكأنه يستجمع أحداثًا مرت به وتركت داخله أثرًا لن يزول قبل أن يبدأ الحكاية..

***

قبل تسعة أشهر وفي مساء أحد الأيام في مدينة نابولي ترجل بلال من السيارة التي يؤجرها حليم للتحرك بالمدينة ليحضر طلبًا من الصيدلية، فقد كان يعاني بعضًا من الصداع واحتاج لشراء أقراصًا مسكنة، لكنه عاد سريعًا فوجد أن السيارة التي يقودها حليم بدأت بالتحرك دون وجوده، تعجب من الأمر وأسرع الخطى ليجد أن أحدهم احتل المقعد المجاور لحليم ومن هيئته بدا عربيًا فاضطر للقفز بالمقعد الخلفي لأن حليم لم يتوقف حين رآه يحاول اللحاق به بل حاول زيادة سرعة السيارة،

صدم من نظرة حليم المتوترة ولهجة صوته الغاضبة التي صاح بها في وجهه معنفًا إياه على اللحاق به لكنه لم يفهم ما الذي يحدث، ثم بدأ إدراكه يحمل له ما خفي عنه، كان الجالس جوار حليم يحمل مسدسًا يوجه فوهته نحو حليم ويده في الأسفل يخفيها بحقيبة صغيرة يحملها ويتحدث بحدة آمرًا إياه بالتوجه نحو الطريق المغادر للمدينة، لم يفهم بلال ما يحدث وظنها سرقة بالإكراه فصاح بعدم فهم: حليم ما الذي يحدث؟

لكن صوت حليم المحمل بحقائب الاعتذار وصله: آسف يا بلال، لم أرد تورطك بالأمر، كنت سأرحل دونك لولا غبائك.

نهره الرجل الجالس بالجوار بعربية ركيكة: أخرس وقد.

لكن حليم تطلع لوجه بلال الشاحب ونظرة الرعب المرتسمة على ملامحه فأيقن أنه بحاجة إلى اعتذار يفهمه ما يحدث، كانت السيارة قد بدأت تودع المدينة خلفها وتنهب الطريق نحو الطريق الرئيسي المتجه إلى روما دون أن يفهم بلال مجريات الأمور. شعر أنه بحاجة للتدخل ولكن ما الذي بإمكانه فعله وهو لا يفهم سر حدوثه، فجأة تحدث حليم مبددًا سحب الصمت التي تحوم حول رأسهم ليقول بأسف : أخبرها إني آسف وإنني أحببتها من كل قلبي، لم أرد أن تصل الأمور إلى هذا،

ظننت أنني سأحصل على النقود ثم سيذهب كل منا في حال سبيله.

.. عم تتحدث؟ سألها بلال بتوتر.

_ علمت أن أحد الرجال المهمين متورط بالاتجار بالآثار، كنت أحتاج المال ليس إلا.. تعلم تخبط أمور الشركة بيننا مؤخرًا، أخبرني أحدهم أن الأرض التي بعتها تساوي مبلغًا أكبر مما دفع لي، فقد وجد اثنان من أصحابها المجاورين لأرضي قطعًا أثرية بأرضهم وتم بيعها لرجل أخبروني أنه ذات السمسار الذي اشترى الأرض مني من قبل فكانت الحقيقة أنه يعمل بتجارة الآثار، أعلم أن كلامي متخبط لكني تحققت من الأمر عن طريق بعض الأشخاص المهمين فعلمت أن الأرض تباع كغطاء للحصول

على الآثار منها، وتوصلت بأن خلف هذه العمليات رجال مهمين، هناك ضباط بالجمارك يهتمون بمثل هذه الأمور كما تعلم..

صمت يتطلع بطرف عينه نحو المسلح الذي يرمقه بغضب وعلى وجهه بدا أنه يعاني كي يفهم ما يقال، فقد كان من أصول عربية على ما يبدو ولكنه لا يجيد فهمها. عاد ليكمل بحسرة: ظننت أن ابتزازهم سيعطيني ما أطمح إليه من المال، وكانت شروطي أن أحصل عليه على هيئة معدات وليس نقدًا، كنت أظنني ذكيًا حين قررت التلاعب بهم لكنهم كانوا يملكون كل شيء، وها نحن هنا لأحصل على معداتي كما تصورت ولم أظن أنهم يخططون للتخلص مني ومنك بالتبعية نظرًا لوجودك معي.

سرحت عيناه نحو الطريق المقابل بترقب ثم حين فجأة قال بتوتر:

لكن لن يحدث ذلك، تستطيع النجاة أنت كما أردت لك، ستجد ما يدين الجميع بحقيبة خاصة داخل حشية الفراش هناك، سلمها للشرطة إذا لزم الأمر.

وقبل أن يفهم أي منهما مغزى كلامه كان قد انزلق على الطريق المقابل بالسيارة ليندفع نحو شاحنة كبيرة تنطلق على الطريق المعاكس فيصطدم بمقدمة سيارته بها وانقلبت الشاحنة إثر محاولة السائق تفادي الاصطدام، بقيت مقدمة السيارة تحت الشاحنة المقلوبة على الطريق المظلم لكثير من الوقت قبل أن تصل عربات الإسعاف وسيارات الشرطة، ولم يجدوا سوى رجلين قد فرموا تحت

ثقل الشاحنة المنقلبة دون أن ينتبه أحدهم إلى خط الدم الرفيع الذي يسيل من جهة الباب الخلفي إلى الطريق مرة أخرى، فقد اندفع بلال الذي حركه الخوف وبشاعة الحادث إلى السعي لطلب النجدة مخلفًا سترته التي تحمل كل أوراقه على المقعد الخلفي ورائه. سار مدة طويلة يجر ساقيه ذاهلًا عما حدث له منذ قليل حتى بدأ يشعر بالتعب وظلال الخوف الكامنة بداخله ترتفع وتطغى على أحاسيسه ثم مادت الأرض تحت أقدامه. مضى بعض الوقت قبل أن ينتبه له أحد السائقين فحمل جسده وعاد إلى مستشفى المدينة ليتم إنقاذه ويبقى هناك دون وجود من يهتم به أو بالسؤال عنه، فلم تكن ذاكرته لتسعفه على تذكر ما حدث،

وكأن صدمته وضعت حاجزًا يُبقِي ما سمعه تائهًا في غياهب عقله، فلا حاجة لتذكر ما يشوه صورة أحبائنا خاصة بعد رحيلهم.

***

«ونعود اليوم إلى فضيحة القرن والقبض على بعض مهربي الآثار خارج البلاد وقد اشتبه بتورط بعض الشخصيات السيادة بها دون مراعاة ضمائرهم فيما يخص تاريخ بلادهم وحضاراتهم التي بناها الأجداد بعرق جبينهم، وما زالت التحقيقات جارية لتحديد المسؤولين عن هذه المهزلة والضرب بيد من حديد لكل من تسول له نفسه الإضرار ببلده أو بيعها ببخس الثمن.»

كانت ليلة تتابع الأخبار التي تتحدث عن القضية التي رجت البلاد منذ عدة أيام بعد أن تم تسريبها إلى الصحافة أثناء التحقيقات، ولم يعرف أحد هوية المسرب؛ إذ أن رسالة إلكترونية من جهاز كمبيوتر لم يتم تحديد الرقم التسلسلي له وصلت إلى أكبر صحيفة معارضة تحمل أدلة تفيد تورط عدة شخصيات بعمليات مسلسلة لتهريب الآثار إلى الخارج مستغلين الحصانة الدبلوماسية التي يتمتعون بها، وتورط بعض رجال الجمارك الذين ارتضوا قبض المال مقابل تسهيل خروج الشحنات التي تحمل الآثار إلى الخارج، وقامت الصحيفة المعارضة بعملها على أكمل وجه، فبات الرأي العام هو المحرك لقضية همام والتي خاف رؤسائه

بالبداية الإيمان بما جمعه من أدلة وحاولوا المماطلة بإعادة التحقيق مع سيد وشريكه محمد صالح وشريكهم الأكبر عادل نصر الدين، والذي تبين أنه أخ غير شقيق لمحمد صالح من جهة الأم.

انقلبت البلاد إثر التسريبات فبات استخدام المعلومات التي جمعها همام وكريم هي البداية لفتح ملف جديد يقدمون به طبقًا دسمًا يخمدون به غضب الرأي العام، رغم أن الحقيقة تقول لو ملك هؤلاء الغاضبون من الآثار ما يستطيعون بيعه دون أن يضرهم ذلك لما تأخروا ثانية عن بيعها والاتجار بآثار أجدادهم، هذا إن لم يتاجروا بأهلهم لو تسنت لهم الفرصة! لكن هكذا هو حال البشر،

يضعون أنفسهم موضع القديسين ما لم تتوفر لهم الفرصة أن يعملوا قوادًا!

كان همام قد اعتمد بخطته على طريقين متوازيين، فمن جهته بدأ النبش سعيًا خلف الدجال الذي استعان به حامد وبنفس الوقت بدأ البحث عن خط السير الذي يسلكه مهربي الآثار بداية من شرائها وحتى تسفيرها خارج البلاد. ومن جهة أخرى أوكل كريم مهمة السعي خلف سيد عن طريق إيهامه بأن هناك بائع يود التعامل معه، واستعان في سعيه بقطعة أثرية حقيقية تمت المجازفة بها لأجل تحقيق غايتهما، كانت مساعيهما تدور بطريقة غير قانونية ويعلمان أنهما إن فشلا بخطتهما وانكشف أمرهما فسوف يعاقبان على تجاوزهما ذاك، لكنهما

مدفوعان بهوس إنهاء القضية تماديا في سعيهما الشاق للغاية وخلقا لنفسهما دربًا يلتفون به حول دهاليز الروتين والأوراق المتكدسة والملفات المنتهية دون نهاية فعلية بالقبض على مجرميها.

بعد بحث مضني وجد همام غايته بدجال غريب الأطوار ذو وجه ناحل ورأس أصلع وأسنان صفراء خربة منفرة، رفض الرجل الإقرار بحقيقته في البداية ولكن بعد مساومته على إطلاق سراحه مقابل شهادته أعطى وصفًا دقيقًا لما حدث بليالي تقديم الأطفال كقرابين، كانت شهادته تثبت تورط حامد وسيد على حد السواء ولم تخفف شهادته كثيرًا من إدانته؛ فما ارتكبه بحق هؤلاء الأبرياء يستحق عليه الإعدام رميًا بالرصاص داخل ميدان عام وأمام

جماهير البشر حتى يكون عظة لمن لا يعتبر. وبشهادته التف حبل على أحد كاحلي سيد وبقي الحبل الآخر بانتظار عقده حتى يسهل جذبه منهما ووضع عنقه تحت مقصلة الاستجواب دون أن يستطيع الفرار كما فعل بالسابق. وانطلت خدعة النقيب كريم عليه وتم القبض عليه متلبسًا بحمل سلاحٍ أبيضٍ وتهريب قطعة أثرية، واتخذت التحقيقات شكلًا رسميًا مرة أخرى؛ فالقبض على سيد منحها صبغة شرعية لاستئناف ما توقف من قبل.

وهذه المرة لم يحضر همام سير التحقيقات، علم أن طريقته التي ينتهجها لا تجدي نفعًا فترك الأمر لكريم يدير تحقيقه بالطريقة التي يحبذها وبالغالب

تؤتي ثمارها مع أمثال هؤلاء، والشعار الذي يرفع في مثل هذه التحقيقات «اضربه ولا تترك أثرًا يشي بفعلتك.»

وكان أن أتت النتيجة بثمارها، اعتراف مفصل يحوي كل ما حدث وكيفية حدوثه، فقد كان المدعو حامد مجرد جندي على رقعة شطرنج يتلون لاعبيها باللون الأسود كسواد قلوبهم، وكل جندي يخطئ تتم تنحيته وإبعاده من اللعبة وتقديمه ككبش فداء إذا ما تأزم الأمر. أما سيد فقد شغل مكان الحصان بحركاته الغير متوقعة والصلاحيات التي ينالها لإنجاز كل ما يمكن إنجازه في مقابل حماية الوزير والملك، وحين سقط سيد أسقط وزيره محمد صالح، وسقوط الوزير كشف الملك وكل حاشيته.

ولكن وكأي هيئة تخضع لحسابات أخرى غير تحقيق العدالة البحت، فقد استشف همام أن مساعيه لن تؤتي ثمارها حين لمح التردد بعيون القادة؛ فالأوراق التي أمامهم بها أسماء لأناس يعملون بالخفاء بينما واجهاتهم الاجتماعية تمنع المساس بهم، وكان عليه أن يجد مخرجًا بعيدًا عنه وعن الجميع؛ فبلال الذي أخبره بوجود بعض الأوراق التي تحمل أدلة خفية وقد جمعها حليم بطريقة ما غير معلومة لهم قبل اغتياله كان مستعدًا للانتقام من هؤلاء الغلاظ عديمي الرحمة والإنسانية وتخليص المجتمع من شرورهم، وكان عليه أن يرمي له فكرة إرسال ما يملكه إلى صحف المعارضة دون أن يتدخل هو بشكل رسمي، تولت

غضبة الشعب تحريك المياه الراكدة وسعت الجهات المختصة لإخراج نفسها من المأزق بوضع الأمور بنصابها الصحيح، وتم فتح التحقيق مع الجميع دون مجاملة أو رياء.

اقترب بلال منها يشاهد توترها وتقلص ملامح وجهها أثناء متابعتها ما ينشر بالأخبار، شعر ببعض الذنب لأنها تعاني بسببه منذ أن أخبرها عما حدث لحليم، فقد انسحبت من أمامه لتعتكف بغرفتها طوال يومين كاملين ترفض التحدث أو البكاء، وكأنها استنفذت كل دموعها فصارت عيناها أرضًا بور، حينها لجأ لهمام يخبره بخوفه فأعلمه همام بأن ردة فعلها منطقية وصحية لها، وأخبره أن يدعها وشأنها حتى تقرر العودة، وحين انتشرت الأخبار

بنجاح قضية همام وإلقاء القبض على بعض المتورطين عادت تخرج من عزلتها لتقبع أمام التلفاز تتابع شاشته بنهم، اتجه نحوها متسائلًا بهدوء: أما زلت تتابعين القضية بكل هذا الشغف؟ يمكننا معرفة سير الأمور مباشرة عن طريق همام.

أجابته بأسى: لن يتحدث، أعرف ذلك لأنني سألته بالأمس حين مر عليك بعد المغرب، سألته عما آلت إليه الأمور فأخبرني بأنه لا يستطيع التحدث عن قضية قيد التحقيق وإلا سيكون خائنًا لعمله.

صمتت قبل أن تتحدث بلهجة أقل حزنًا: أعلم أنك تحمل نفسك ذنبًا لا يد لك فيه، صدقني لقد كفّر حليم عن ذنبه رغم وجعي لفراقه بهذا الشكل، والآن وأنا أتابع الأخبار أشعر أن موته أثمر بفائدة

للوطن، فقد كان ضحية لهؤلاء العصبة من السفاحين الذين استحلوا قتله بدم بارد رغم كونه ضحية نفسه أولًا والتي ورطته معهم منذ البداية، ولولا أنك أنت من أخبرتني بما فعل لما صدقت بأنه قادر على إتيان مثل ذلك الفعل، فلم أتخيل أن حليم قادر على ابتزاز أحدهم أبدًا.

أغلق بلال التلفاز قائلًا ببساطة: لقد ضحى بنفسه لأجل انقاذي وانقاذك، لا أستطيع لومه أبدًا على فعل قد ارتكبه بلحظة ضعف يملكها كل البشر، وها قد نجح هدفه بإظهار الحقائق والانتقام ممن فعلوها ويكفي ذلك، لن نتحدث عما حدث مرة أخرى.

هزت رأسها قبل أن تتحرك جهة المطبخ بمقعدها المتحرك قائلة بشرود: سأعد لنفسي قدحًا من الشاي، أتود واحدًا؟

_اجعليهما اثنين، فهمام أخبرني بأنه سيمر علي لأمر عاجل.

شردت بأفكارها أثناء توجهها للمطبخ تستحضر السبب العاجل الذي يدفعه لزيارة بلال لكنها لم تصل إلى واحد فهزت رأسها مغمغمة: ربما يود أن يخبرنا بجديد في قضيته، فهو يعلم أن القضية تمسنا جميعًا بشكل شخصي.

ولم تعرف أنه يود مقابلة بلال لأمر أبعد من كونه شخصي (له) وحده، بل يشمل المثنى من الكلمة لتصبح (لهما)..

***

بعد مضي شهر

مر يومان على حفل عقد قران بلال وياسمين، لم تصدق نفسها أثناء الحفل وكانت دموعها تنهمر محملة بالفرحة المطلقة بلا حدود؛ فمنذ عودة بلال كانت فاقدة لاتزانها، تتعامل معه بخوف أن تفقده مجددًا، تخشى أن تغمض عينيها ليلة فتستيقظ على خبر رحيله مرة أخرى، تظل تحدثه حتى تسقط نائمة وأول ما تفعله صباحًا هو الاتصال به لسماع صوته، خوفها كان مبالغًا به لكنه يبدو منطقيًا لقلب فقد نبضاته حتى شارف على الرحيل ثم أعادوا له ذلك المحفز الذي يدفعه للنبض من جديد. واليوم اجتمعت كل العائلة بمنزل عائلة بلال، حضر باسم

وسلمى والأولاد من العاصمة، وياسمين أتت مبكرة بعد أن حصلت على إجازة من عملها، فقد قرروا إقامة حفل وداع لهمام بعد حصوله على ترقية إثر نجاحه في حل القضية وعليها فسوف ينتقل إلى العاصمة مرة أخرى.

الجو العام يسوده الألفة رغم بعض الحزن المخيم على بلال لفقدانه رفيقًا اعتاد وجوده بالأشهر السابقة، وقد كانت هذه أسرع علاقة صداقة حصل عليها بعمره وأكثرها تأثيرًا، فقد وجد بهمام السلوان عن فقده حليم وخاصة أن شخص همام يشبه شخصه وذكاء همام يعطيه الأفضلية بفهمه. ربما قد صدم بتصرف حليم يوم أن علم ما فعله، لكنه الآن استعاد بعض المنطق بتفكيره فوجد أنه

لا يستحق الكره أو الغضب عليه للأبد، فبعض التعقل في العلاقات الشخصية شيءٌ ضروريٌ لتوطيد المحبة بالقلوب دون تنازل عن القيم والأخلاق.

وليلة لا تدري لم بدأت تشعر ببوادر الحزن تتسلل إلى قلبها! كانت تحمل بقلبها إعزازًا لهمام وتقديرًا قلما حملته لشخص غريب، لكنه لم يعد بالغريب منذ بعض الوقت، منذ أن توطدت علاقته ببلال وصار يمضي معه كثيرًا من الوقت! منذ أن عمل على إنهاء القضية بما يليق بضميره وكأنه أراد تعويضها عما فقدته على يد هؤلاء الأوغاد. شعرت أنه يهديها نجاح قضيته عن طيب خاطر فأخل هذا ببعض الحزن القابع بقلبها، كان حزنها كستار داكن

اللون يحجب كل أشعة الأمل والفرح من النفاذ إلى روحها فيكتم كل أوجاعها ويخزنها، كل ما احتاجت إليه يدًا قوية تزيح هذا الستار سامحةً لبعض بصيص من نور الأمل أن تزيح رائحة الحزن العطنة التي تزكم الأنوف، وقد فعل همام لها هذا، أعاد لها اليقين بأن الحق لا يضيع والأمل موجود ولو بعد حين.

وأخيرًا حضر صاحب الحفل، بدا متأنقًا بشكل لافت للنظر، لم يبدو كعادته ببساطة ملابسه بل بدا وكأنه بذل جهدًا ليظهر وسامته بداية من تصفيفة شعره نهاية إلى اختيار ملابسه، رحب به الجميع وباركوا له الترقية التي حصل عليها وكلهم سعادة به، أما هي فكانت تبدو مثل الجميع بسعادتها لكن هناك

بداخلها قبعت قبضة خانقة على أنفساها تضايقها ولا تعلم سببًا لها، كم تكره مظاهر الوداع حتى وإن بدت أنيقة ومرحة! فالوداع يظل وداعًا والرحيل يبقى رحيلًا وإن اختلفت أسبابه.

اقترب منها بحبور يتلقى تهنئتها بشكل خاص، فقد انتهت القضية بأوراق رسمية وكانت النهاية كما يطمح بل تزيد قليلًا.. وكانت جائزته احتفالًا أقامته له نبضات قلبه في حضورها فصار ذلك إيذانًا بنسيان الماضي واستعدادًا لما دبره منذ بعض الوقت!

ثم على حين غرة انسحب الجمع واحدًا تلو الآخر وكل قد انشغل بأمر ما، وحينها فهمت ما سيحدث؛ فالمغفل فقط هو الذي يغفل عن قراءة الاهتمام

وتفسير الإشارات المنبعثة من تصرفات المحب، قد يبدو مبكرًا لها اعتبار ما تلتقطه كحب لكنها لا تغفل ذلك الاهتمام والراحة التي تراها بعينيه حين يلقاها، انخفاض صوته في حضورها وتصنعه المرح كي يرسم ضحكة على وجهها، لم يكونا مراهقين لكن تلك المشاعر تعيد للقلب بعضًا من مراهقته.

تلك الإشارات التي التقطتها منه كثيرًا لم تُخِفْها بل جعلتها أكثر استقرارًا وأمانًا، فقط ما يؤرقها هو احتفاظها بحبها لحليم وقد شعرت أنها تخونه، وهذا كان مبعث ألمها بالآونة الأخيرة.

حاوطهما الصمت ورسم حولهما إطارًا من الإحراج مزقه صوته القوي يسألها عن حالها فأجابته أنها بخير، حينها تحدث بثقة قائلًا: وددت أخذ رأيك بأمر

ما، أتعتقدين أن شخصًا مثلي يستحق فرصة العيش بأمان بعد أن فقده لوقت طويل، وأقصد الأمان النفسي؟

أجابت بهدوء متحلية بالعقلانية في ردها: كل شخص يستحق العيش بأمان والمضي قدمًا متجاوزًا ما يوجعه.

وكأن إجابتها أرست دعائم الأمل بقلبه فتحدث صراحة دون مواربة:

تعرفين أنني عازب لا أملك إلا نفسي أواجه بها طوفان الحياة وحدي، كم من مرة انهزمت وكادت قوة الأمواج أن تقتلعني! مرارة الهزيمة موجعة للغاية تحتاج من يعينك على امتصاصها ويؤازرك للنهوض حين تسقط. حين ماتت زوجتي وابني

استسلمت، علمت أن نصيبي من السعادة قد انقضى وآن دور نصيبي من الألم والتشتت والتخبط، سرت وتعثرت وقاومت ثم أتعبتني المقاومة وأجهدني السير وحدي، أعلم أنك الوحيدة التي تفهمني وتشعر بما شعرت به، فكل من حولي لا يكف عن إعطائي نصائح جوفاء عن الكف عن رثاء نفسي وبكاء الماضي وأنني يجب أن أستأنف حياتي، هم لا يشعرون ولا يعلمون أن الفراق يخلق حزنًا لا يزول، وإن طمست معالمه مرور الليالي يبق حاضرًا بالقلب حين الاختلاء!

كان يتحدث باسترسال وقد شردت عيناه بوجهها يقرأ ملامحها وانفعالاتها المرئية أمامه كصفحة واضحة نقية، أما هي فقد بقيت تحدق بوجهه وكل

كلمة يقولها لا تصل أذنها فقط بل تعبر لتمس وجدانها وتلقى صدىً لها بقلبها، فما يقوله تشعر به للغاية وكأنه يتكلم عنها وعن أحاسيسها، تابع كلامه وقد شعر أنه أجاد اختيار المدخل لما سيقدمه لها:

وحين رسم القدر لنا خطًا متشابكًا بتلك الحادثة لم أتخيل أنها كانت تعويضًا لي عن كل ما ظننت أنني فقدته، فالقضية التي سرت خلفها كُلل سعيي بها بالنجاح، ومنها خرجت بصداقتي مع بلال والتي اعتبرها هدية قيمة لي، أما ما وجدت أنه لا يقدر بثمن فهو تعرفي عليك، اقترابي منك ورؤية نفسي في عينيك، صدقيني لا شيء يأسر ويجذب شخصًا إلى آخر إلا أن يجده يتفهم ألمه ويداوي جراحه

ببسمة تخرج من القلب، وكنت أنت لي هذا الملاك.
شعرت أن روحي تشبه روحك، ومحنتي توازي محنتك، بيننا ماضٍ مشترك نستطيع أن نساند بعضنا لنتخطاه، أطمح أن تعطيني هذه الميزة لأعوضك وتعوضيني عما قاسيناه، وأتمنى أن توافقيني رأيي وتمني علي بموافقتك.

قالها وصمت ينظر بوجهها بأمل وكأن ما سيخرج من بين شفتيها الرقيقتين المضمومتين بذهول سيضفي إلى روحه الميتة حياة، تحدثت فكان أول ما نطقته متلعثمة متوترة: لكنني أحب حليم، سأشعر أنني خائنة له إن وافقت!

وأتى دوره ليحاججها بمنطقه رغم جملتها الغبية التي مرقت إلى أذنه كأنها قذفته بقطعة حجر: لا

أطلب منك كرهه، على النقيض من ذلك فأنا أتوسل إليك ألا تجعلي حبه نقمة عليك، نحن نحيا بالحب والأمل، ثم إن رحل الحب مصدر سعادتنا بحثنا عن مصدر آخر يمدنا بالوقود للاستمرار بالأمل، وسيكون بقائنا معًا هو وقودنا لما تبقى من عمرنا، نحيا بحبهم في قلوبنا ونخلق لأنفسنا سويًا حياة نحبها ونبني بها ذكرى تصاحبنا حتى النهاية، فالحب يبقى بالقلب ولا نملك اقتلاعه إن أردنا، لكننا بعقولنا وذكائنا قادرين على أن نمضي بطريق اخترناه ورسمناه لحياتنا، وأنا اخترتك بعقلي، رأيت بك شريكة تناسب ظروفي واعتدت وجودك بحياتي حتى وجدت أنني لا أريد غيرك ولا أتخيل يومي دون عادة رؤية وجهك أو الاستماع إلى صوتك،

سميه ما شئت فلا أحبذ المسميات، لكني أعدك ألا أؤذيك يومًا أو أجرحك، سأبقى متفهمًا لك ولكل ما تمرين به، في السراء والضراء وحين البأس، جربي اعتيادي بحياتك ولن تندمي أبدًا، ولست أطلب أكثر من هذا كبداية على الأقل.

ظلت تنظر لوجهه وكلامه الذي يقول يشتت رفضها ويضعفه، تحتاج إلى ذلك الشريك الذي يعرضه لها بطيب خاطر، تحتاج السند والملجأ والأمان بعد أن جربت قضاء الليالي بفراش مهجور من الألفة والمحبة والأمان، إن لم يكن ما يعرضه لها يسمى حبًا فلا بأس، يكفيها أنه قدم لها ما تحتاجه بشدة، تحتاج المودة والرحمة والسكن إلى رفيق يصاحبها بعثراتها وفرحها، تحتاج إلى يد قوية تنتشلها إن

سقطت مرة في بركة الأحزان ولم تجد مخرجًا، تحتاج أن تقول..

«موافقة»

ثم استدارت بمقعدها لتخرج بخجل من الغرفة وقلبها ينبض بعنف وقد شعرت بخدر يسري بجسدها حتى أنها ظنت أنها ستصاب بالإغماء، لكنه أمسك بالمقعد من الخلف ليوقفها ثم يديرها نحوه قائلًا بحبور: لقد أجلت استلام الترقية حتى أبقى معك، لن أستطيع استلامها إلا عندما تستطيعين السفر معي، فدعيني أكن بالقرب منك.

خفضت رأسها ترمق يديها المعقودتين بحجرها وقد شعرت بغصة تخنقها وتدفعها للبكاء، فدفق

المشاعر التي تمر بها لم يكن هينًا عليها، وملاحقته الحنونة لها توترها بشدة، عادت ترفع رأسها تقول بهمس وبعض الدموع تأبى إلا أن تتجمع بزاوية عينيها: لا أعرف كيف أشكرك على ما فعلته وما زلت تفعله، شكرًا لك من القلب وشكرًا لك بحجم السماء والأرض وكل ما أحب، أقل ما أستطيع تقديمه لك هو السماح لك بالبقاء قربي.

حينها مال ينظر لوجهها ويبتسم بسعادة قبل أن يقول: هكذا حصلت على كل ما أتمنى من الحياة.

واندفعت الزغاريد من حلوق لم تعرف الفرح إلا من وقت قريب، فالجميع كانوا بالخارج يراهنون على جموح ليلة الرزينة دائمًا بقرارتها وتمسكها بتذكرة

السعادة المهداة لها، وينتظرون هذه اللحظة بشغف حتى يعلنوا انحسار الأحزان إلى أمد بعيد!

تمت بحمد الله

شيماء جاد

٣٠ من ديسمبر ٢٠٢٠

بهذه الرواية ودعت عامًا مرهقًا، وأناسًا لهم بالقلب مكانة وإن رحلوا عن دنيانا ستظل محفورة لن تنطمس، فرحم الله أرواحهم الجميلة وغفر لهم، وأتمنى أن يحمل عامنا المقبل من الخير ما يفيض علينا جميعًا، ونسأل الله أن يرفع عنا كل البلاء والمحن والفتن.

***

مشهد إضافي

بعد عدة أشهر

- أمصر على تسلم تلك القضية والمضي بها قدمًا؟

- وهل تخافين على نفسك أن يصيبك مكروهًا جراء توليي هذه القضية؟

سألها همام وعينيه تحدق بوجهها الصبوح الذي ما مل النظر إليه بالأشهر المنصرمة، يعشق النظر لعينيها السوداوتين التي انقشعت منهما سحب الحزن تدريجيًا وباتت لها لمعة تأخذ العقل وتكاد تصيبه بالجنون حين تنظر له بهما. لم يحدثها من قبل بأي حديث يشرح اختلاف المشاعر، بل كان صبورًا حليمًا ينتهج معها منهج الرجال، فيعلقها به بحبال الود والألفة واللين والتسامح. بادئ ذي بدء

طلب موافقتها على عقد القران حتى يستطيع التواجد جوارها كلما احتاجت رفيقًا يصطحبها في زيارتها الدائمة للأطباء ولمراكز العلاج الطبيعي فيما بعد، وحين وافقت لم يبخل أبدًا عليها بتواجده كلما احتاجت إليه. كان سندها حين خضعت لعملية جراحية لاستبدال جهاز تقويم ساقها بشرائح داخلية تثبت عظامها، ثم أثبت شهامته حين تناوب مع بلال على اصطحابها لجلسات العلاج الطبيعي المؤلمة المرهقة لها، وها هي الآن تقف أمامه تحاججه وتناقره بخصوص اصراره على النبش بقضية المخدرات التي أُغلق ملفها من قبل لقلة المعلومات المتوافرة عن أفراد العصابة بعد هروب رئيسهم إلى الخارج.

شعر بالإرهاق والتعب من إلحاحها المستمر بالابتعاد عن تلك القضية تحديدًا، وكأنها لم تتفهم حاجته لفعل ذلك؛ فبقايا من الخزلان ما زالت تعشش بقلبه ويريد أن يطلق سراحها، كعادة بني البشر في عدم الرضا بما كتب عليهم إلا فيمن ندر.

- بل أخاف أن يصيبك أذىً فلا أحتمل، لم أعد أهتم إذا أصابني مكروهٌ، بل يؤلمني أن أخسر شخصًا أحببته. أجابته ببساطة تسحبه من الشرود بعينيها لتجبره على النظر لوجهها محاولًا قراءة بعض من مشاعرها التي لم يتأكد منها بعد.

انقبض وجهه وتغيرت ملامحه بعض الشيء فنظرت لوجهه مطولًا قبل أن تخفض ناظريها أرضًا

تهمس: أخبرتني أنك لن تغضب إذا ما مرت ذكراه بيننا يومًا، أتراك تراجعت عن وعدك هذا؟!

- بل أغار، أغار وأحترق بغيرتي كل مرة أشعر أنه ما زال يحتل قلبك، وهذا لا أملك له دفعًا، اشعري بهذا!

قالها ثم مد يده فأمسك كفها ليضعه موضع قلبه قائلًا بتأوه حزين: هنا يحترق، لا أعرف تفسيرًا لما يحدث بعد لكنه يؤلم. أنا عند وعدي ولن أغضب، لكني أخاف أن أظل دائمًا بمنزلة ثانوية بحياتك أو تضعينني على الهامش، وأنا لا أحب إلا أن أكون في موضع البطل.

قالها ثم رفع كفها أمام عينيه معددًا على أصابعها ومكملًا بلهجة صوت خافتة وما زالت عيناه تطوف

على محياها فتقرأ فيهما الحب والوجل: أريد أن أكون أول من تهرعين له حين تحتارين بأمر ما، وأن أكون جالب البسمة لهاتين الشفتين الجميلتين حين أمر بذاكرتك، أريد أن أراني بلمعة عينيك الرائعتين وأن لا يشغل أحد حيزًا من تفكيرك إلا أنا..

- ومن قال أنك لا تفعل! سألته بهدوء وعينيها تموج بانفعالات شتى تجذبه ليبحر بها فلا يستطيع النجاة من الغرق بهما.

قبضت يديها على كفه الممسك بهما تبثه بقبضتها إحساسًا بالتمسك به وقائلة بصوت حنون يخطف القلب: وما ظنك بأنني لا أريد لك تولي تلك القضية؟ سأخبرك أنا.. أخاف عليك يا همام، أخاف

أن أفقدك وحينها لن أستطيع العيش مجددًا، لقد تجاوزت ما حدث لحليم بفضلك، كنت متواجدًا حولي بوقت احتجت به الأمان، والله ما شعرت به إلا حينما منحته لي عن طيب خاطر، أيقنت أنني لا أحتاج حبًا ملتهبًا يشبه حب الصبية ومراحل العمر الأولى، بل أحتاج ذلك الحب الذي يرسي دعائمنا ويرسخ أقدامنا بالأرض فنثبت ونتثبت ونخطو دون خوف من السقوط، لم أعد فتية حتى أبحث عن نبضة فلتت من موضعها أو خفقة تغير رسم القلب خاصتي وتثير بجسدي رجفة تنفضني وتقذفني في تيه المشاعر، سأخبرك ما أشعره حتى يطمئن هذا..

قالتها وهي تضع يدها بطيب خاطر على موضع خافقه الذي تسارع نبضه بطريقة مجنونة أثارت الرجفة بجسدها قسرًا وغزا الاحمرار وجهها على إثر شعورها بما يعتريه، لكنها أكملت الحديث وقد تعلقت عيناها بعينيه المحدقتين بوجهها في شغف وكأنه ينتظر هطول كلماتها على بور قلبه فيزهر:

في البداية كنت أشعر بالخجل وينتابني دومًا إحساس بالذنب نحو حليم، تعرف أنه كان الأول (وقد تعمدت تركها مفتوحة دون تحديد ماهية الأول حتى لا تثير غيرته أو حزنه) لكنه رحل وكنت أنت متواجدًا حولي، وشيئًا بشيء اعتدت وجودك، صرت أشعر أن حياتي مختلة التوازن حين تغيب أو تنشغل بملاحقة بعض قضايا عملك، في وجعي

وتألمي أثناء الجراحة السابقة علمت أنني لن أستطيع الاستمرار هكذا إلا معك، نظرتك، صوتك، لمساتك الحنونة وهمسك بأذني حين أتألم بألا أبكي لأنك لا تحتمل بكائي. علمت حينها أنك سكنت هنا داخل قلبي (قالتها مشيرة بيدها نحو قلبها وما زالت تتمسك بيده لا تفلتها) لن أستطيع مقارنتك مع أي شخص مر أو سيمر بحياتي، فمن الجور والظلم أن أفعل! أوليس لكل منا حق بأن يتبوأ من قلب المحب مسكنًا؟!

كانت تتحدث وحين وصلت لنهاية الحديث خفضت عينيها أرضًا تشعر بالخجل، فمد يده يرفع وجهها وينظر بعينيها قائلًا بصوت أشج وقد حرك كلامها

عاطفة داخله كان يظنها تحت سيطرة رزانته المعهودة:

انظري إلي، أتريدين إخباري بأنك تحبينني؟! وأنك تخافين فقداني كما فقدتِ حليم!

- بل أخاف عليك بأكثر مما فعلت مع حليم، أخاف لأنني ذقت مر طعمه ذات مرة فبات هاجسًا يرافقني، أن أفقد شخصًا تعلقت به في لحظة ضعف وهشاشة وساعدني على النهوض فتمسكت به بقوة. حليم كان حبًا أتاني برفاهية حب الصبا، لم نتعرض لأزمات لأختبر مدى قوته وصلابته، لم أسقط أرضًا فيرفعني لأنهض على قدمي، بل هو من فعل بي ذلك، علقني بحبه ثم أخطأ فتورط فرحل فسقطت وانهرت. أتعرف! الحب الذي يأتينا

ونحن في أضعف حالاتنا فيقوينا ويساندنا حتى نعود من جديد هو بنظري ما يستحق التمسك به، وأنا أخبرك الآن بأنني أحبك، أحبك من كل قلبي وبعدد نبضاتي ومع كل طرفة تطرفها عيني، أحبك حين أتصل بك لأسمع صوتك فتذهب مخاوفي وأطمئن أنك موجود لأجلي، أعرف أنك تظنها مجرد كلمة تفوهت بها كي أُطمئن قلبك لكنها حقيقة، وستثبت الأيام صدقها..

- وما حاجتنا لإثبات الأيام؟ أنا أصدقك بالتو واللحظة..

قالها مقاطعًا جملتها ثم اقترب يضمها لقلبه وكأنه يريد الإمساك بتلك الدقائق بينهما قبل أن تهرب وتنسل بعيدًا، واستكانت هي بكل خجل تدفن

وجهها تستنشق عطره وتستشعر الدفء المنبعث من جسده فيبثها إحساسًا بالأمان ضاع منها طويلًا حتى نسيت مذاقه، همست بخجل: لن تتسلم تلك القضية لأجلي.

صمت فرفعت وجهها تنظر لعينيه برجاء تكمل بصوت أبح هامس: رجاءً قل لي أنك ستفعل!

أمسك وجهها بين كفيه قائلًا بهمس يوازي همسها: لأجلك سأفعل، فتلك الصفحة طويتها منذ عرفتك وإلى الأبد. لن أحتمل فقدانك وأنا بت متأكدًا بأني وجدتك صدفة فأكملتِ نواقص حياتي، لن أحتمل إيلامك أو سكون الخوف بحدقتيك كل مرة تعلمين بها أنني أخاطر بحياتي لأجل قضية معقدة، سأفعل فقط حتى أشعرك بأن عملي بالمقام الثاني بعدك

وليس الأول كما اعتدت الظن بنفسي، فوالله لا أدري ما حدث لي منذ عرفت أن خافقي لا يرضى إلا قربك.

توقف الزمن بينهما لحظات وكأن عقارب الساعة تواطئت مع همسات الأعين اللامعة وارتجافة الشفاه العطشة ثم اقترب بوجهه منها متسائلًا بلهفة وشوق: ذكريني متى موعد الزفاف؟

ابتسمت بخجل قائلة: بعد أسبوع.

همس بالقرب من وجهها: وحتى يأتي الأسبوع هل تسمحين؟

ولم يعطها الفرصة للرفض أو الإيجاب، فقد كانت اللحظة مسكرة للعقول ومغيبة للمنطق.

تمت